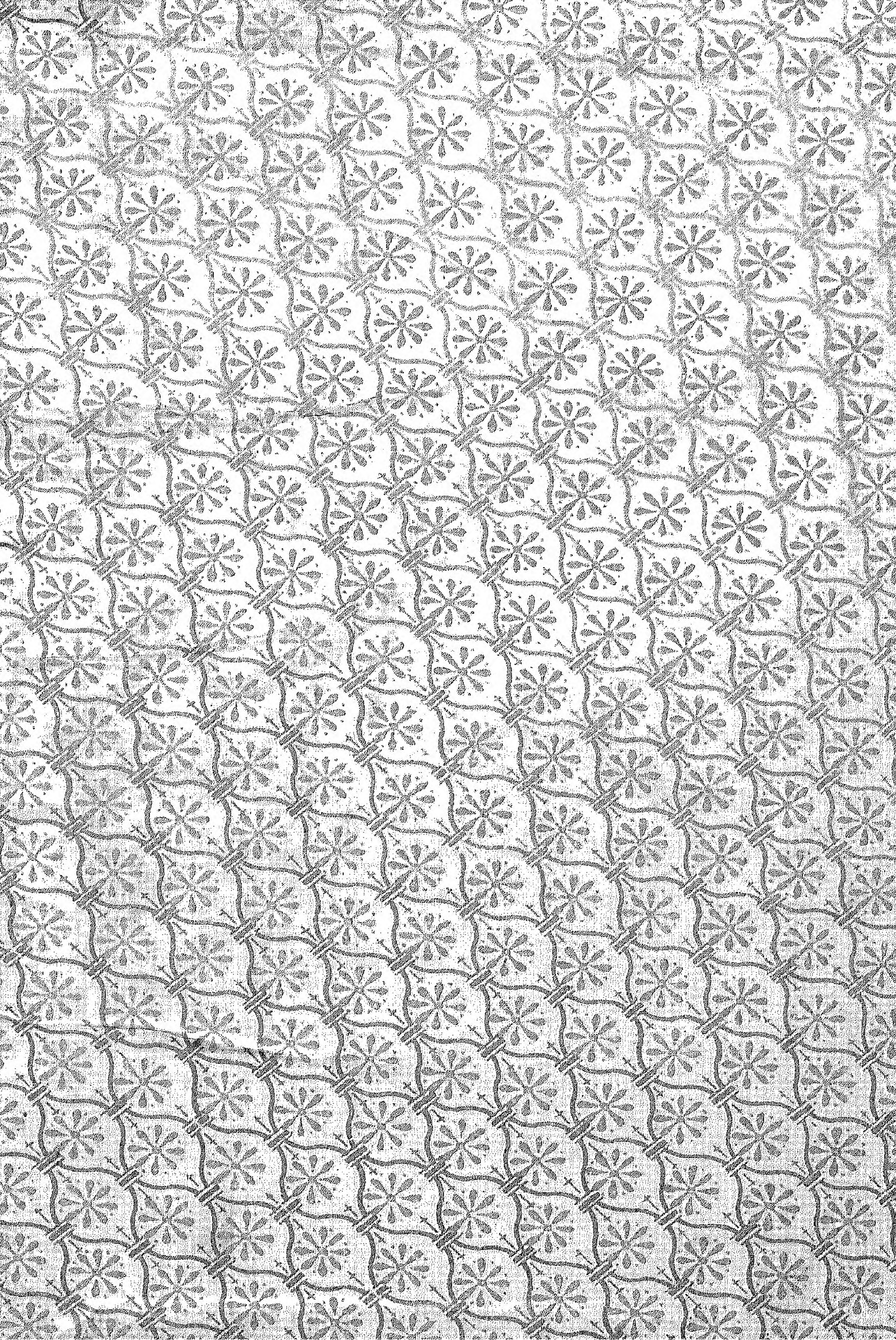
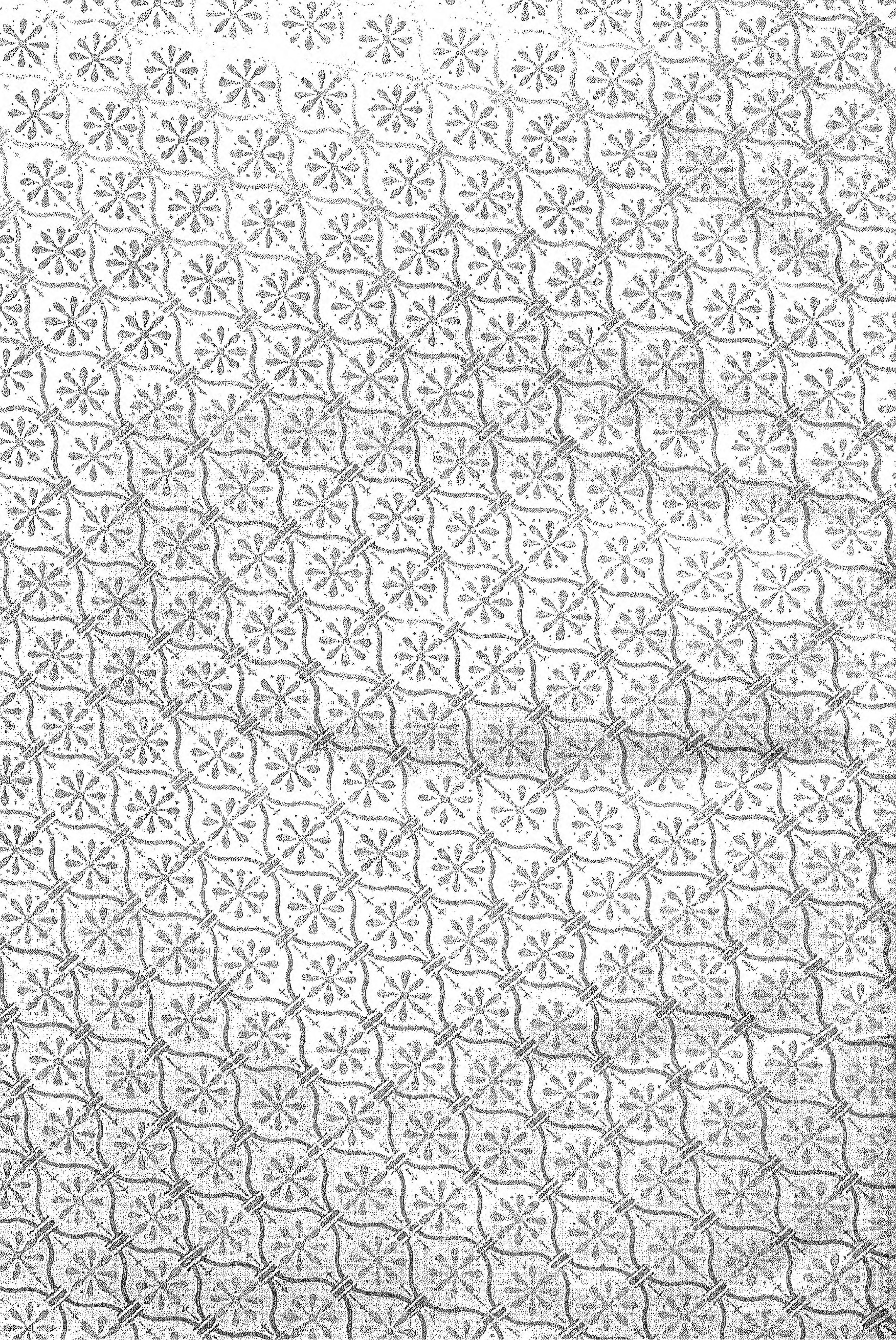






إهــــــداء2005

مهندسة / نهاد أبو الوفا عصام

جمهورية مصر العربية

إهــــــداء2005

مهندسة / نهاد أبو الوفا عصام

جمهورية مصر العربية

كتاب

# تاريخ العصور الوسطى

## فى الشرق والغرب

---

مقرر السنة الثانية الثانوية

---

تأليف

محمد فريد أبو حديد

---



١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن محمد [illegible] شريف

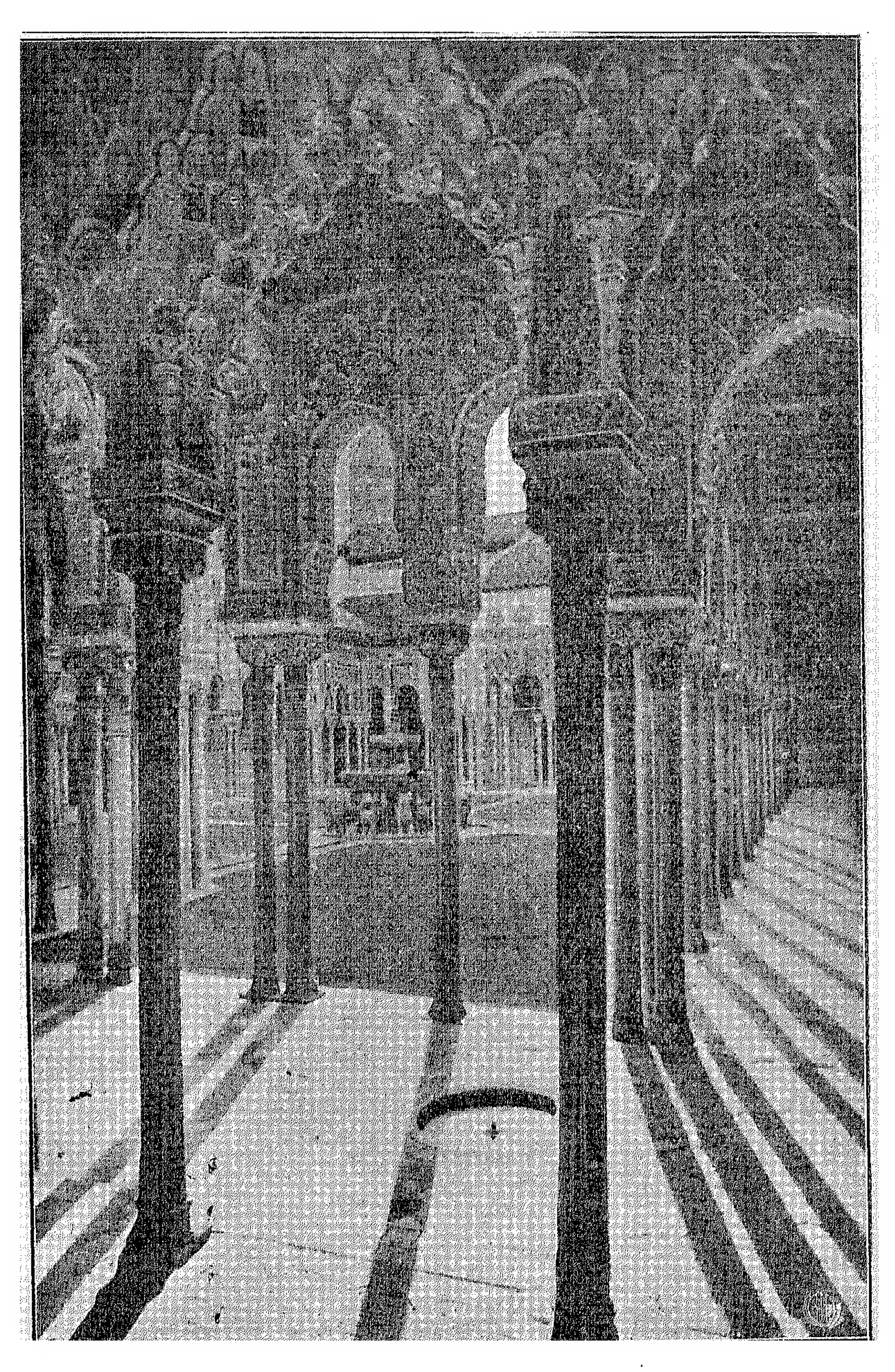
# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحاجة التى كانت دائما تعترض المدرس فى مادة التاريخ فى السنة الثانية قد دفعتنى الى تأليف هذا الكتاب بعد أن عانيت تدريس هذا المنهج منذ ظهوره سنوات متتالية كانت هادية لى فى تعرف خير طريق لبسط موضوعاته لمستوى الطلبة فى تلك السنة

وقد سرت فى معالجة الموضوع السير الطبيعى لشرح التاريخ أعنى أننى توخيت بسط أحوال العصر الواحد فى الدول المختلفة حتى يعرف أثر العصر فى كل الأحياء وأثر كل مجتمع فى المجتمعات الأخرى المعاصرة فان هذا أقرب الى الحياة الحقيقية لأن الدول لاتتأثر بماضيها مثل تأثرها بالدول الأخرى المعاصرة لها ولأن الواقع ان الدهر يمر على الدول جميعاً ويعمل فيها كلها عملا مشتركا — وقد اجتهدت أن أحصر بعد الشرح سير الحوادث فى كل قطر حتى يحصل الطالب على فكرة متماسكة عن تاريخ كل دولة من الدول . وعنيت بالاكثار من الايضاح بالصور والخرائط .

واسأل الله أن أكون قد وفقت إلى ماقصدت من الخدمة ؟



« بهو السباع بقصر الحمراء — بالأندلس »

بسم الله الرحمن الرحيم

## تقديم

يمكن أن يقال عن صدق ان العالم كان منذ القرن الرابع الميلادى فى عصر تطور وانتقال — فقد بلغت الدولة الرومانية القديمة آخر أدوار حياتها منذ ذلك الحين وما زالت تعانى مشا كلها الداخلية والخارجية وماتكاد تحل معضلة حتى تجد أخرى أما فى الداخل من شعبها وأما فى الخارج من الشعوب المجاورة التى تحاول صدع حدودها واقتسام أرضها

وفيما كانت الدولة الرومانية فى هذا التطور والانتقال سقط نصفها الغربى وحل فى أرضها أقوام من البرابرة الذين كانوا يحاولون صدع حدودها من قبل والذين لم ينجحوا فيما مضى أكثر من ان يمدوا جيوش الدولة الرومانية بالمرتزقة ولقد حاول النصف الباقى الشرقى أن يستعيد مافقدوكاد يفلح فى ذلك على يد ملك من أكبر من يذكر اسمه من أباطرة الدولة الرومانية الشرقية وهو جستنيان لولا ان ذلك كان محاولة غير طبيعية فان الذى أدى الى سقوط الدولة الرومانية الغربية فى يد البرابرة كان داء متغلغلا ولم يكن فى طاقة جستنيان أن يعرف دواءه . فكانت النتيجة أن أصيبت الدولة الشرقية بمصائب من وراء تلك المحاولة الثقيلة وزادت منها عوامل ضعف البقية الباقية من ذلك العالم القديم وجعل يحس قرب أجله هو الآخر فى نضاله مع من يليه من الشعوب

فاذا مادقق الانسان فى بحثه رأى ان العالم القديم يتداعى للسقوط جزءا بعد آخر ولكن فى مدى قرون طويلة .

وفيما كانت الدولة القديمة الرومانية فى همها هذا ظهر فجأة على الأفق

شيء غريب وما زال ذلك الشيء يكبر تدريجاً حتى صار الدولة العربية الاسلامية العظيمة وبذلك دخل الى تاريخ العالم عنصر جديد انتقلت إليه السيادة بين الامم من جميع الوجوه من جهة الحرب والمدنية بأنواعها وما زالت السيادة فى الدولة الاسلامية طول ماتسمية بالقرون الوسطى . وكانت أوربا فى أثناء هذافى اضطراب أشبه شيء باضطراب المعدن وهو يغلى فى بودقه الصائغ قبل أن يصيغه فى شكل محدود .

وبعد فترة بدأت مادة هذا المعدن المضطرب ( أوربا ) تتخذ شكلا جديداً وتكونت منها شعوب جديدة من خليط مركب من بقايا الرومان ومن البرابرة الذين حلوا بأرض الدوله الرومانية وكان الخليط بنسب مختلفة ومن عناصر متباينة

ولما تكونت تلك الشعوب بدأت نهضة جديدة واصطدمت تلك الشعوب الناهضة بالعالم الاسلامى حتى انجلى ذلك الاصطدام عن ان الشرق الاسلامى والغرب المسيحى يقف أحدهما ازاء الآخر موقف المنافسة والمناظرة فى المدنية — وهذه كلها مظاهر للنضال المستمر الشبيه بنضال تنازع البقاء — ولقد تمكن الغرب المسيحى أن ينزع من الشرق الاسلامى ما كان فى يده من السيادة وهكذا كانت الدول قديما تتناوب الارث الانسانى من المدنية فتنزع الامم الناشئة تدريجاً السيادة من القديمة ثم تستقر بعد النزاع وتبنى على مااستولت عليه من الاساس والكل عاملون فى بناء صرح واحد وهو الصرح الانسانى الذى يختلف من يبنى طبقاته ولكنه مع ذلك صرح واحد متماسك .

وموضوع هذا الكتاب هو تتبع هذه الحركات العظمى لبيان تفاصيلها وسنتناولها فى الفصول التالية بالايجاز الواجب فانما نقصد من كتابنا ان يكون فى يد طلاب السنة الثانية من المدارس الثانوية وسنقتصر على مافيه حاجتهم وللباحثين ميادين أخرى أوسع مادة وأكثر غناء .

# الباب الأول

## اضمحلال الدولة الرومانية القديمة

لايمكن لأحد أن يفهم تاريخ أوروبا الحديثة اذا هو لم يستوضح ماسبق حلول شعوبها فى أرض الدولة الرومانية القديمة . فقد كانت تلك الدولة الرومانية أعظم هيكل فى العالم منذ القرن الثانى للميلاد وما زالت تبسط سلطانها على الأرض فى جميع مهاب الرياح حتى صارت سيدة العالم لاينازعها فى ذلك منازع . وقد قامت بوظيفتها من نشر المدنية التى ورثتها عمن سبقها وبنت على أساسها ولكن الامم كالأفراد تسير على سنن طبيعية لامحيد عنها . ومن تلك القوانين أن للأمم اعمارا فكما ان الفرد يولد ثم ينمو ثم يتم نموه ثم يضمحل ويزول كذلك الدول . وهناك عوامل تؤدى إلى هذه النتيجة ومن الواجب ان نجعل أساس موضوعنا بحث العوامل التى أدت إلى سقوط تلك الدولة وتحطم هيكلها الضخم وما أعقب ذلك من الاضطراب الناشىء من رجة ذلك التحطيم .

قد بدأت رومة قرية صغيرة كما هو معلوم وما زالت تكبر بالفتح حتى صارت سيدة ايطاليا وقاهرة مابها من الشعوب المختلفة . ثم تعدت إلى صقلية وهناك اصطدمت بالشعب الذى كانت له سيادة البحر الابيض الغربى وهو الشعب الفينيقى ، وهناك بدأت الحروب البونية التى استمرت حتى انتصرت رومة أخيرا فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد وهذا هو دور النمو الاول

وبعد ذلك يبدأ الدور الثانى وفيه نرى رومه وقد اخذت تبسط سلطانها بسرعة مدهشة على بلاد البحر الابيض الشرقى — اليونان وآسيا الصغرى

والشام ثم مصر — وفى أثناء ذلك كانت جيوشها توغل فى مجاهل الشمال — فى غالة وبريطانيا.

وبذلك صارت رومة دولة العالم سطوة وسلطانا تضم كل الدول القديمة المتمدينة وكذلك مجاهل المتوحشين فى الشمال والغرب

غير أن عظمتها كان فى طيها بذور الاضمحلال والضعف . وأكبر العيوب التى كانت بها لم تنشأ الا من الفتح والغنى فان الدولة الرومانية لم تصبح بعد اتساع سلطانها هى رومة القديمة البسيطة بل طرأ على نظامها وشعبها تغير جوهرى

ويمكن أن نلخص وجوه التغير تحت هذين العنوانين

(ا) التغير فى الشعب الرومانى :

كان الاساس الذى قامت عليه عظمة رومة قوة نفوس شعبها البسيط وقد كان الرومانى فلاحا ساذجا تتمثل فيه الرجولة التامة يلبى نداء الواجب سريعاً فاذا ما أحرز النصر لقومه عاد الى محراثه فعاش فى بيته مع أسرته البسيطة كما كان من قبل . ولكن اتساع الفتوح أتى على هذه البساطة وأحل محلها ترفا ونعيما فى الحياة وجعل الرومانى ينتقل فى معيشته الى مستوى الترف الذى كان لليونانيين والقرطاجنيين والمصريين وسواهم ممن جعل يتصل بهم . وقد جر ذلك التغير معه أموراً أخرى كانت معاول تهدم أساس رومه فى ابان عظمتها وأكبر هذه الأمور هي :

(١) انقراض طبقة الملاك الصغار : لما عاد القواد الرومانيون بالغنائم العظيمة من الميادين المختلفة واحرزوا بعد انتصاراتهم الغنى الطائل جعلوا همهم شراء الأرض وتنافسوا فى ذلك ورغب الفلاحون فى الاثمان العالية التى كان الأغنياء يعرضونها لتلك الأراضى فباعوها وصارت الثروة الأرضية تدريجا الى ايد قليلة من الأغنياء ثم صحب ذلك عامل آخر وهو ان

الاسرى الكثيرة التي كانت تحمل الى رومة فتباع فى أسواقها عقب كل نصر كانت أرخص فى العمل من الرجل الحر الاجير فاستعمل الاغنياء الارقاء فى فلاحة أرضهم وبهذا لم يجد الفلاح القديم الا النزوح الى العواصم الكبرى وهناك عاش عيشة البطالة التى ستجر معها فى المستقبل اكبر السيئات .

وكان هؤلاء الفلاحون أعظم عامل فى نصر رومة فى أيام نشأتها فلما أن صاروا الى تلك الحال لم يبق ما كان لهم من الفضائل القديمة التى كانت تجعلهم اداة الانتصار وهذا مهد السبيل الى استخدام الجنود من الأجانب المرتزقين

(٢) الحاجة الى الجيوش القائمة :

لما اتسعت دائرة الفتوح لم تكن الجيوش الرومانية القديمة كافية المحافظة على الدولة ، فقد كانت رومة من قبل تدعو المواطنين الى حمل السلاح للقيام بواجب الجهاد القومى اذا ماهاجمها مهاجم أو أرادت الغزو فيما يليها من البلاد وبعد انتهاء الحرب يعود كل الى عمله الذى كان يمارسه من قبل ولم يكن استمرار هذه الحال بمستطاع بعد ان اتسعت الفتوح ودخلت الى الدولة الرومانية شعوب أجنبية لابد من اخضاعها والسهر على طاعتها فان ذلك الاتساع استلزم وجود الجيوش القائمة اى التى تبقى باستمرار للمحافظة على الدولة . وكان عدد هذه الجيوش يزيد زيادة مضطردة كلما زاد اتساع الدولة . وكان الضغط على الدولة من الخارج يدعو الى ان ترابط جيوش قوية على الحدود حتى تدفع المتوحشين عنها

ولا شك فى ان مثل هذه الجيوش الكبيرة التى تلزم لاخضاع الشعوب الداخلة فى الدولة ورد الاغارات من الخارج كانت تستنزف كثيراً من أموال الدولة ولا سيما بعد أن صار عدد الوطنيين فى الجيش قليلا وصار أكثر

الاتكال على المرتزقة الأجانب عند تغير روح الشعب الرومانى كما مر .

(ب) التغيير فى نظام الدوله الرومانية:

كانت رومة فى وقت نموها جمهورية على رأسها مجلس الشيوخ الذى كان يحكمها بحكمة واعتدال وقد كان ذلك المجلس يتصرف فى كل الأمور العامة من قضاء وادارة وقيادة وتشريع . والحق ان جمع تلك القوة الهائلة فى يد مجلس واحد منتقد فى كثير من الوجوه ولكن عيب ذلك النظام لم يظهر فى بادئ الأمر نظراً لضيق دائرة الدولة الرومانية فلما ان اتسعت الفتوح بدأت العيوب تظهر تدريجاً . وقد تضافرت عوامل عدة على ظهور الفساد فى نظام الدولة وسنحاول أن نوضحه بايجاز

(١) سوء استعمال السلطة :

ان رومة الفقيرة الصغيرة لم يكن بها مايحمل ذوى الاطماع على أطماعهم ولكن لما صارت رومة غنية تحكم البلاد المتسعة وجدت ميادين فسيحة لذوى الأطماع فكان من أعضاء مجلس الشيوخ من اذا ولى امارة من امارات الدولة أفسد فيها وقبل الرشى وظلم معتمدا على مكانته فى مجلس الشيوخ وأصدقائه فيه وكل منهم يطمع فى مثل مايعمل له ذلك الحاكم الظالم وبهذا بدأ الحكام من أعضاء ذلك المجلس يتوسلون بمنصبهم إلى غايات مادية دنيئة وهم آمنون .

(٢) انحطاط مستوى أعضاء المجلس الخلقى:

كان أعضاء مجلس الشيوخ قديما يضرب بهم المثل فى العظمة الخلقية وليس ببعيد وصف جيران الرومانيين له بأنه مجلس مكون « من ملوك » أشارة إلى ما كان عليه أعضاء المجلس من السمو فى الفضائل العامة . فلما ان صار مجلس الشيوخ مؤديا إلى الأطماع الخاصة جعل ذوو الغايات المادية يسعون جهدهم ليصيروا أعضاء فيه حتى كان بعضهم يستدين لكى يصل

إلى غرضه عالما انه سوف يحصل من وراء عضوية ذلك المجلس على فوائد تعوض عليه مابذل . وهكذا جعل مستوى الأعضاء ينحط فلم يصبح مكوناً من « ملوك » بل من ذوى أطماع

وقد ساعد على الوصول إلى هذه الغاية ان الشعب الرومانى الذى كان له حق انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ كان قد طرأ عليه التغير الذى وصفناه آنفا فصار من السهل التأثير عليه ورشوته وصار من يقدم له أكبر مقدار من الملاهى والخمور والمآكل والمشارب يصبح أحب إليه من غيره وصار ذلك الشعب العاطل القاسى لاينتخب للمجلس الا من يشبع ملذاته الدنيئة .

(٣) تطاحن أعضاء مجلس الشيوخ:

وهذه نتيجة لازمة لانحطاط مستوى الأعضاء فان الأعضاء عظماء النفوس لايمكن أن يتطاحنوا على منافع خاصة كما انهم لايمكن أن يسمحوا لأفراد قلائل أن يتطاحنوا على السيادة وهم ساكنون لايتحركون . فلما أن انحط مستوى الأعضاء أمكن أن يتغلب جماعة من ذوى الشخصيات القوية على السلطان وكان الباقون أتباعا اما لأحدهم واما للآخر . وكان المتنازعون لايقصدون وجه الخير فى تطاحنهم وما كان التطاحن أبداً الا وسيلة للمنفعة الفردية . وهكذا ظهر أمثال ماريوس وسلا ثم بومبيوس ويوليوس قيصر ثم أنطونيوس واكتافيوس وهكذا آل الأمر أخيراً إلى تفرد واحد بالسلطة وهو الامبراطور أغسطس ( اكتافيوس ) ومن ذلك الوقت يمكن أن يقال ان العظمة الحقيقية للدولة الرومانية قد تم زوالها .

(٤) عجز النظام القديم عن الحاجة الجديدة :

شملت الدولة الرومانية أقاليم كثيرة يسكنها شعوب مختلفة مكونة من وحدات اقليمية متباعدة منفصلة متباينة في جوها وطبائعها ولكن مع ذلك قد بقي نظام الحكومة كما كان فكانت رومة مركز الدولة الواسعة كما كانت

هى مركز الدولة القديمة الصغيرة . ولكن لم يكن من الطبيعى أن يتحمل ذلك القلب كل الحمل الثقيل الذى رمى عليه وبدأت تشعر ان لابد لها من تغيير فى نظامها ولكن ذلك التغيير لم يسر مع حاجة الدولة . فسعت الحكومة الرومانية ( التى صارت بعد ذلك فى أيدى الأباطرة ) إلى أن تحافظ على الدولة بما تستطيع من قوة الجيوش وما كانت قوة الجيوش وحدها لتحافظ على الدولة .

وقد أدت الحاجة إلى الدفاع إلى ادخال وسائل جديدة مثل تقسيم دقلديانوس للدولة الى أقسام أربعة ومثل حشد الجيوش القوية على ثغور الدولة من عند نهرى الدانوب من الشرق والرين من الغرب ومثل بناء العاصمة الشرقية ( قسطنطينية ) التى بناها قسطنطين لتكون معقلا حصيناً فى الشرق . ومثل تقسم الدولة نهائياً إلى قسمين شرقى وغربى بعد موت تيودوسيوس . ولكن كل هذه الوسائل لم تكن مغنية فانما هي أدوية مؤقتة تسكن الألم ولا تشفى ،

سقوط رومة

ولما آل الأمر الى ماوصفناه من الضعف وظهرت الأمراض الاجتماعية المستعصية وضعف نظام الحكم عن الوفاء بحاجة الدولة جعلت الاغارات تتخذ شكلا مفزعا .

فان الاغارات الاجنبية لم تنقطع فى عصر من العصور ولكن كانت رومة القوية فى شبابها لا تعبأ بتلك الاغارات بل تردها بغير تكلف ولا مشقة فلما ان بلغت الدولة مرحلة الضعف ظهر عجزها عن مقابلة هجوم المغيرين . فكانت أشد الاخطار على وجود الدولة تلك الأمراض التى تفتك بها فى الداخل . قواد من المرتزقة يتخاصمون ويثورون وخزائن الدولة قد استنزفتها اطماع الجيوش والقواد والدولة ليس لها كرامة عند الجنود

الاجانب الذين يهزأون بآلامها والشعب العاطل الفاسد غارق فى جهله ورذائله لا يستطيع ان يتحرك للدفاع عن نفسه وموارد الدولة ذاتها قد ضعفت مما توالى عليها من المحن والثورات وأجزاء الدولة المختلفة لا تجد من الحكومة المركزية لا حكما عادلا يحببها اليها ولا قوة تخشاها ، وهكذا جعلت الصدمات تثقل على تلك الدولة فتضعف أمامها تدريجا وحلت قبائل الهمج فى جهات الدولة الرومانية حتى كانت الضربة الأخيرة فى أواخر القرن الخامس سنة ٤٧٦ ميلادية على يد أودوا كر ) وهو زعيم الجيش المرتزق اذ ثار ثورة ليطالب بثلث أرض ايطاليا للجنود وكانت نتيجة تلك الثورة عزل آخر أباطرة رومة ( رومیولوس اغسطولوس ) وصار ( اودوا كر ) الزعيم المرتزق شبه ملك على ايطاليا خاضعا بالاسم للامبراطور الشرقى الحاكم فى قسطنطينية

وهذا التاريخ سنة ٤٧٦ من أهم أعلام الحوادث فانه بدء لحركات عظيمة وانقلاب كبير فى أوربا ويعتبر هذا العام اول ما يسمى بالعصور الوسطى .

## تقسيم الدولة الرومانية بين الهمج

نقصد بالهمج الشعوب التى كانت منذ أيام عظمة الدولة الرومانية تسكن البقاع الشمالية الخارجة عن حدود تلك الدولة ويمكن ان نسميهم بالجرمان بوجه عام ولقد كان هؤلاء بين حين وآخر يغيرون على الدولة فتردهم عنها جيوشها المدربة القوية وذلك قبل ان يستفحل بها الداء فيضعف حيويتها وكان هؤلاء الهمج يعيشون فى قرى أشبه بنجوع البدو ولم يكن لهم دراية بالفلاحة ولا بالصناعة وانما كانت حياتهم على الرعاية وكانوا فى بلادهم الشمالية الباردة يعيشون عيشة خشنة جعلتهم أصلب عودا من أهل الحضارة

وكانوا على دأب فى الحرب فعودهم ذلك الاقدام على خوض غمارها كلما وجدوا فرصة ولا شك ان الاراضى الخصبة والمدائن الغنية التى كانت داخل حدود الدولة الرومانية كانت غنيمة هائلة يتطلع اليها هؤلاء الهمج طامعين فى الاستيلاء عليها . وكانوا اذا أغاروا اتبعوا انظاما بدويا فى حربهم فكل كتيبة من قبيلة واحدة وعلى رأسها زعيم مبجل منهم ولعل ذلك كان داعيا الى التساند والتعاون فى الحرب فكانت حربهم لذلك شديدة الوطأة على الجيوش المتحضرة . ولا سيما بعد ان صارت الجيوش الرومانية من المرتزقة أو من أهل المدن الذين مر وصف انحطاط مستواهم الخلقى

وقد رأى أباطرة الرومان المتأخرون قلة جدوى الاستمرار على دفعهم عن حدود الدولة فجعلوا يسمحون لهم بالدخول والحلول ببعض بلادها . وصاروا يتخذون منهم جنوداً وقوادا

وقد كان فى حدود الدولة ثغران يسهل على المغير الاغارة منهما الأول عند نهر الطونة الأسفل وهو مايسمى بميدان داسيا والثانى عند نهر الرين الأسفل وهو مايسمى بميدان جرمانيا ، وسنذكر أكبر القبائل الضاربة عند كل من الثغرين وبيان الجهات التى نزعوها من الدولة وحلوا فيها .

(١) ميدان جرمانيا

كانت هناك قبائل عدة أكبرها الفرنج ويليهم الفندال والألمانى والبرغنديون وقد كان هؤلاء منذ أيام قسطنطين خطرا عظيما على الدولة حتى اضطر الامبراطور جوليان أن يجعل هناك عاصمة لتكون مركزاً للدفاع ضدهم وهى ( باريس ) ولكن لما اضطربت أمور الدولة فى القرن الخامس حل الفرنج فى حوض نهر الرين الأسفل وهناك أقاموا شبه دولة كانت هي الأساس الذى سيبنى عليه الملك الفرنجى العظيم ملكه فيما بعد وهو كلودوفيج أو كلوفس كما سيأتى

وأما الالمانى فحلوا قريبا منهم ولكن الى الشرق والجنوب

وأما القندال فانهم اقتحموا الرين فى أوائل القرن الخامس وجاسوا خلال بلاد غالة الرومانية وما زالوا حتى حلوا فى بلاد اسبانيا وهناك كونوا دولتهم اسميا تحت سيادة امبراطور الدولة الرومانية الغربية المقيم فى رومة والحقيقة انهم كانوا غير خاضعين لسلطانه . ولكنهم بعد قليل عبروا الى شمال افريقيا وما زالوا فى القطرين معا حتى نزعت اسبانيا من يدهم اذ طردهم منها قبائل جرمانية أخرى وهم القوط الغربيون كما سيأتى . وأما البرغنديون فانهم حلوا فى هذه الأثناء فى الجنوب الشرقى من بلاد غاله فى حوض نهر الرون

(٢) ميدان داسيا

كان أهم الشعوب الجرمانية المقيمة على ضفاف الطونه شعوب القوط ، وقد اضطر هؤلاء لاقتحام حدود الدولة عند ما ضغط عليهم الشعب الفظيع شعب الهون ، ومن ذلك الوقت سمح لهم أباطرة الرومان



( شكل ١ — اتلا ملك الهون )

بالاقامة داخل حدود الدولة ولكن لم يخل الأمر من وجود احتكاك بينهم وبين الرومان أدى إلى حروب دموية بينهما نذكر منها موقعة

ادرنه التى قتل فيها الامبراطور ڤالنس سنة ٣٧٨ أى فى أواخر القرن الرابع للميلاد . ومن ذلك الوقت عظم شأن القوط فى الدولة وقد ظهر فيهم ملك نابغ ( الريك ) فى أوائل القرن الخامس قادهم وجعل يضرب بهم فى قلب الدولة الرومانية ويصول فى البلقان حينا وفى بلاد اليونان حينا ثم قادهم بعد ذلك محملين بالغنائم إلى بلاد ايطاليا فنهب رومة العاصمة الكبرى سنة ٤١٠ . ومن ثم سار بهم الى بلاد غالة ولما مات هناك قادهم خلفه الى اسبانيا حيث حلوا محل الڤندال بعد اجلائهم عنها . وهناك أقاموا دولة جديدة تقر بالسيادة للامبراطور الغربى فى رومة كما كان يفعل سلفهم الڤندال فى اسبانيا

١ — غارات أخرى

بريطانيا : وفى هذه الاثناء كانت قبائل أخرى تلج فى نواح أخرى من الدولة الرومانية نذكر منها قبائل السكسون والانجليز المقيمين عند سواحل بحر الشمال من جرمانيا فان هؤلاء عبروا البحر الى بريطانيا وكانت جيوش الرومان قد جلت عنها قبل ذلك لحاجة الدولة اليها فى دفع الأخطار الكثيرة التى كانت تهددها ومن ذلك الوقت صارت بريطانيا فى يد الشعب الجرمانى الذى اقام فيها الاساس الأول للشعب الانجليزى الحالى

الهون : قد ذكرنا أن القوط الغربيين اضطروا الى دخول بلاد الدولة الرومانية فى القرن الرابع لضغط الهون عليهم وقد كان هؤلاء الهون من الجنس المغولى أو هم من الترك اذا شئت أن تسميهم وكانوا فرسانا على جانب عظيم من المهارة والشجاعة حتى انهم أوقعوا الرعب فى قلوب من اصطدموا به فكان الجرمانيون على شجاعتهم وقوتهم يفزعون أيما فزع من لقائهم وقد بقيت هذه القبائل قرب نهر الدانوب فى شرق أوروبا الى أواسط القرن الخامس ودانت لسلطتهم بلاد

كثيرة وشعوب مختلفة من الجرمان وكان امبراطورا الشرق والغرب على السواء يفزعان من اغارتهم أكثر من فزعهم لاية اغارة أخرى . وفى أواسط القرن الخامس أغار ملكهم الكبير المشهور باسم (اتلا) على ايطاليا وكانت الدولة الرومانية الغربية فى أواخر عمرها بعد توالى الصدمات والاغارات عليها ولكن تألب على الهون المخيفين جميع من يخشاهم واشترك فى الدفاع جيوش الامبراطورية الغربية مع جيوش الفرنج والقوط الغربيين وصدت تلك القبائل فى موقعة شالون سنة ٤٥١ وهى موقعة تعتبر من أكبر المواقع فى التاريخ لأن الهون لو انتصروا فيها لتغير وجه التاريخ ولكانت السيادة فى أوربا الحالية لسلالة الهون الاتراك وليس لسلالة الجرمان . وقد دمرت دولة الهون بعد موقعة شالون اذلم يكن لها اصل راس فى الارض

# انتهاء الدولة الغربية الرومانية

بعد أن نزعت هذه البلاد عن الدولة الرومانية الغربية لم يبق لها الا ايطاليا وكانت مهدودة القوى خاوية الخزائن معطلة الاعمال ولم يغن عنها أن المغيرين على بلاد الدولة من الهمج كانوا يظهرون الطاعة للامبراطور ولم يكن للامبراطور فى آخر الامر شىء من السلطة بل تسربت كلها الى أيدى القواد وهم من الجرمان الاجانب عادة فلما قامت ثورة سنة ٤٧٦ لم يحدث تغير حقيقى فى الدولة فانما تغير الاسم فعزل آخر الاباطرة وهو (روميولوس اغطيولوس) وتولى مكانه القائد الجرمانى (أوداكر) وأرسل وفدا من الاعيان الى امبراطور الدولة الشرقية فى قسطنطينية وهو (زينو) يخبره أن امبراطورا واحدا فيه الكفاية وأنه يخضع لسلطانه ويحكم باسمه فى ايطاليا . وهكذا زالت الدولة القديمة اسما بعد زوالها فعلا ومن

ذلك الوقت توالى عليها الجرمانيون دولة بعد دولة كما سيظهر فى هذا التاريخ ولا يمكن أن تعتبر دولة ( اود وا كر ) دولة بالمعنى الصحيح فانهـا لم تـكن نتيجة استيلاء شعب معين على ايطاليا بل نتيجة ثورة من الجيش ضـد الامبراطور وتولية قائد الجيش على الحكم ، فلم يكن لدولة ( اود وا كر ) صبغة خاصة بل هي الدولة القديمة وقد تغير حاكمها فأصبح قائدا من الجرمان ترتكز سلطته على جيش من اخلاط من قبائل مختلفة ، ولن تتكون فى ايطاليا دولة لها صبغة خاصة الا بعد ان يحل القوط الشرقيون فيها ويستولوا عليها بقيادة ملكهم العظيم ( تيودوريك ) كما سيأتى :

# قيام الدول البربرية الجديدة

تكونت من تلك الشعوب الهمجية التى حلت بأراضى الدولة الرومانية دول بقى شأنها فى أوربا عظيما مدة تختلف طولا وقصرا ومهما يكن من الأمر فان تلك الدول الهمجية بذور دول أوربا الحديثة التى هي عبارة عن خليط من مدنية الرومان القديمة وقد امتزجت بنسب مختلفة مع الشعوب الجرمانية التى دخلت اليها . وباختلاف تلك النسب فى المزيج تختلف طباع الشعوب الحديثة ومدنياتها وصبغاتها فمنها مايكون به العنصر الرومانى اظهر من الجرمانى ومنها ما يكون فيه العنصر الجرمانى هو الاغلب وانا ذاكرون هنا بعض هذه الدول ومتتبعين سيرتها

## (١) دولة الفرنجة

حل الفرنج فى أول عهدهم بأرض الدولة الرومانية فى حوض نهر الرين وكانوا على عادة سائر الجرمانيين قبائل وبطون لـكل منها رئيس ، وكانوا قسمين رئيسين الاول ( الريبارى ) وكانوا على ضفاف الرين الاوسط والثانى ( السالى ) وكانوا على مصاب نهر الرين والى الغرب منه

وكان الفرنج على العموم شعبا طويل القامة شديدا قويا على تحمل الآلام ويلبسون ملابس ضيقة ويسدلون شعورهم الصفراء أو يضفرونها ضفائر تقع على أكتافهم أو ظهورهم .



( شكل ٢ — محارب فرنجى )

ويتركون شواربهم الطويلة تنسدل على جوانب ذقونهم الحليقة ، فكان من ذلك منظر مهيب في الحروب .

وكانت أسلحتهم الفاس ( البلطة ) والسيف والحراب ذات السنين ولما حلوا بأرض الرين جعلوا يزرعون إلى جانب الرعاية

وكان أكثر قبائل الفرنج يخضعون لأمراء من أسرة واحدة وهى ( الميروفنجية ) . وقد جعل بعض هؤلاء الأمراء ينبغ لاسيما فى الفرنج السالين ويمكن أن يعتبر واضع أساس المملكة الفرنجية الأمير ( شلدريك ) وهو أبو الملك ( كلوفس ) العظيم .

و( كلوفس ) تحريف اسمه الحقيقى ( كلودوفيج ) بدأ حكمه سنة ٤٨١ وكان ملكه لايتعدى حكم طائفة من القبائل الفرنجية ولكنه حكم مدة ثلاثين عاما إلى سنة ٥١١ ترك بعدها دولة عظيمة راسية الأساس ستبقى فى أوربا ثابتة مع تقلب الحوادث وتقاوم الصدمات العنيفة التى ستقضى على كل ماعداها من الدول البربرية التى تكونت منذ ذلك العصر .

حالة غالة عند أول حكم كلوفس

كانت بلاد غالة فى أواخر القرن الخامس مقسمة إلى أقسام أربعة كبرى

(١) بقية أملاك الدولة الرومانية القديمة

عند انتهاء الدولة الرومانية كما مر سنة ٤٧٦ بقيت فى غالة بقية من الجيوش الرومانية يحكمها القائد ( سياجريوس ) فاستقل بقطعة من بلاد غالة وكان البرابرة يسمونه ( ملك الرومان ) وكانت دولته حول نهر السين .

(٢) جنوب غالة وكانت تحت حكم القوط الغربيين الذين مر ذكر تكوين دولتهم فى الأندلس وكانت حدودهم واصلة إلى نهر اللوار

(٣) حوض نهر الرين وقد حل به البرغنديون فى أوائل القرن الخامس كما مر .

حروب كلوفس

بدأ كلوفس سلسلة حروب على مايليه وكان أولها على قسم سياجريوس فضمه سنة ٤٨٦ بعد موقعة قرب مدينة سواسون . ومن هناك بدأ سلسلة حروب مع جيرانه فاما الحرب مع البرغنديين فلم تاته بأ كثر من خضوع أميرها لكلوفس . واما الحرب مع القوط الغربيين فاستمرت مدة طويلة وقتل فيها ملك القوط الاريك الثانى واستطاع الملك الفرنجى أن يضم لدولته كل جنوب بلاد الغال وبذلك صارت دولته ممتدة من بلاد الرين إلى البرانس ماعدا حوض الرين .

سر نجاح كلوفس

كان أ كبر عامل على نجاح كلوفس مالقيه من المساعدة من أهل غالة الاصليين ومن رؤساء دينهم . والسر فى ذلك انه دخل فى النصرانية سنة ٤٩٦ وكان أ كبر الفضل فى ذلك لزوجته المسيحية البرغندية كلوتلدا وتنصر معه الفرنج واتخذوا المذهب الكاثوليكى وصاروا بذلك مثل أهل البلاد الاصليين مذهبا . فقرب هذا بين الحكام وبين المحكومين وجعل رجال الدين يساعدون على نصر الفرنج بكل مايستطيعون من نفوذ ومما زاد فى

نفوذ الفرنج ميل أباطرة الدولة الشرقية إليهم توسلا بهم إلى النكاية بالدول البربرية الأخرى وكان الاتفاق فى المذهب الدينى عاملا على سرعة الامتزاج بين الفرنج والغاليين كما انه كان يجعل الغاليين يتسامحون كثيراً فيما قد يكون في الفرنج من الصفات التى عرفت عنهم مثل القسوة والغدر وحب سفك الدماء .

دولة القوط الغربية

بعد ان حل القوط فى اسبانيا فى أوائل القرن الخامس كما مر دانت لهم الشعوب المختلفة التى فى شبه الجزيرة من الاسبانيين الاصليين وممن تخلف من قبائل الفندال والسويفى فى الجبال الشمالية الغربية وهنالك تأسست دولة قائمة على قانون القوط وعاداتهم وكانت من أقوى الدول البربرية الجديدة ولا سيما فى أيام الملك (يوريك) ولكن قصر مدة حكمه عرضت بلاده للغزو الفرنج بعد موته سنة ٤٨٥ ولم يكن خلفه الاريك الثانى على مثل شجاعته وقوته وكان وجه الضعف فى تلك الدولة ان القوط الفاتحين كانوا على المذهب المسيحى الآرى . وهو مخالف للمذهب المسيحى الذى كانت تدين به البلاد الداخلة فى الدولة الرومانية قديما فكان هذا عاملا على بقاء الحكام منفصلين عن الاهلين الأصليين فظلوا إلى النهاية أقلية حاكمة فوق أكثرية مخالفة لها

وكانت هنالك وجوه كثيرة تعمل على اضطراب دولة القوط باسبانيا وأهمها سطح البلاد فانه من السهل على القبائل التى تريد أن تحافظ على استقلالها باسبانيا أن تعتصم ببعض الوديان فى الجهات الجبلية لاسيما العالية التى فى الشمال والشمال الغربى ويلى هذا العامل عامل آخر وهو انقراض لأسرة المالكية (أسرة الريك المعروفة بأسرة البلطيج) فانها انقرضت أثناء التضال الذى كان دائم الحدوث بين الفرنج والقوط وكان هذا مؤديا الى تشاحن الأمراء ورؤوس الاسرات الكبرى على الملك يساعدهم سطح

البلاد وكثرة الفواصل الجبلية بها فكانت الدولة دائما مهددة بالثورات وانفصال بعض الدويلات فى جهة من الجهات عن الدولة المركزية .

المذهب الآرى . كان هذا مذهبا فى الديانة المسيحية اعتنقه كل البربرة عند أول دخولهم فى المسيحية ما عدا الفرنج الذين دخلوا فى المذهب الكاثوليكى مباشرة .

ومما يسترعى النظر أن جميع الشعوب البربرية استمرت سائرة على المذهب الآرى مدة طويلة حتى تبين لها ما فى السير عليه من الضرر بها لأنه كان عاملا على بقائها طبقة قليلة حاكمة فوق أكثرية الأهلين الذين يخالفونهم فى المذهب ولا يمكن الامتزاج والاختلاط بهم للفرق فى المذهب وعند ما تبين للشعوب الحاكمة (البربرية) هذا الضرر تركوا الآرية واعتنقوا المذهب الكاثوليكى .

وليس هنا مكان البحث فى حقيقة المذهب الآرى ووجوه الفرق بينه وبين المذهب الكاثوليكى ولكن يكفى ان نبين أنه نسبة الى اريوس أحد كبار رجال الدين فى القرن الرابع الميلادى ولعل أكبر وجوه خلافه عن سواه من أصحاب المذاهب المسيحية أن عقيدته أقرب الى اعتبار أن السيد المسيح (الابن) انما يستمد نوره من الله (الأب) الذى أوجده من العدم وذلك يخالف العقيدة المسيحية العامة .

# دولة الوندال (الڤندال)

اصطدم القوط الغربيون عند دخولهم اسبانيا بالبرابرة (الوندال) الذين سبقوهم الى هناك . وهناك كان الانتصار للقوط . وأما الوندال واخوانهم السويفي وسواهم فبعضهم تحصن فى الجبال الشمالية وبعضهم عبر الى شمال افريقيا وعم ملكهم على ذلك الاقليم من طنجه الى طرابلس .

وقد أقام الوندال هناك فى القرن الخامس دولة اشتهرت بقوتها البحرية وعرفت بين الدول باقدامها على التدمير والنهب . فكانت أساطيلها تفتك بما يسير فى البحر من سفن الرومان وسواهم وكان ملوك الوندال بين حين وآخر يرسلون سفنهم الى ايطاليا فتغير على رومه وتشترك فى نهش دولتها الضعيفة فى أواخر أيامها . وكان أعظم ملوك الوندال (جنسريك) أو (جيسريق) وهو الذى بلغ بسطوة الوندال الى أعلى مابلغت فسير أساطيله الى رومه فنهبتها سنة ٤٥٥ وطالت مدة حكمه الى سنة ٤٧٧ فكانت دولته فى أيامه من أقوى الدول البربريه الجديدة . ولكن تلك الدولة كانت قائمة على غير أساس متين فان الوندال كانوا مثل القوط الغربيين (آريين) فى المذهب وبذلك كانوا على غير مذهب عامة أهل شمال افريقيا (الكاثوليك) وهذا كان داعيا الى سلسلة من مواقف الشقاق الدينى والاضطهاد الفظيع وكان أهل البلاد لذلك يحقدون على الطبقة الحاكمة من الوندال ويتربصون بها الدوائر فبقيت دولة الوندال أقلية تحكم أكثرية تكرهها ولا يمكن الاختلاط بينهما للفرق المذهبى . وقد زاد هذا الشقاق شدة بعد أيام (جيسريق) وكان من العوامل على ضعف الدوله كما سيأتى .

## ملخص الباب الاول

عندما اتسعت املاك رومة دب فيها الفساد من وجوه كثيرة فاضمحل الشعب الرومانى وأصبح غير جدير بالسيادة وضعفت قوة الدولة لما تحملته من الأحمال الثقيلة التى ليس من الطبيعى أن تحملها دولة . فبدأت الدولة الرومانية تضعف أمام هجمات المغيرين على أراضيها وكان أكبر هؤلاء المغيرين هم الفرنج والقوط الغربيون والوندال والهون والبرغنديون والانجليز والسكسون .

وقد قام بعض هؤلاء البرابرة بتأسيس دول فى الأراضى التى حلوا بها من أراضى الدولة الرومانية القديمة وأكبرهم القوط الغربيون والوندال والفرنج . وكان لنزع هذه البلاد من دولة الرومان وتكوين هـذه الدول وقع سيء عليها وزاد اضطراباتها الداخلية الى أن تجرأ أحد قوادها من المرتزقين البرابرة ( اودواكر ) على أن يخلع الامبراطور فى رومة ويحل هو محله فى الحكم سنة ٤٧٦ ولكنه لم يتخذ لقب الامبراطور بل أرسل يعلن خضوعه للامبراطور الشرقى مكتفيا بوجود امبراطور واحد .

وقد نمت قوة الدول البربرية الجديدة فى أثناء القرن الخامس حتى اذا ما هل القرن السادس كانت هناك فى أوربا ثلاث دول كبرى من هذه الدول الناشئة وهى الدولة الفرنجية التى وسعها كلوفس وبلغ بها جبال البرانس والدولة القوطية باسبانيا وكانت أولا تمتد من جنوب اسبانيا الى نهر اللوار ولكنها نقصت أكثر البلاد الواقعة شمال البرانس إذ غلبها الملك الفرنجى كلوڤس عليها ولا سيما عند ماخلاله الميدان بموت الملك ( أوريك ) القوى العظيم وتولية الاريك الثانى الضعيف بدله والدولة الثالثة هى دولة الوندال

بشمال افريقيا وبلغت أقصى سلطانها فى أيام الملك جيسريق واشتهرت باغاراتها البحرية على ما يليها من البلاد .

وجميع الدول البربرية كانت مخالفة للأهالى فى المذهب الدينى لأنها كانت آرية الا الفرنج فقد كانوا كاثوليكا وهذا هو السر فى أن دولة الفرنج هى الدولة الوحيدة التى بقيت بعد زوال كل الدول البربرية الاخرى فان وحدة الدين جعلت من السهل امتزاج الفرنج المغيرين بالأهالى الأصليين وسهلت بذلك تكوين دولة متماسكة مستقرة .

## أسئلة على الباب الاول

ما وجوه الاضمحلال الذى دب بالدولة الرومانية ؟ كيف حاولت الحكومات الرومانية مقابلة الاخطار وما مقدار نجاح وسائلها ؟ ما معنى البرابرة ؟ وما أكبر الشعوب البربرية ؟ ما أكبر الدول البربرية واين تكونت كل واحدة منها ؟ ماهى مميزات دولة الفرنج ؟ ما أقسام غالة قبل تكوين دولة كلوفس ؟ ما مذهب البرابرة وما أثر ذلك المذهب فى الدول الجديدة ؟

# الباب الثانى

## الدولة الرومانية الشرقية

### فى القرنين الخامس والسادس

بعد تقسيم الدولة الرومانية نهائياً إلى قسمين شرقى وغربى بين ولدى تيودوسيوس فى أواخر القرن الرابع لم يكن القسم الشرقى خاليا من العيوب التى كانت تنخر فى عظام القسم الغربى. فكانت الدولة الشرقية الرومانية وعاصمتها فى قسطنطينية محاطة بمشاغل جمة من جميع الجهات غير ما كان فى داخلها من وجوه الضعف التى سبق ذكرها عند الكلام على سقوط الدولة الرومانية الغربية غير ان هناك فرقا فى سير الدولتين فان حكم رومة آل فى سنة ٤٧٦ الى الرئيس البربرى ( ادواكر ) وامحت الدولة الغربية فى حين أن الدولة الشرقية بقيت تماشى الدهر عشرة قرون أخرى ومرت بها من الحوادث الجليلة ماسنذكر بعضه وكان الفضل فى بقائها كل هذه المدة يرجع إلى عوامل عدة أكبرها مناعة موقع القسطنطينية فكانت أطراف الدولة الشرقية تنتقص من كل جهة وتصدع حدودها من نقط مختلفة ومع ذلك بقى قلب الدولة حيا فى قسطنطينية فلا تلبث الصدوع ان تلتئم ولا تلبث الحياة أن تعود إلى الدولة بعد ما نقص من أطرافها .

وقد تلبد الجو للدولة الشرقية منذ أواخر القرن الرابع فان القوط وسواهم من القبائل البربرية حلوا داخل حدودها كرها وكانوا بين حين وآخر يثورون بها فيهزونها هزات عنيفة مضعفة .

ثم تلا ذلك خطر الهون فلم يكن هجومهم مقصوراً على الدولة الغربية بل كانت الدولة الشرقية ترتجف من اغاراتهم هى الأخرى .

ولا أدل على ذلك من قول الملك ( اتلا ) الهونى اذ قابله رسول الدولة الرومانية الشرقية وكان الملك إذ ذاك جالسا على كرسى من الخشب الساذج وسلاحه ولباسه وكل ماحوله خشن خشونة البداوة : قال للرسول « أى مدينة فى كل الدولة الرومانية الواسعة تستطيع أن تبقى آمنة سالمة إذا كانت ارادتى أن أمحوها عن وجه الأرض ؟ »

وفيما كان القوط والهون يصدعون الدولة من الشمال كانت دولة الفرس تنازعها السيادة من الشرق وكانت الحرب بينهما دائمة الثوران عند حدود أسيا الصغرى والشام غير ان حروب الفرس لم تكن في شدة حروب البرابرة فان دولة الفرس المتمدينة لم تكن ذات الشوكة الجادة والفتوة الوحشية بل انها كانت تشعر بمثل مافى احشاء الدولة الرومانية من الأمراض وكانت هى أيضا معرضة لهجوم جيران من البرابرة الهمج على حدودها . ولكن مهما يكن من الأمر فقد كانت الحروب بين فارس والرومان أكثر استمرارا من هجمات البرابرة فاذا كانت الدولة الرومانية ترتجف فزعا على حياتها من عنف اغارات الهمج فقد كانت تشعر أيضا بثقل وطأة الحروب مع فارس لاستمرارها عاما بعد عام وجيلا بعد جيل .

## نشأة دولة القوط الشرقية بايطاليا

وهنا يجب أن نذكر نتيجة من نتائج استمرار ضغط الهمج على الدولة الرومانية الشرقية . فان القوط فى أواخر القرن الخامس كانوا لاينفكون يفسدون فى أرضها وكانوا قد حلوا فيها قبل ذلك كرها منذ أواخر القرن الرابع وقد بينا ان بعضهم جلا مع ( الاريك ) حتى كونوا دولة باسبانيا أما سائرهم فبقى فى البلقان ويطلق عليهم اسم القوط الشرقيين وكانوا فى الظاهر خاضعين لامبراطور الدولة الشرقية ولكنهم كانوا فى الحقيقة غزاة فاتحين يجوسون خلالها ويفسدون فيها .

وقد نبغ في أواخر القرن الخامس أمير قوطي وهو (تيودوريك) جعل للقوط شأنا عظيما جعل أباطرة الدولة الشرقية يخشون بأس هذا الشعب أكثر مما كانوا يخشونه من قبل فاحتال الامبراطور الداهية (زينو) على الأمر بأن أوعز الى تيودوريك أن يجلو عن البلقان ويغزو إيطاليا وكانت إذ ذاك في يد الزعيم المتغلب عليها وهو (اودواكر) وكانت بينه وبين الامبراطور إذ ذاك عداوة. ووعد زينو تيودوريك ان يقره على حكم ايطاليا ويعترف به ملكا عليها اذا هو نزح اليها وغلب (اودواكر).

ونجح في سياسته فتحرك (تيودوريك) بشعبه جالين عن البلقان جلاء تاما بحيواناتهم وأموالهم تتبعهم عرباتهم الضخمة محملة بكل مايملكون وذلك في سنة ٤٨٩ وهكذا تمكن زينو من أن يضرب هدفين بسهم واحد أن يتخلص من جوار القوط وأن يقضي على دولة عدوه (اودواكر)

(تيودوريك) ولابد لنا من ذكر شيء عن ذلك الرجل الفذ فقد كان يجمع بين فضائل القوط البدو وفضائل المدنية الاغريقية لانه في صباه اقام في بلاط القسطنطينية نحو عشر سنوات كرهينة عند الامبراطور ضمانة لحسن جوار القوط للدولة الرومانية فلما عاد الى شعبه بعد ذلك كان قد تأثر بحياته في وسط المدنية هذه المدة فأدرك أشياء كثيرة ما كان لهمجي ان يدركها في حياته البدوية

وكان متصفا بما يجعله محبوبا عند شعبه البدوي ولهذا كان به كل ما يؤهله لأن يكون زعيما قادراً .

انتصار تيودوريك : اصطدم القوط بقيادة زعيمهم القادر المحبوب بجيوش اودواكر في شمال ايطاليا وقد علمنا أنها لم تكن من جنس واحد بل كانت اخلاطاً من عدة أجناس وكانت فوق ذلك لا ترتبط بقائدها برباط الولاء او قرابة الدم • كما انها لم تكن تعمل لغرض معين بل كانت

مأجورة لخدمة غرض غيرها فلم يكن شك فى انتصار تيودوريك وجنوده القوط بعد دخولهم ايطاليا من ممرات ( الالب الجوليانية ) واحرزوا النصر فى ثلاث وقعات كبرى فى شمال ايطاليا حتى اضطر ( اودواكر ) أن يتحصن فى ( راڤنا ) على الشاطىء الشرقى وحولها المناقع العدة التي تجعل الوصول اليها شاقاً ، وهناك حاصره تيودوريك نحو ثلاث سنوات تمكن فى اثنائها من فتح سائر ايطاليا ولما أن طالت مدة الحصار فاوض اودواكر أن يسلم على أن يكون شريكا لتيودوريك فى حكم البلاد ولكن تيودوريك بعد أن قبل ذلك الشرط دبر مكيدة لقتل ذلك الشريك المزمع فكانت هذه خيانة تلطخ ذكرى تيودوريك وهى من الغلطات القليلة التى تعد على ذلك الرجل الكبير .

وكان تسليم رافنا وانفراد تيودوريك والقوط بحكم ايطاليا فى سنة ٤٩٣ .

## حكم تيودوريك بايطاليا

أقام تيودوريك القوطى فى ايطاليا دولة تمتاز عن جميع الدول البربرية التى قامت على انقاض الدولة الرومانية الغربية بأنهـا كانت دولة مصلحة معتدلة — وكان القوط على المذهب الآرى فى حين كان عامه الشعب كاثوليكا كما ان القوط كانوا اقلية صغيرة . فلم يذكر التاريخ ان عدد رجالهم زاد على مائتى الف فى اعظم ايام دولتهم زهاء ولكن مع هذه العقبات نجح تيودوريك فى اقامة دولة تكاد تعيد الى الذهن ما كانت عليه دولة الرومان فى عزها القديم والفضل الأكبر فى ذلك راجع الى اعتداله وحسن سياسته فجعل امام عينيه قصدا واحدا وهو اعادة سعادة ايطاليا وارجاع يسرها ورخائها بعد ما أصابها من النكبات المتوالية وجعل القوط سلاحه الذى يدفع به الخطر عن الدولة فلم يسمح لهم بأن يصيروا صناعا أو عمالا لانه رأى ذلك يضعف من روحهم ولكنه شجع أهل البلاد على الانصراف

إلى العمل ولم يشعرهم ذلة الفتح وذلك لما كان له من التأثير فى جنوده القوط وأخذهم أشد الأخذ بالاعتدال وعدم العسف بأهل البلاد ولم يؤخذ عليه غير انه أخذ ثلث أرض ايطاليا فى أول دخوله فيها ووزعها على القوط ولكن ذلك الثلث لم يؤخذ فعلا من الأهالى بل من جنود (اودوا كر) المغلوب فانه كان قد سبق بأخذ ذلك الثلث لهم من قبل .

واتخذ تيودوريك من أفاضل أهل البلاد وزراء كانوا عدته فى الحكم وحاول بقدر استطاعته أن يعيد الى الرومانيين ما كان لدولتهم القديمة من مظاهر المجد واعادة اثارها المتهدمة ولم يكن تشجيعه للانتاج مقصوراً على تسهيل سبله للوطنيين فانه كان يعمل على تأمين الاجانب الذين جعلوا يفدون للتجارة الى ايطاليا فيجدون من اصلاح الحكومة وعدلها وتمهيد الطرق وتأمينها ما يساعد على رواج متاجرهم .

وقد طال حكم تيودوريك فكان نحو ثلاث وثلاثين سنة بلغ فى أثنائها من السلطان الداخلى والخارجى مبلغا كبيرا وقد ساعد على زيادة نفوذه الخارجى مصاهرته لمن حوله من ملوك البرابرة كالفرنج والبرغنديين والفندال والقوط الغربيين حتى لقد صار المحكم فى منازعات جيرانه والمعترف له بالزعامة بين جميع الطوائف الجرمانية

ولكنه مع كل هذا لم ينج من سوء آثار اختلاف مذهب قومه عن مذهب أهل البلاد فان كل نعمة منه كانت تعتبر انها نعمة آتية من أجنبى بل كافر لاحق له فى شكرهم ، وقد حقد على الايطاليين انكارهم لجميله فأدى به ذلك الى شيء من الشدة والضغط فى أواخر حكمه ولنا أن نضم ذلك الى غلطاته القليلة .

ولقد مات سنة ٥٢٦ تاركا دولته وسط سحب سوداء سنرى ماذا يكون مآلها ولم يكن فى القوط خليفة له يستطيع ان يحفظ ما بناه اذ كان ولى عهده حفيده (اتالاريك) فى سن العاشرة ولم يكن ممن يرجى أن يكون عظيما كجده .

# انقلاب جستنيان

لانجد لحكم جستنيان وصفا يلائم ماحدث به غير أن نصفه بانه كان انقلابا فقد وجد جستنيان الدولة الرومانية على حالة لم يرضاها فسعى إلى بلوغ غاية بعيدة وسنحاول أن نبين غايته ومآل أعماله وآثارها على الدولة فيما يلي . ولعله من المفيد أن نعرف شيئا عن الرجل قبل أن نصف ماأحدثه: خلف جستنيان عمه جستن الأول سنة ٥٢٧ ولكنه قبل ذلك كان المدير الحقيقى لأمور الدولة فى مدة حكم عمه الذى لم يكن له حظ من العلم أو القدرة الادارية وكانت له قدرة عجيبة على العمل وعرف بأنه كان لاينام الا قليلا ولا تلذه لذة أكبر من انكبابه على درس تفاصيل الادارة مع مساعديه من الموظفين . وكان سهل الحجاب حليما لطيف الحديث هادئا قويا على حكم نفسه وكان معروفا بالعفة والاعتدال فى كل شيء حتى فى مأكله الذى كان ساذجا مقتصرا .

وكان يقال عنه ان ساعة من النوم تكفيه ويقضى سائر وقته فى العمل أو القراءة ولهذا كان واسع المعارف يضرب بسهم فى الفنون والعلوم المعروفة فى وقته

وقد تزوج براقصة ( تيودورا ) كانت فى وقت من أوقات حياتها تعيش عيشة منحلة ولكنها دلت فى حياتها معه على شيء كثير من القوة والذكاء وكان لها فى دولته رأى نافذ وأمر مطاع .

ولكن لابد أن نعترف ان حب الشهرة قد جر عليه غلطات فى السياسة كان لها عواقب وخيمة ولم يوفق إلى أن يجعل لنفسه مكانة فى نفوس الشعب الرومانى مع حرصه الشديد على ذلك

## ميادين أعمال جستنيان

وان اتساع نطاق أعماله فى مدة حكمه الطويل ( اذ حكم نحو ثمان وثلاثين سنة ) يجعل من الضرورى تقسيمها إلى الأنواع الثلاثة الآتية

(١) الأعمال القانونية
(٢) أعمال الاصلاح والتعمير
(٣) أعمال السياسة والفتوح

### (١) الأعمال القانونية

كانت القوانين والأحكام إلى عهد جستنيان قد تكاثرت وتشعبت حتى صار من أشق الأمور على القضاة أن يجدوا هاديا فى أحكامهم فعهد جستنيان فى أول حكمه إلى عشرة من أكثر المشترعين اطلاعا أن ينظروا فى مراسيم أسلافه وقوانين الدولة القديمة فأتموا عملهم وجمعوا القانون المسمى باسم جستنيان فى نحو أربعة عشر شهراً ثم عهد إلى جماعة أخرى أن يجمعوا الأحكام ليستخلصوا منها أصول الحكم ومبادىء القانون فأتموا ذلك فى ثلاث سنين وجمعوا ( الباندكت ) و ( مجموعة الأحكام ) فصار من ذلك ثلاثة مراجع عظيمة حفظت القانون الرومانى وجمعت شتاته وهي قانون جستنيان والباندكت ومجموعة الأحكام .

ومهما قيل فى عمله هذا فانه كان الجزء الخالد من أعمال جستنيان بعد ان زالت آثار أعماله الأخرى .

### (٢) أعمال الاصلاح والتعمير

يعرف جستنيان بأنه كان من أكبر من عمر المبانى ومهد الطرق .. ولا يكاد يوجد قطر من الأقطار الخاضعة له لم يكن له فيه بناء جديد أو أثر مجدد ومن أظهر آثاره الباقية للآن كنيسة أياصوفيا التى صارت الآن المسجد الشهير فى تركيا . وله الفضل فى بناء كثير من الأديرة وتجديد كثير

من الآثار القديمة ولم ينس مجده الذاتى فقد أعاد بناء قصره فى قسطنطينية وبنى له قصراً عظيما على الشاطىء الاسيوى كان آية فى الجمال .

وفوق ذلك كله أعاد حصون الحدود فى جميع النواحى ولا سيما على حدود فارس وعند نهر الدانوب .

ولكن يجب أن نقر ان تلك المبانى التى أقامها كانت من دماء أهل الدولة الرومانية . فقد كانت تستنزف أموال الدولة وتجعل من الضرورى أن يحمل الناس حملا لا يستطيعونه من الضرائب

(٣) اعمال السياسة والفتوح

ورث جستنيان عمه واعتلى عرش الدولة سنة ٥٢٧ . فوجد الدولة الرومانية على الحال التى وصفناها من قبل وقد قطعت واستولى الهمج على كثير من انحائها فأقاموا بها دولة الفرنج فى غاله والقوط الغربية فى اسبانيا والقوط الشرقية فى ايطاليا والوندال فى شمال افريقية . وكان مع ذلك سائر اجزاء تلك الدولة تتهددها الاخطار عند حدودها فالعرب من الجنوب والهون من الشمال تسيرهم دولة الفرس فى جيوشها فتصدع بهم الحدود الشرقية وقبائل الصقالبة والآفار والبلغار يغيرون على البلقان من الشمال ولا تكاد الدولة تستطيع مقاومة هؤلاء المغيرين بغير الرشوة .

وقد تطلع جستنيان الى أمل بعيد فطمع فى اعادة الدولة الرومانية الى مجدها القديم بأن يزيل عنها مالحق بها من هوان ويطرد عن أرضها كل من حل بها من الهمج . ولقد سنحت له ظروف جعلت من الممكن أن يبدأ فى تحقيق ذلك الحلم وكاد أن يحققه وحروبه التى أثارها لاسترجاع تلك البلاد هى

(١) حرب الوندال

(٢) حرب القوط الشرقيين ( ايطاليا )

(٣) حرب القوط الغربيين ( اسبانيا )

ولكنه لم يحاول فتح بلاد الفرنج ولعل اتحاد المذهب الدينى جعلهم أقرب الى أن يكونوا حلفاء ويعتبروا كالرومانيين .

نظرة فى اعمال جستنيان الحربية

لم تكن حروبه المذكورة هى المشاغل الوحيدة للدولة بل كانت هناك الحروب العظيمة مع فارس والحروب مع قبائل البلقان ولهذا كانت الدولة تتكلف مجهودا عظيما لا تستطيعه .

وقد انفقت الدولة على هذه الحروب نفقات عظيمة اذا أضفناها الى ما انفقه جستنيان على مبانيه الكثيرة عرفنا ان جستنيان أنهك قوى الدولة واستنزف أموالها وحمل أهلها الاحمال الفادحة . على أنه من الضرورى أن نسأل أنفسنا هل كانت الدولة الرومانية فى مدة جستنيان لا تزال محتفظة بشبابها فتقدر على المحافظة على كل البلاد الفسيحة التى كانت تحكمها من قبل ؟ والجواب على ذلك لا شك معروف فان الدولة الرومانية لم تفقد أرضها ولم يتغلب عليها الهمج من قبل الا لأنها صارت عاجزة عن المحافظة عليها فاذا بذل جستنيان مجهودا كبيرا لاسترجاع هذه الأراضى لم يكن عمله دائم البقاء بل لن تلبث تلك الأراضى أن تفقد لأن روح الدولة لم تكن تلك الروح القوية التى تقدر على الاحتفاظ بها : (١) جنودها مرتزقة (٢) شعبها مترف منصرف الى التافه من الأمور لا يقدم على الحرب (٣) وقد أرهقته الاحمال فهو غير راض عن الحكومة . (٤) والدولة مكونة من وحدات مختلفة غير متجانسة لا فى اللغة ولا فى العادات (٥) وهى متباعدة الاطراف كل منها اقليم قائم بذاته ينزع دائما الى الانفصال عن سواه .

فكان من المحتوم أن تعود الدولة التى بناها جستنيان الى التفكك وهذا ما حدث فعلا ولذلك كان مجهوده ضائعا فى عمل لا بقاء له ولا فائدة منه بل اعقب زيادة فى الضرائب وزاد فى كره الناس للدولة . وجعل الاقاليم المختلفة تميل اكثر من ذى قبل الى الانفصال عنها .

حرب الوندال

كانت السنين الاولى من حكم جستنيان عاصفة بالحوادث فكانت الحرب ثائرة مع الفرس وكانت اغارات القبائل المجاورة تزعج الدولة بين حين وآخر وفوق كل هذا ثارت ثورة فى القسطنطينية بدأت صغيرة فى ميدان السباق ثم زادت شدة حتى هددت العرش لولا ثبات الملكة (تيودورا)

غير ان كل تلك الاخطار زالت فقضى على الثورة وهدأ القبائل المجاورة وأوقف الحرب مع فارس ببذل مقدار عظيم من المال فلما كانت سنة ٥٣٢ كان جستنيان يستطيع أن ينتهز الفرص التى تسنح له ليحقق آماله العظيمة ولاحت له أولى تلك الفرص فى بلاد الوندال فقد كان هناك اضطراب بعد انقراض الجيل الاول من ملوك الوندال (جيسريق وابنه هنريك) فنزع الملك الحاكم من ملكه (وهو هلدريك) وتولى الملك من عزله (وهو جيلمير) فتدخل جستنيان فى الأمر منتصرا للملك المخلوع وهكذا أعد العدة لحرب الوندال وأسند القيادة الى عظيم من قواده وهو (بلزاريوس) الشهير وسار أسطوله سنة ٥٣٣ يحمل خمسة آلاف من الخيل وعشرة آلاف من الرجاله ميمما شاطىء قرطاجنة التى عادت فصارت عاصمة لدولة الوندال فوصل الى جنوبها قليلا بعد نحو ثلاثة شهور وهناك حدث أول اصطدام مع الوندال عند الميل العاشر من جنوب قرطاجنة ومنه اشتق اسم الوقعة (ديسميوس) وكان الوندال عند ذلك على ما ليس يضمن النصر وذلك لسببين الاول ان عددا كبيرا من جيشهم كان فى غزوة لفتح جزيرة (سردانيا) بقيادة أخى الملك وكان الوندال أقلية حاكمة ولم يكن من الممكن أن يجندوا من أهل البلاد للدفاع عن دولتهم المكروهة . والسبب الثانى انهم منذ حلوا بافريقية وتمتعوا بدفء جوها وطيب ثمارها نسوا خشونتهم الأولى وانغمسوا فيما يمهده لهم الغنى من دعة ونعيم ولا سيما وقد كان أكثر خيرات البلاد

بؤول اليهم ويحرم منه العديد الأكبر وهم أهل البلاد الأصليين وقد أدى ذلك الانحلال الى تفرقة فى الكلمة فلم يهبوا الى علم ملكهم عند قدوم بلزاريوس: بل قعدوا عنه فلما اصطدم بهم بلزاريوس لم يجد أمامه لا عددا عظيما ولاشجاعة تحل محل كثرة العدد فكان له نصر كبير سنة ٥٣٤

وكان من دواعى النصر عطف أهل البلاد عليه وقد جاء ذكر ذلك على لسانه مرة فقال « لست اعتد بعدد جندى ولا بشجاعتهم أكثر من اعتدادى بحب الاهلين وعطفهم علينا وكرههم للوندال »

هرب الملك جيلمير الى الصحراء الجنوبية وهناك حاول مرة أخرى أن يستعيد حظه واستعان بجند سردانيا الذى عاد بعد فتحها ولكن الحظ قعد عن الوندال هذه المرة أيضا فهرب بعد هزيمته ولكنه سلم أخيرا إذ لم يستطع المقاومة وعاد مع بلزاريوس الى قسطنطينية سنة ٥٣٤ ليكون مع سائر الأسرى زينة الموكب الفخم الذى أعدته عاصمة الدولة وامبراطورها للاحتفاء بالغازى الكبير فاتح قرطاجنة ومبيد دولة الوندال وكانوا يحيونه باسم « شبيون الافريقى » اعادة لذكرى القائد الرومانى العظيم الذى حطم عظمة قرطاجنة

حرب القوط الشرقيين بايطاليا — الدول الاول

سنحت لجستنيان فرصة للتدخل فى إيطاليا شبيهة بالفرصة التى سنحت له في افريقية فان تلك الدولة بعد موت ملكها العظيم ( تيودوريك ) لم تجد ملكا من نسله يستطيع أن يسير على منهاجه ويحتفظ بتراثه العظيم بل خلفه ابنته وصية على ابنها حفيد تيودوريك . ثم مات ذلك الحفيد وقد عجل موته سوء حياته وانهماكه فى لهوه ولما يزل صبيا وكان القوط قوما على سنة شعبهم من الجرمان لا يخضعون لامرأة تسوس أمورهم فاضطربت ابنة تيودوريك أن تشرك معها فى الملك أحد ابناء أسرتها ( تيودوهات ) وكان رجلا يجمع بين الضعف والقسوة . فأساء معاملة الأميرة ونفاها

ثم دبر قتلها وعند ذلك رأى جستنيان التوسل بتلك الحوادث للتدخل ورمى القوط بقائده الكبير بلزاريوس سنة ٥٣٥ فسار فى البحر الى صقلية بجيش لايزيد على ثمانية آلاف . وأتم فتح تلك الجزيرة فى أشهر قلائل ولكن لم يعبر الى ايطاليا مباشرة اذ اضطر الى العبور الى افريقيا لاخضاع ثورة ثارت من الجند فى قرطاجنه فلم يتمكن من الاصطدام مع القوط فى شبه جزيرة ايطاليا ذاتها الا سنة ٥٣٧ .

وقد أظهر الملك ( تيودوهات ) من الجبن ماخذل القوط عنه . وكان أهل ايطاليا يكرهون القوط لما ذكر من قبل وجوه الخلاف بينهم فى المذهب الدينى واللغة والعادات وزاد ذلك الكره منذمات الملك العادل (تيودوريك) فلم يلق بلزاريوس صعوبة فى اكتساح شبه الجزيرة الجنوبية . وكان ذلك الخذلان داعيا الى ثورة القوط على ملكهم فعزلوه واختاروا مكانه أحد شيوخهم ( وتيجس ) ولكنه لم يكن على شىء كبير من حسن التدبير فى الحرب . فاستمر بلزاريوس فى انتصاره حتى دخل رومة ثم ارتد ( وتيجس ) الى ( راڤنا ) وتحصن بها بعد ان عجز فى محاولة استرداد رومة طول سنة ٥٣٧ . ومنذ ذلك الحين رجحت كفة ( بلزاريوس ) رجحانا ظاهراً وما زال الحصار يشتد على راڤنا حتى سلم ( وتيجس ) سنة ٥٣٩ . وعند ذلك استدعى جستنيان قائده الكبير ليعود قبل أن يتم اخضاع السهول الشمالية ومدنها الكبيرة .

## الدور الثانى من حرب ايطاليا

شغل جستنيان بعد سنة ٥٤٠ بحرب طاحنة مع فارس تلك الدولة العظيمة اذ ذاك بحكم ملكها الكبير ذى الأطماع الواسعة كسرى الأول المعروف ( بانوشروان ) الذى تولى ملك فارس نحو نصف قرن ( ٥٣١ — ٥٧٩ ) وكان مثلا للملك القادر العالم . ولم تكن تلك الحرب هى الأولى بين

فارس والرومان فقد كانت الحروب غير منقطعة تقريبا بين هاتين الدولتين العظيمتين المتجاورتين وقد حدثت احدى هذه الحروب فى أوائل حكم جستنيان ولم تنته الا على دفع الرومانيين فدية من المال وقصد جستنيان بذلك ان يتفرغ لبلوغ مقاصده وهي اعادة الدولة الرومانية الى ما كانت عليه من العظمة وارجاع أملاكها التى فقدتها

فلما رأى أنو شروان مابلغه جستنيان من فتح افريقية وايطاليا أعاد الحرب سنة ٥٤٠ وبدأت منذ ذلك الحين حرب طاحنة متقطعة كانت فيها كل من الدولتين تلتمس المساعدة من كل جهة على عدوتها . ولنذكر هنا ان بعض العرب كانوا من جنود الفرس وبعضهم كان من جنود الرومان كما أن الحبشة المسيحية انضمت فى ذلك النضال الى جستنيان امبراطور الدولة المسيحية الكبرى .

فى مثل هذه الحال لم يكن من المتيسر ان يقضى جستنيان بسهولة على بقايا القوط فى ايطاليا ولهذا أمكنهم ان يسترجعوا ما فقدوه

وعادت أمورهم الى الانتظام تحت قيادة ملكهم الجديد الشجاع (بدويله) أو (طوطيلة) فان هذا البطل تمكن من استرجاع كل ايطاليا تقريبا وأعلى نفوس القوط بعد ماناهم من الهزائم حتى اضطر الامبراطور مرة اخرى ان يرسل اليه بلزاريوس نفسه ومع ذلك ظلت الكفتان متراجحتين نحو عشر سنوات الى ان أرسل الامبراطور القائد الثانى الكبير (نارسيس) الذى تمكن أخيراً من أحكام الخطة وهزم بطل القوط هزيمة كانت القاضية عند (تاجينه) فى الشمال الشرقى من رومة بعد دفاع يستحق الاعجاب أصيب فيه ملك القوط البطل بجرح مميت . ولم تبق بعد ذلك دولة القوط الا قليلا ثم سلم من تبقى منهم بعد ذلك النضال الطويل على أن يجلوا عن ايطاليا بنسائهم وأطفالهم ومن ذلك الوقت لايسمع التاريخ شيئا عنهم .

واستولى الرومانيون على ايطاليا منذ ذلك الحين ولو ان نارسيس اضطر لكى يخلص له ملكها ان يحارب جيوش الفرنج ويهزمها وكانت قد أتت منتهزة فرصة النضال العنيف لعلها تصيب مغنما . على ان بقاء الرومانيين فى ايطاليا لم يكن الى أمد طويل فما لبثوا أن نزعها منهم شعب آخر من البرابرة الذين لم يكن فيه شيء من فضائل القوط ولا اصلاحهم فانه مامضت ستة عشر عاما بعد موقعة تاجينه حتى كانت جيوش اللمبرديين فى سهول نهر البو واجتاحوا بعد ذلك ايطاليا وخربوا عامرها بعد ان كادت تلك البلاد تعود الى سابق عهدها وسالف تقدمها على يد تيودوريك القوطى

أليس من الحق أن نقول ان جستنيان أضر بدولته وبايطاليا فى نفس الوقت من أجل فكرة ولدها تطلعه الى المجد وشغفه بالعظمة الجوفاء ؟

## حرب اسبانيا

حدثت فى أوائل القرن السادس حروب عنيفة بين الدولتين المتجاورتين دولة الفرنج التى كونها كلوفس ودولة القوط الغربية باسبانيا وقد قتل فى تلك الحروب الملك الاريك الثانى ولولا حماية تيودوريك لدولة القوط باسبانيا لضمها الفرنج لدولتهم . ولكن بعد موت ذلك الحامى تجدد النضال وقتل فيه الملك القوطى الصغير ( املريك ) وبمقتله انقرض البيت القديم الذى يجله القوط وهو نسل ( الأريك الأول ) ومن ذلك الوقت ثارت الشحناء بين كبار القواد القوط وتقسم الشعب القليل الآرى المذهب شيعا وهو مكروه من الشعب الاسبانى الأصلى لاختلافه عنه فى اللغة والدين والعادات كما تقدم فكانت هنا فرصة جستنيان . وقد توصل الى مساعدة فريق من المتشاحنين وتوصل بذلك الى بسط يده على الجزء الجنوبى الشرقى من أرض اسبانيا . وبقيت تلك الرقعة فى حوزة الرومانيين مدة طويلة الى أن استردها القوط بعد نضال طويل

# رد الفعل بعد جستنيان

قام جستنيان كما رأينا بجهود كبير لانفاذ خطة واحدة وهى اعادة الدولة الرومانية الى سالف مجدها . وقد كلفه ذلك المجهود مشقة وحمل الشعوب الداخلة فى الدولة الرومانية أحمالا ثقيلة .

ومع ذلك فقد ترك الدولة والحدود الفارسية لاتزال مصدوعة فلم تلبث الحروب أن تجددت هناك . وترك حدود البلقان ولا تزال قبائل الصقالبة والاڤار والبلغار كالامواج تتوالى فى اتجاه العاصمة وهي مرة مترددة وأخرى قوية مدمرة . ثم ترك البلاد التى فتحها وأعادها الى حظيرة الدولة الرومانية منهوكة القوى شعبها يئن من ضرائبه ومصائب الحرب عنده ؛ حقا ان جستنيان استطاع بشخصه ان يحافظ مادام حيا على صورة ذلك البناء الضخم ولكنه لمامات ارتجت الدولة رجة عنيفة لن تنجلى عن أقل من ضياع أكثر مافتحه وزادت الرجة خطرا حتى هددت كيان الدولة ذاتها. وكانت أكبر مظاهر تلك الرجة هى :

(١) فتح اللمبرد ايطاليا

(٢) تجدد الحروب مع فارس

(٣) اغارات قبائل الصقالبة والاڤار والبلغار على البلقان وتهديدهم القسطنطينية .

## فتح اللمبردين لايطاليا

اللمبرديون اسم لشعب من الشعوب الجرمانية التى كانت تسكن البلاد الشمالية من اسكندناوه فى اقدم الازمنه ثم عبرت البلطيق واستوطنت بلاد جرمانيا ومازالت تنزح الى الجنوب الى ان بلغت شواطى نهر الدانوب وهناك نبدأ نسمع عنهم عند حدود الدولة الرومانية وكانوا يدخلون فى جيوش تلك

الدولة جنودا مرتزقة . واصل اسمهم كما قيل مشتق من ( لانج بارد ) ومعناه اللحى الطويلة لأنهم كانوا يطيلون لحاهم . ولعلهم من أقل الشعوب الجرمانية احتكاكا بالمدنية وتأثراً بها وقد استعداهم جستنيان على قبائل الجبيدى الذين كانوا يغيرون على دولته وهذا أول ماجعلهم يملكون أرضاً فى الدولة الرومانية اذ حلوا فيها محل قبائل الجبيدى بعد انهزامهم وزوال ملكهم وكان منهم فى جيوش نارسيس فى ايطاليا فعرفوا من ضعف الرومانيين هناك ومن غنى تلك البلاد ماجعلهم يطمعون فى الاستيلاء عليها فما مضى على موت جستنيان أكثر من ثلاث سنوات حتى كانوا يطرقون أبواب ايطاليا يحاولون فتحها .

ولسنا فى حاجة الى ان نعيد ان ايطاليا كانت فى شر حال تحت حكم جستنيان: ضرائب فادحة وأحمال ثقيلة وحكومة عاسفة تتخذ من علو اسمها وقدمه ذريعة الى الظلم حتى لقد بدا لأهل ايطاليا انهم خسرو دولة القوط وترحموا على اصلاحها .

فلما دخل اللمبرديون سهول الشمال لم يتحرك أهل البلاد مع الجيوش الرومانية فكانوا لايساعدون جنود الدولة أية مساعدة . وكانت الدولة موزعة القوى بين ميدان حرب فى فارس وآخر فى البلقان فلم تكن متفرغة لصد اللمبرديين فوجد هؤلاء الفتح أمامهم سهلا . وهكذا تمكن ملكهم الشاب الشجاع ( البوين) من فتح شمال ايطاليا بين سنتى ٥٦٨ — ٥٧٢ ولكنه قتل فى ذلك الوقت الحرج قبل اتمام فتح شبه الجزيرة . قتلته امرأته لأعمال تدل على شدة قسوته وفظاعة طباعه الهمجية ولم يكن له خليفة الا طفل صغير . فترك اللمبرديون بلا ملك يجتمعون عليه لمدة عشر سنوات . ولكنهم مع ذلك ساروا فى الفتح وجعل كل أمير منهم يفتح لنفسه اقليما ويحل به وكان لهذا نتائج كبيرة الأثر أهمها

(١) كانت أملاك اللمبرديين متقطعة تتخللها بقاع بقيت للرومانيين لأنهم لم يفتحوا كل البلاد بنظام واحد تحت قيادة واحدة

(٢) لم يكن هناك فضل لحكومة مركزية فى ذلك الفتح فكان الأمراء اللمبرديون مستقلين كل منهم له الفضل فى فتح اقليمه . واستمر استقلال الأمراء الى النهاية حتى بعد أن أرجعت المملكة واختير من بينهم ملك واحد سنة ٥٨٣

وكان اللمبرديون فوق ما اتصفوا به من الهمجية والبعد عن التهذب المدنى مخالفين للايطاليين فى المذهب الدينى اذ كانوا (آريين) . فأى خلف كان هؤلاء لدولة (تيودوريك) !

نمو سلطان البابا

تمتاز دولة اللمبرديين بأن نفوذ البابا نما فى أثنائها نمواً كبيراً . حقا ان البابا كان منذ ايام قسطنطين رئيسا له نفوذ دينى كبير وكان بابا روما بصفته رئيس رجال الدين فى رومة العاصمة الكبرى يعتبر بين رجال الدين فى مكانة سامية . ولكنه فى مدة القوط اتخذ صفة جديدة وذلك انه أصبح رئيساً دينياً فى دولة تخالف الأهالى فى مذهبهم الدينى فكان هو بمثابة زعيم لأهل البلاد فى مواجهة الدولة الحاكمة الأجنبية . فلما عاد الملك الى الرومانيين مدة جستنيان رجع الأمر والرئاسة الى الامبراطور العظيم ولكن بعد فتح اللمبرديين عادت اليه الزعامة التى كانت له مدة القوط وزاد عليها عامل جديد زاد من نفوذه وسلطانه وذلك ان الامبراطور الشرقى لم يكن متفرغا للدفاع بجيوش الدولة عن إيطاليا فاضطر أهل البلاد الكبرى أن ينظروا فى أمر مصيرهم بأنفسهم ولما حاصر اللمبرديون رومة وضع البابا الموجود إذ ذاك وهو جريجوار الاول نفسه على رأس المدينة فكان يدبر الدفاع عنها ثم تولى أمر المفاوضة فى الصلح مع ملك اللمبرديين الى أن اتم

معاهدة سنة ٥٩٩ جعلته واليا أو أميرا على رومة فى داخل دولة اللامبرديين وتلك زيادة على رئاسته الدينية على عامة المسيحيين الذين يخضعون للمذهب الغربى . وبذلك صار للبابا شأن دنيوى الى جانب نفوذه الدينى وصار من ذلك الوقت زعيم الوطنيين أمام الدولة الحاكمة الأجنبية والحاكم على رومة المدير لها فى آن واحد

## حروب الدولة الرومانية الأخرى

كان جستنيان أثناء حكمه يجتهد بقدر استطاعته أن يقلل من الحروب على الحدود التى لا ينتظر أن يوسع دولته فى اتجاهها فكان يصل الى ذلك بالعطايا والمنح فكان يعطى للقبائل الضاربة فى البلقان كثيرا من المال ليمتنعوا عن غزو الدولة وأكبر هذه القبائل الآفار والصقالبة وكذلك كان يجتهد أن يحفظ السلم بقدر الاستطاعة مع دولة الفرس فكان كلما أثار أنو شروان عليه حربا دافع جهده ثم رضى بعقد الصلح على اساس دفع ضريبة سنوية تضمن له السلم فلما مات هذا الامبراطور الكبير لم يخلفه من كان مثله فى الكياسة السياسية ولهذا اشتعلت نيران الحرب على الحدود الفارسية وفى البلقان فى آن واحد . وكانت حروب فارس اشدها واثقلها على كاهل الدولة واستمرت ثائرة نحو عشرين سنة بعد موت جستنيان ( اى بين سنة ٥٧٢ — وسنة ٥٩٢ ) ولكن السلم عاد بعد ذلك لظرف خاص وهو الصداقة التى نشأت بين الامبراطور ( موريس ) والملك كسرى الثانى بن هرمزداس ابن انو شروان. على ان الحرب لم تنقطع الا مدة قصيرة فقد ثار الجند على الامبراطور ( موريس ) بزعامة ( فوكاس ) وكان رجلا عاتيا جاهلا فقتل الامبراطور ( موريس) وتولى مكانه ومنذ ذلك الحين زال سبب السلام بين الدولتين فتجددت العداوة مرة اخرى ولكن الدولة الرومانية

هذه المرة صدمت صدمة كادت تكون القاضية فان الجيوش الفارسية فتحت كثيرا من بلادها ونزعت منها الشام وجزءا كبيرا من آسيا الصغرى ووقفت حينا على حدود مصر

ثورة هرقل

عند ما رأى كبار الدولة الرومانية ما آل اليه امرها من الضعف على يد ذلك الامبراطور الجبان القاسى ( فوكاس ) دبروا مؤامره لنزعه وكان اكبر عامل فيها حاكم شمال افريقيا وهو . ( هرقل الاكبر ) وكانت نتيجة تلك المؤامرة ارسال اسطول من افريقيا الى القسطنطينية بقيادة ابنه ( هرقل الأصغر ) حتى اذا ما وصل اشترك معه جنود الحرس الامبراطورى . وسارت فى نفس الوقت جيوش من شمال افريقيا الى مصر تشغل من هناك من جنود الدولة حتى لا يستعين بها فوكاس . ونجح التدبير وعزل فوكاس ثم قتله هرقل وتولى مكانه سنة ٦١٠ .

ولم تقف فتوح الفرس فى هذه الاثناء وكذلك لم تقف اغارات القبائل البلقانية ولهذا كان مركز هرقل عند توليته غاية فى الحرج واستمر نحو سنوات يعالج أمر الدفاع وهو عاجز عنه فتوغل الفرس فى أسيا الصغرى حتى صاروا على الضفاف الاسيوية لمرمرة والبوسفور وفتحوا مصر وشدد الآقار الهجوم من قبل أوربا على القسطنطينية ولم يبق للدولة الرومانية الا العاصمة وحدها مع شمال افريقيا

ولكن منذ سنة ٦٢٢ نهض هرقل نهضة عجيبة انقلب لها الحال وتبدلت على يديه الدولة الرومانية من ذلها عزا ومن انهزامها انتصارا .

كلمة عن حال دولة الفرس

كان انو شروان ملكا داهية عظيما يقصد الى اضعاف جارته القوية دولة جستنيان وكان كل من العاهلين يقصد الى المحافظة على دولته بكل الوسائل

فكان كل منهما يلتمس الحلفاء من اى ناحية فكان جستينان يحرض من يليه من قبائل العرب (الغساسنة) بالشام على غزو الفرس فى حين ان انوشروان كان يحرض من يليه منهم (المناذرة) على غزو الروم وكان ذهب جستنيان يعمل على اثارة الترك ضد الفرس كما كان انو شروان يحرض قبائل البلقان على دولة عدوه .

ومن بين الأقاليم التى كان عليها منذ زمن تنافس شديد بين الدولتين بلاد العرب ولا سيما الجزء الخصب الجنوبى وقد حرض اباطرة الرومان ملك الحبشة المسيحى على فتحها ولما فتحت سر جستنيان لذلك ليقاوم نفوذ الفرس هناك ولكى يجعل تجارة البحر الأحمر فى يد حلفاء لا يضرون التجارة الرومانيــة وقد بقى الحبشان فى اليمن مدة نحو نصف قرن ولكن الفرس لم ينسوا أن وجود الحبشة هناك يقصد به اضعاف نفوذهم فى تلك البلاد مع انها مجدبة لا خير يذكر فيها ولهذا أعان انو شروان العرب على طردهم سنة ٥٧٠

ولكن لما مات انو شروان لم يكن خلفه (هرمزداس) مثله فى الكياسة والقوة ولهذا اضطربت شئون فارس ولم تلبث أن قامت عليه الجنود بقيادة بهرام وقتل (هرمز داس) وانقسم الفرس حزبين حزب مع وارث الملك (كسرى الثانى) ابن (هرمز داس) والآخر مع الثوار فاستعان كسرى بالامبراطور الرومانى موريس فاعانه حتى اقره فى ملكه فكانت يداً للامبراطور عنده جعلت سلاماً بين الدولتين مدة حياة موريس ولكن كسرى الثانى كان يطمع فى المجد مثل جده الكبير فلما قامت ثورة فوكاس وقتل موريس اتخذها كسرى سبباً للحرب الطاحنة التى بدات منذ سنة ٦٠٢ واستمرت كما وصفنا الى ان لم يبق للدولة الرومانية غير العاصمة وشمال افريقيا

مجهود هرقل العظيم

كانت السنوات العشر الاولى من حكم هرقل من اشد السنين التى مرت بالدولة الرومانية الشرقية فان غزو الفرس الذى بدأ مدة فوكاس لم يقف بعد قتل ذلك الامبراطور القاسى على يد هرقل بل استمرت الاغارات فدخل الفرس مصر واكملوا فتح آسيا الصغرى وصاروا عند بحر مرمرة يخاطبون الجيوش الآفارية التى كانت فى الوقت عينه قد فتحت معظم البلقان والقت الحصار على قسطنطينية . وكاد هرقل نفسه يقع فى يد الآفارين فى وقت من اوقات تلك المحنة العظيمة . وهكذا انتهت السياسة الحربية التى بدأها جستنيان بأن تقلص ظل الدولة الرومانية حتى لم يبق لها الا شمال افريقية الغربى على ساحل البحر الأبيض المتوسط ولكن تمكن هرقل بعد هذه السنين العشر ان يصالح جانباً من اعدائه وهم الآفار وعزم على مجاهدة اشد اعدائه وهم الفرس الذين سلبوا الدولة اغنى ارضها واذلوا الديانة المسيحية فى شخصها عند اخذ بيت المقدس اذا استولوا على الآثار المقدسة ومن بينها الصليب

وقد وفق هرقل فى حربه هذه فانه جازف مجازفة المستيئس فأوغل فى قلب الدولة الفارسية تاركا وراءه جيوشها فى آسيا الصغرى والشام ومصر ولكن مخاطرته نجحت كل النجاح فقد كانت الدولة الفارسية فى داخلها مفككة وكانت الأعداء على حدودها الشرقية تهددها فلما اوغلت جنود هرقل فيها لم يستطع كسرى الثانى ان يثبت فأخذ يستدعى جيوشه الموزعة فى الاقاليم التى نزعها من الدولة الرومانية للدفاع عن قلب دولته فلم يجده ذلك بل هزم واضطر للهرب وقتله ابنه شيرويه بعد قليل . وهكذا تم النصر لهرقل سنة ٦٢٧ واقام فى سنة ٦٢٨ مهرجانا عظيما اسمه ( مهرجان اعلاء الصليب ) ورجع الى الدولة الرومانية جميع مانزع منها من ارضها فى مدة هذه الحرب

القصيرة . ولكن هرقل لم يرجع هذه البلاد لتبقى للرومانيين الى امد طويل فسوف تنزع عنها الى الأبد على يد قوم لم يكن يظن أحد انهم يفعلون ذلك وهم العرب كما سنرى .

آثار الحروب بين فارس والروم .

مما سبق وصفه يمكن أن نقول ان الحرب لم تنقطع بين هاتين الدولتين مدة قرن تقريبا أى بين أول حكم جستنيان سنة ٥٢٨ وبين سنة ٦٢٨

وقد كانت قبل ذلك حروب بين الدولتين ولكن هذه المدة الطويلة كانت حروبها أشد اتقادا وأكثر اتصالا ولم يكن فيها تفوق من احدى الدولتين على الأخرى ولهذا كانت تثور وتلتهب ثم تنتهى على اعادة الأمور الى ما كانت عليه قبل الحرب تقريباً

وقد كان لهذه الحروب المستمرة آثار كبيرة نلخص أكبرها فيما يلى

(١) ضعف خزائن الرومان وفارس على حد سواء واضطرت كل من الدولتين الى اتباع سياسة مالية مرهقة للناس بكثرة الضرائب والضرائب اذا زادت عن المقدار الضرورى المأمون صارت ضارة بالانتاج فعاقت الزراعة والصناعة والتجارة وسائر مرافق الحياة ومن جهة أخرى فانها تزرع فى الناس كره الحكومة وتجعلهم ينصرفون عنها فاذا كان الشعب وطنيا أى انه محكوم بحكومة من أهله مثل الشعب الفارسى تثاقل عن أداء الفروض المطلوبة منه ونفر عن مساعدة حكومته اذا ماألمت أزمة بالبلاد وذهبت عنه الثقة بها واما اذا كان الشعب مخالفا للحكام فى الجنس كالشعب المصرى والشامى مثلا فانه يتمنى زوال دولتهم فاذا ماحلت أزمة كان مساعداً على تلك الحكومة التى أرهقته وفى كلا الحالين تكون الدولة معرضة لأشد الأخطار فى حالة حدوث الأزمات .

(٢) ضعفت قدرة الدولتين بكثرة الحروب وصارت الأموال غير كافية لسد ماينقص من المعدات ولهذا صارت الجيوش تضمحل فى الاستعداد والعدد ولا سيما لأنها فى كلا الدولتين لم تكن جيوشاً وطنية بل جنودا مرتزقة لا تجتمع للدولة الا مادامت الخزائن فياضة .

(٣) كانت هذه الحروب المستمرة فى ذاتها معطلة للتجارة وسائر أبواب الرزق زيادة على ماسبق ذكره من أثر ثقل الضرائب ولهذا كان الناس اذا ضاق بهم الأمر من شدة الحروب وتواصلها تمنوا وقوفها ورغبوا فى السلام بأى ثمن ولهذا كان أهل الدولتين عند ما تجددت الحروب بعد ذلك قد ملوا تلك الحال ورغبوا فى السلام بأى ثمن ولو كان الخضوع للغزاة الجديدين .

(٤) كانت دولتا الروم والفرس تستخدمان العرب فى حروبهما فكان الروم يستخدمون من جاورهم من العرب الخاضعين للغسانيين وكان الفرس يستخدمون فى حروبهم مايليهم من العرب الخاضعين للمناذرة وكان استمرار الحروب هذه المدة الطويلة داعيا لزيادة أهمية العرب فى جيوش الدولتين حتى كان منهم القواد فى جيوش الرومان والفرس وأكسبهم ذلك علما بما فى هذه البلاد من اضطراب وضعف وكان ذلك درساً لهم يساعدهم فيما بعد فى فتوحهم .

(٥) حدث أثناء هذه الحروب ان الرومانيين شجعوا الحبشة على فتح بلاد اليمن كما مر ثم حاولت الحبشة فتح داخل بلاد العرب فعجزت واستمر ملكها مقتصرا على بلاد اليمن الى أن ساعدت فارس فى مدة أنو شروان أهل البلاد على طردهم من هنالك كما تقدم وكان لذلك أثر عظيم فى بلاد العرب فان قلب تلك البلاد الصحراوية الذى كانت مجاهلها دون متناول العالم الخارجى قد اهتز فى هذه الحروب وبدأ يتصل بحوادث العالم وكان هذا الاهتزاز

مهيئا للشعب العربي للوثوب مع الاسلام الوثبة العظيمة التى لم يذكر التاريخ لها مثيلا .

خلاصة .

من كل ما سبق وصفه يمكن أن ندرك أن الحوادث التى جرت فى الشرق الأدنى بين فارس والروم قد مهدت السبيل الى ضعف الدولتين العظيمتين اللتين آل اليهما أرث مدنية العالم فى ذلك الوقت وأعدتهما للوقوع فريسة للمفترس القوى وكان ذلك المفترس القوى على أبواب الدولتين وهو الشعب العربى وقد أثرت فيه هذه الحوادث أعاأثر فكان هو السيد المحتوم للعالم المتفانى الذى قامت له القيامة وحل عليه الفناء .

# وثبة العرب مع الاسلام

## مقدمة فى حالة العرب قبل الاسلام

لم يكن للعرب قبل الاسلام شأن فى تاريخ الأمم فقد كانوا قبائل متفرقة ينزلون فى شبه جزيرة أكثر أرضها صحارى لا تصلح لأن تكون فيها دولة ولا أن تقوم فيها مدنية وقد اضطرتهم ظروف أرضهم الطبيعية الى أن يكون النضال بينهم شديدا على القليل من موارد الرزق فى بلادهم ولهذا كان فيهم صفتان اساسيتان الأولى انهم قوم دائبون على الحرب والنضال فيما بينهم والثانية انهم قوم أهل عصبية وهى الرباط القوى بين الفرد وقبيلته ينصرها وتنصره فى كل موطن طلبا للبقاء فى النضال والى جانب هاتين الصفتين الاساسيتين كان للعرب صفات ثانوية ناشئة من نظام حياتهم ومن حالة اقليمهم وبيئتهم وكان بعض هذه الصفات حسنا وبعضها سيئا فمن حسنها انهم كانوا لا يحرصون على المادة بل يبذلونها فى سبيل العزة فكان الكريم

وعندهم فضيلة والحرص رذيلة كما انهم كانوا يجلون الشهامة وحفظ الجوار يستقبحون الغدر بالجار واخفار الذمة على ان من سيئات صفاتهم اباحة النهب فكان من مفاخرهم الاغارة والحق ان كل رذائلهم وليدة فقر الاقليم. وقد كانوا يبيحون الزواج الكثير ولم يكن عندهم حرص على الفضائل الخلقية وكانوا يبيحون شرب الخمر وتدفعهم المبالغة فى الانفة الى اعمال قسوة فظيعة كوأد البنات واساءة معاملة الرقيق ولكنهم مع كل هذه الصفات كانوا شعبا حاد الذكاء أكسبتهم الحياة فى الصحراء ذات السماء الصافية والجو المعتدل نفوذا فى الفكر وقد كانوا مضطرين بحكم نضالهم المستمر الى أن يكونوا أقوياء الملاحظة لهم دقة عظيمة فى الاستقراء ليفهموا ما وراء الظاهر من المعانى ومن أثر هذا انهم كانوا أهل دراية باقتفاء الأثر وبالفراسة وأمثالها من وجوه دراسة مظاهر الانسان ودلالتها .

موارد الرزق فى بلاد العرب

ولم تكن بلادهم ذات غنى إذ ان أكثرها لا ينبت نباتا وليس فيه من الخيرات القليل وأكبر وجوه الثروة فيها هى :

(١) الزراعة : القليلة فى بلاد اليمن وفى بقاع اخرى قليلة مثل حول المدينة وفى خيبر واقليم هجر وساحل البحر الأحمر واكثر حاصلات الزراعة عندهم النخيل.

(٢) الرعاية وكانت ضئيلة فى الوديان الشمالية والجنوبية ولكنها كانت ذات شأن فى الهضبة الوسطى ( نجد ) حيث كانت الابل النجدية والخيل العربية المشهورة .ولكن لايكاد يخلو واد فى تلك البلاد من وجود حشائش تصلح للرعاية ان كثيراً أو قليلا ، اللهم الا المفاوز التى لانبات فيها ولا ماء وتلك فى الجهات المنخفضة وراء الجبال كالربع الخالى وراء جبال اليمن وصحراء الدهناء فى الوهد الشمالى وراء نجد

(٣) التجارة : وكان لها طريقان الطريق البحرى والطريق البرى فكان العرب فى سفنهم الصغيرة يجتازون باب المندب ذاهبين الى ساحل الهند وافريقيا الشرقية . ويرجعون الى سواحل مصر والى أيلة عند رأس خليج العقبة وكانوا يتجرون بين اليمن والشام على الساحل الغربى حاملين من اليمن بضائع الشرق ومن الشام بضائع الغرب ويخرجون من وراء ذلك بربح اما أجر عملهم اذا كانوا فقراء واما ربح أموالهم اذا كانوا من الأغنياء أصحاب المال .

(٤) الاشتغال بالجندية : وكان ذلك على الأكثر من عمل القبائل التى عند حدود فارس والروم بعضهم ينضم الى لواء واحدة والبعض الى لواء الأخرى .

(٥) موسم الحجاز : كان للحجاز ولا سيما لاهل مكة باب آخر للرزق وهو موسم الحج فقد كان العرب يهبطون تلك المدينة المقدسة منذ القدم يؤدون فيها مناسكهم ويعطون كبار أهل مكة نظير ذلك ضرائب معينة نظير تمكينهم من أداء ذلك الواجب والسماح لهم بالاقامة بين ظهرانيهم والشرب من مائهم الى غير ذلك .

وكانت من ذلك وظائف فى أيدى الاسرات الكبرى بمكة مثل حجابة الكعبة والسدانة وسقاية الحاج .

مدنية العرب قبل الاسلام

المدنية المادية : انما تنشأ المدنية فى أرض اذا كان بها مايؤهلها لتلك المدنية وأساس كل ذلك أن تكون الارض ذات ثروة وبها مجتمع ينتفع بهذه الثروة ويفيض منه فضلة يبنى منها ما نسميه باثار المدنية ولكن العرب نشأوا فى بلاد ذكرنا ما بها من موارد الرزق الضئيلة فليس غريبا أن نقول أن المدنية بمعناها المادى لم توجد فى بلاد العرب فمصر مثلا كان بها مدنية مادية هائلة فتقدمت بها الزراعة وما يلزم لها من الآلات والوسائل وتحكم

المصريون فى مياه النيل بوسائل فنية راقية وصنعوا أجمل المصنوعات من منسوجات وأثاث ومعادن وبنوا الهياكل الضخمة وزينوها بما لا يجاريهم فيه أمة من أجمل الزينات وأبدعها . وهكذا يقصر بنا القول عن وصف تلك المدنية المادية وكذلك يمكن أن يقال عن مدنية بابل واشور المادية وعن مدنية اليونان والرومان المادية . وكانت ثروة تلك البلاد أول اسس تلك الاثار المادية. فالعرب بطبيعة الحال لم يكن لهم شيء يقاس بمثل تلك الآثار المادية بل كانوا شعبا بدويا كل آثار المدنية به فطرية تافهة . وكل مايتعلق بتلك المدنية المادية ويمهد لها السبيل من علوم وفنون جميلة لم يكن للعرب حظ منه كعلم الهندسة وفن البناء والنقوش وصناعة الآنية وغير ذلك

ولئن كان عندهم علوم أو فنون فقد كان موضعها اليمن ومع ذلك فقد كانت فى مرتبة غير عالية .

المدنية الفكرية : ولكن العرب لم يكونوا بمعزل عن العالم المتمدين بل كانوا على اتصال به وعلى مقربة منه فلم يكونوا مثل الشعوب البربرية التى أغارت على الدولة الرومانية بل كانوا أعرق اتصالا بالمدنيات وأقرب دارا . واذا كانت بلادهم صحراء غير صالحة لانماء المدنية المادية فقد كان الشعب العربى شعباً ذكياً صافى الفطرة قوى الملاحظة نبيه العقل ولهذا استطاع أن يقتبس من المدنيات التى حوله شيئاً كثيرا واستطاع أن يوجد لنفسه خزانة خاصة من الثقافة أظهرها فى شعره البدوى البسيط . ففى شعر الجاهلية ونثرها ومايروى من أخبار العرب أدبه نجد آثارا تدل على أنهم فقدوا المادة فأظهروا ما عندهم من قوة عقلية فى المظاهر الفكرية . فكما اننا نهتز اذا رأينا جمال النحت والنقش اليونانى وعظمة الهياكل المصرية كذلك نهتز اذا رأينا الجمال فى شعر الشعراء امثال المنخل اليشكرى ويأخذنا جلال قول النابغة الذبيانى ولا يسعنا الا اجلال زهير بن أبى سلمى فى تفكيره الهادىء الرزين

وكان أكثر الثقافة فى القبائل المجاورة لفارس والشام طبعا . على أن الثقافة الفكرية لم تقف عند هذا الحد بل أن العرب أخذوا كثيرا من فلسفة الامم المجاورة فقد وجدت الاديان سبيلا الى بلاد العرب بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية ومبادىء زردشت الفارسى وقد تسترعى النظر حركة التفكير التى دبت فى بلاد العرب قبيل الاسلام وذلك من آثار الهزة العظيمة التى اهتزتها تلك البلاد من جراء حروب الحبشة ثم حروب فارس في اليمن كما مرذكره . فنجد بين العرب جماعة كثيرة من المفكرين نذكر منهم أمية بن أبى الصلت وورقة ابن نوفل وزيد بن نفيل .

الرأى العام : ولكن هذه الآثار كانت شخصية فما كان هناك فى بلاد العرب مجتمع له رأى عام بالمعنى الموجود في البلاد الاخرى الا في جهات محدودة مثل مكة أو المدينة مثلا . وكذلك نجد أنه لم يكن بينهم قانون يخضع له الجميع ويتبعون ما يفرضه عليهم وذلك لما تقدم ذكره من انعدام وجود المجتمع فكان بعض الافراد يسيرون على سنة فاضلة اختياراً ولكن الأكثرية كانوا يتبعون فى سيرتهم ما تمليه عليهم عصبية القبيلة أو الهوى الشخصى . وكان ذلك يجر الى كثير من الظلم والسوء فى الحياة

# رسول الله

ان نواحى الكلام فى رسول الله صلى الله عليه وسلم متشعبه ولا يتسع مثل هذا المجال الضيق للافاضة ولهذا سنقتصر على الكلام فى تاريخه من جهة واحدة وهى تأسيس الدولة العربية الاسلامية :

ورسول الله من هذه الناحية شخصية تاريخية مجيدة بل هى اكبر شخصية تحدثت عنها الاخبار المجردة التى لا تحيز فيها فقد أوجد دولة سايرت الدهر وبعث بدين لا يزال مثالا عاليا للطهارة والصلاح . ومنذ

تاسست الدولة العربية صارت عنصرا عظيما من العناصر التاريخية ، بل لقد صارت فى وقت ما الدولة الكبرى التى ورثت تراث المدنيات القديمة وزادت عليه وسلمته للدول الحديثة اتباعا لسنة الكون من تعاقب الدول وتداول المدنيات بين الشعوب .

وان من الحق علينا أن نعرف شيئاً ولو مجملا عن شخصية الرجل العظيم والنبي الكريم الذى أحدث كل ذلك الأثر .

ولد محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب حوالى سنة ٥٧٠ ميلادية فى أواخر حكم الملك الفارسي الكبير ( كسرى انوشروان ) وقد مات أبوه وما زالت أمه حاملا به فلما ولد صار فى حجر جده عبد المطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي . وكان عبد المطلب فى ذلك الوقت زعيم قريش وهم أكثر سكان مكة وما حولها يجتمعون فى جد واحد وهو قصي .

وقد كان لعبد المطلب هذا مواقف فى تاريخ قريش فقد كان زعيمهم عند ما أغارت جيوش الحبشة على مكة فدبر حيلة لقومه وهي الخروج عن المدينة من وجه العدو حتى طال عليهم الزمن هناك فى صحرائها وهم غير معودين الحياة فى مثل مناخها ففعل بهم حرها وفتك بهم المرض وأضر بهم الجوع وكان عبد المطلب بين حين وآخر يهبط عليهم بقومه من الجبال فيحدث فيهم فشلا ويزعجهم حتى اضطروا للعودة وترك فكرة فتح البلاد

ولما ساعد كسرى اليمن على الثورة ضد الحبشة وتولى زعيم اليمن سيف ابن ذى يزن واليا تحت حماية الفرس كان عبد المطلب رئيس وفد قريش الذاهب لتهنئته .وقد بقي محمد مدة فى البادية مع ظئر له على عادة أشراف مكة اذ ذاك حتى خيف عليه فرد الى أهله وقد ماتت أمه ولا يزال طفلا صغيراً فزادت عناية جده به حتى كان يطلق عليه اسم « ابنى » كأنه وحيده وقد بدرت منه فى طفولته أمور تنبيء بعظم نفسه حتى كان جده يقول عنه «أنه ليأنس فى نفسه ملكا »

ولكن جده توفى وهو صبى فى نحو الثامنة أو التاسعة ، فكفله عمه أبو طالب وكان تاجرا وانتقلت اليه زعامة قريش بعد عبد المطلب

وكان أبو طالب يستصحب محمدا فى بعض أسفاره الى الشام وكان محمد كلما شب ظهرت فيه من الصفات ما جعلت كل من عرفه يتوسم فيه العظمة. فكان شديد الاحساس قوى العاطفة غير ميال من صغره الى اللهو . نظيفا؛ عفيفاً فى كل شىء من لبس وأكل وقول

وكان قوى الجسم منذ صغره جميل الصورة حسن الهيئة وقد عمل فى التجارة لما صار شاباً ، وعرف بالأمانة حتى أن سيدة من أغنى سيدات قريش وأعلاهن نسباً وأحسنهن جمالا وأعفهن جعلته مضاربا لها فى التجارة ولما رأت أمانته وكرم نفسه عرضت نفسها عليه ليتزوجها وكان سنه إذ ذاك نحو خمس وعشرين سنة وكانت هى فى نحو الأربعين ، ومنذ تزوجها استغنى عن العمل وانصرف الى حياة التفكير والتأمل التى اعدته لتحمل الأمانة العظيمة التى القاها الله عليه ، وفى هذه المدة كان خلقه يتم ونفسه تزيد طهارة وعلوا حتى انه سمى بين الناس بالأمين ، وكانت عادته فى هذه المدة ان يكثر من الاختلاء بنفسه ولا سيما فى غار حراء فى خارج مكة حيث كان يذهب بقليل من الأكل البسيط كخبز الشعير والزيت فيقيم مدة قد تكون اياما قلائل وقد تكون اسبوعا أو اكثر من ذلك فتكون شهرا وكانت السيدة خديجة أحيانا تخرج معه وأحيانا يخرج وحده

ولما بلغ سن الأربعين اختاره الله لحمل رسالته الى الناس ( ويوافق ذلك سنة ٦١٠ ميلادية ) فملأ قلبه شعورا بواجب الدعوة الى المثل الأعلى من الخلق والتدين ، وكان يراجع نفسه حذر ما قد يجره ذلك من الآلام لرجل مثله شديد الاحساس محب للمسالمة ولكن ارادة الله كانت ونزل اليه الوحى وأوله آية ( اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق الخ ).

ثم فتر عنه الوحي مدة وعاد اليه وكلف بالدعوة اذ نزلت عليه الآية « يا أيها المدثر قم فأنذر الخ » .

وقد بدأ دعوته الى الناس سرا فآمن به أقرب الناس اليه العارفين بما كان عليه من الصدق والأمانة وسمو الخلق . فآمنت به خديجة وأبوبكر وعلي بن أبي طالب وقليل غيرهم ، ولبث سنين يؤدي الأمانة ويدعو الى المثل الأعلى وكانت الآيات التي يكلف بتبليغها للناس تدعو الناس الى التفكير في خلق السموات والارض وفي نعم الله على الناس وفي بيان محاسن الخلق والحض على المكارم ولكن قوما من أهل مكة كانوا يرونه جاء بشيء جديد وخافوا أن يكون طامعا في رئاسة ينزعها منهم وحسده جماعة منهم كأبي جهل الفظ الطاغية ، وأبي لهب عمه فجعلوا يؤذونه بالتكذيب ويرمونه بالسحر والجنون وهو صابر على الأذى معرض عنهم تكرما ، دائب على القيام بواجبه مهما تكلف في سبيله من المشقة .

وقد امتحن أشد امتحان إذ فقد في سنة واحدة عمه أبا طالب الذي كان يحميه وزوجته خديجة التي كان لها أكبر الفضل في تعزيته ومواساته فيما كان يصاب به من قومه .

وقد عرض عليه قومه قبيل وفاة أبي طالب أن يعطوه ما أراد من مادة الدنيا والسلطان اذا هو كف عن نشر دينه فابى أن يأخذ رشوة على ترك ما كلف القيام به من الاصلاح وحرص على أن يبلغ رسالته ولو ناله في سبيل ذلك أكبر مكروه . ومنذ مات أبو طالب جهد القرشيون أن يخضعوه بالاضطهاد والأذى ، ولكن الله وهبه نفسا كبيرة وقوة شخصية كانت تحميه من الاعتداء[1] اذ فقد الحامي وأدبا عاليا كان يشعر المعتدين عليه بالخجل عند اعتدائهم الذي لايقابله الا بالموعظة وبيان مكارم الخلق[2] . وأخيرا اعتز

(١) تدل على ذلك وقائع كثيرة مثل واقعة مطالبة أبي جهل بالدين الذي عليه للاعرابي

(٢) تدل على ذلك وقائع كثيرة مثل واقعة جيرانه إذ رموا عند بابه الاوساخ ورده عليهم

الاسلام بدخول عمه حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فيه . وكان لاسلامهما وقع عظيم على القرشيين لشجاعتهما وشدتهما فى نصرة ما يريانه حقا

ولما راى الرسول قلة من يتبع النصح من قريش عزم على نشر الاسلام خارج مكة ، وأذن لأصحابه أن يهاجروا الى الحبشة حتى لا يصل أذى أهل مكة اليهم وقد امتحن الرسول امتحانا شديدا فى أول الأمر اذ صدم فى الطائف وفى بعض المواسم ولكنه واصل السعى الى أداء الواجب حتى ظهر أول نور الفتح وذلك أنه عرض الاسلام فى موسم الحج على نفر قليل من أهل يثرب وكانوا ستة أو سبعة فوجد منهم قبولا وفى العام الذي يليه عاد هؤلاء وقد قبل الدعوة معهم نفر سواهم فاسلم فى ذلك الموسم اثنا عشر رجلا وامرأتان ويسمى اتفاقهم مع الرسول على الاسلام ببيعة النساء اذ بايعوه أى اتفقوا معه على الشروط التى كان الاسلام يطلبها من النساء عند اسلامهن وهى قواعد الاخلاق الأولى بغير تكليف بنشر الدين بالقوة وفى مدة العام الذى يلى ذلك انتشر الاسلام في يثرب انتشارا كبيرا حتى بلغ عدد من قدم مكة من المسلمين فى الموسم التالى نحو السبعين بين رجل وامرأة وقد أرسلوا للرسول سرا يدعونه للاتفاق معهم رجاء الخروج من مكة اليهم ليعيش بينهم وينصروه

وقد خرج اليهم الرسول ليلا ومعه عمه العباس وكان لا يزال على دين قريش ولكنه خرج معه عصبية ليحميه وليستوثق له من أهل يثرب وقد اطمأن الرسول وعمه العباس الى مبايعة أهل يثرب وكانت على أن يخرج اليهم وانهم يحمونه من كل ما يحمون منه نساءهم وأطفالهم وأموالهم . ومن ذلك الوقت يمكن أن نقول أن الاسلام اتخذ مجرى جديداً فان الرسول عزم على الخروج من مكة لكى يظهر أمر الله على رغم قريش

ولم يكن من الغريب أن تسمع قريش بذلك الاتفاق مع أنه كان ليلا

وفى السر مع شديد الاحتفاظ والاحتياط وقد كانوا يتوقعون أن محمدا لابد يسعى للخروج من بينهم وقد عرفوا أنه اذا خرج من مكة وجد نصرا من غيرهم فلا يلبث أن يعلو أمره ويظهر دين الله برغمهم فتواعدوا وتشاوروا فيما بينهم حتى استقر الرأى بينهم على قتله [1] ولكن أراد الله ان ينجى الرسول من كيدهم فعرف بما عزموا عليه ودبر خطة محكمة للنجاة منهم وساعده الله كى يتم أمره كما سيأتى

الهجرة : كان الرسول منذ رأى اشتداد الامر بأصحابه قد أمرهم بالنجاة بأنفسهم خوف أن يفتنوا عن اسلامهم وقد ذكرنا أمره لهم بالهجرة الى الحبشة وقد هاجر جماعات من المسلمين الى هناك مرتين ومنذ اتفق الرسول مع أهل يثرب أمر المسلمين بالذهاب الى هناك فجعلوا يذهبون بعضهم خفية وبعضهم علانية وكانت للهجرة مظاهر مجيدة تدل على ما كان فى قلوب المسلمين الاوائل من الايمان والشجاعة والاستهانة بقوة اعدائهم المادية [2] ولكن الرسول نفسه انتظر الى آخر الأمر شأن القائد الأمين والزعيم النبيل وهو فوق ذلك الوصف كله . وكان قد أمر ابا بكر الصديق أن يبقى ليكون معه فى الهجرة فاستعد ابو بكر لذلك بشراء الابل واعداد الدليل وغير ذلك

فلما كانت ليلة مؤامرة القرشيين خرج الرسول ليلا من ظهر منزله ولم يره الارصاد الموكل اليهم أمر مراقبته فى داره وترك عليا وهو شاب صغير راقدا فى مكانه مسجّى بغطائه وقد رضى على بذلك راغبا مسرورا لعلمه أنه انما يؤدى واجبه ولو عرض حياته للموت

---

(١) اتفقوا على أن يختاروا عشرة فتيان من قبائل مختلفة من قريش فاذا قتلوه لم يستطع بنو هاشم أن يقفوا لكل تلك القبائل فيقبلوا عنه الدية

(٢) كما تدل عليه هجرة حمزة وعمر وصهيب وما أظهر هؤلاء من شدة الجنان والثبات أمام عدوهم الكثير العدد

وذهب الرسول الى منزل ابى بكر ومن هناك خرجا معا من مكة ولم يرهما أحد وما زالا سائرين حتى بلغا غارا فى جبل بجوار مكة فأقاما فيه ثلاثة أيام عالمين أن أهل مكة سيرسلون وراءهما فى طلبهما عند ما يعلمون بهجرتهما وقد أراد الله أن يسترهما ذلك الغار ولم يهتد اليهما فيه من أرسل وراءهما

وبعد الايام الثلاثة خرجا من الغار وجاء اليهما الدليل الذى استأجره ابو بكر ومعه الرواحل ومن هناك ساروا نحو يثرب ولم يحدث لهما حادث يستحق الذكر بعد ذلك الا أن لحق بهم رجل اسمه سراقه ولكن أراد الله أن ينجيهما منه فعاد ولم يجرأ على أن يؤذيهما

ولما بلغوا يثرب وجدوا أهلها خارجين فرحين منتظرين قدوم الرسول عليهم ومعهم النسوة يغنين ويضربن بالدفوف الابيات المشهورة

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع » الخ الخ

وقد أظهر أهل يثرب من الكرم ما لا نظير له اذ آووا المهاجرين فى بيوتهم وشاطروهم أموالهم راضين فرحين ولم يكره قدوم الرسول الا جماعة ممن فى قلوبهم مرض مثل عبد الله ابن ابى بن سلول وهؤلاء كرهوا قدوم الرسول اذ ظنوا أنه سلبهم الرياسة التى كانوا يحرصون عليها في يثرب ولكن حكمة الرسول كانت أوسع من كيدهم فكان مع علمه بكرههم يتألف قلوبهم ولا يجازى اساءتهم الا بالاحسان والارشاد ( وتوافق الهجرة سنة ٦٢٢ ميلادية )

## طريق الاسلام الجديدة بعد الهجرة

كان سيدنا الرسول مكلفاً بتبليغ العالم رسالة الاسلام والتبليغ انما يكون بالطريق الطبيعية لان الله انما اختار بشرا لاداء ذلك الواجب ولا شك أن الناس أنواع فنهم صاحب العقل والبصر الذى يرى الحق فيتبعه

---

(١) راجع قصة سراقة بن مالك الخثعمى المشهورة

وهؤلاء هم الاخيار الابرار الذين يكونون دائما فى المرتبة الاولى من البشرية ومن الناس المقلدون وهؤلاء الاكثرون وليس فى طباعهم حب الشر ولكنهم لا يسمون الى مرتبة أصحاب العقل والبصر ومن الناس أشرار أصحاب مطامع يضحون بكل شيء فى سبيل مطامعهم ولو كان مايضحون به خير الانسانية كلها . والرسول الصادق المكلف بابلاغ دعوة الخير يدعو أولا بالعقل والبصر فيتبعه الاخيار ويؤمنون به رغبة فيما يدعو اليه من الخير واما الدهماء من العامة فلايميلون الا الى من رجحت كفته واما الاشرار فلا امل فى اجابتهم دعوة الخير ولذلك كان من الطبيعى المحتوم أن يأخذ الرسول دعوته فى يمينه ويهز الدهماء هزا قوياً حتى يروا أنه هو الصالح وهو الوارث وهو القوى وان كفته هى الراجحة فيميلون الى حقه بعد أن يروا بأسه وفى نفس الوقت لابد أن يشعر الاشرار أن الخير أقوى منهم وأن العاقبة لاهله الصالحين . والهجرة هى الحد الفاصل بين الدور الاول الذى دعا فيه الرسول من له عقل وبصر بالحكمة والموعظة والمجادلة بالحسنى فلما أن حصل على ايمان هؤلاء لم يكن بد من السيف والقوة ليرغم من عداهم على اتباع الخير ويدلهم ولو كرهوا على ما فيه صلاحهم .

وقد بدأ الرسول بالاستعداد للجهاد منذ ترك المدينة فقضى العام الاول فى درس الاقاليم الذى حول المدينة وبدأ يشعر القرشيين أنه سيأخذهم بقوة الله ولكن الاصطدام العظيم لم يحدث الا فى العام الثانى للهجرة فى موقعة ( بدر الكبرى )

## موقعة بدر الكبرى

كان الرسول عالما ان دهماء أهل مكة وأهل الأغراض فيها لايمكن أن ينصاعوا لغير القوة ولكنه مع ذلك أحب أن يبعد القتال مااستطاع ولعله كان يريد أن يضايق تجارتهم اذ كانت يثرب على الطريق المؤدية الى الشام ولعله

كان يريد من وراء مضايقة التجارة ان يشعرهم بان مصلحتهم فى الاتفاق معه وكانت شروطه معروفة وهى اتباع فضائل الاسلام وتلك فضائل ما كان لعاقل ان يهرب منها أو يرغم على اتباعها ولكن جماعة من أهل المطامع خشوا على سلطانهم ان يهدده الاتفاق فكانوا يثيرون الأحقاد فى قلوب العامة بالأكاذيب . فأحب الرسول أن يشعرهم خوفا أكبر من ذلك فعزم على أن يهبط على عيرهم التى تحمل التجارة وفيها أودعت أموال أغنياء قريش فرصد لها فى وادى بدر فى الجنوب الغربى من يثرب ينتظر عودتها من الشام وكان رئيسها أبو سفيان فشعر أبو سفيان ان الرسول رصدله فأرسل الى أهل مكة يطلب منهم النجدة وينذرهم ان أموالهم فى خطر من الضياع وان المسلمين راصدون ليغنموها واحتال حتى بعد عن يثرب ونجا بالعير ونفر القرشيون وخرج جيش فيه أكابرهم فى نحو ألف رجل وكان الرسول فى نحو ثلثمائة . وكان جيشه مع ذلك قليل الرواحل ولم يكن معهم خيل الا واحداً أو اثنين ولم يرد الرسول حرباً ولكن القرشيين أصروا على ان يقضوا على الاسلام كما زعموا فاضطر سيدنا الرسول ان يحارب وكانت شجاعة هذه الفئة القليلة هي الغالبة على كثرة العدد والعدد وظهر فى تلك الموقعة ثبات المسلمين واقدامهم على الشهادة وظهر من كريم صفات سيدنا الرسول ماهو أهله . وأحرز المسلمون نصراً عظيما دل على ان العاقبة لهم لامحالة .

وقد وفقهم الله الى النصر فى قتال لم يقصدوه عند خروجهم من يثرب.

انتقام أهل مكة — موقعة أحد .

ما كاد يخلو بيت من بيوت مكة بعد موقعة بدر من نائحة على قتيل ولهذا أجمع السادة والأغنياء على التعاون فيما بينهم ليستعدوا للانتقام قاصدين أن يذهبوا الى يثرب ويستأصلوا المسلمين فاجتمع منهم نحو ثلاثة آلاف وساروا فى العام التالى الى أن بلغوا جبل أحد فى الشمال الشرقى من المدينة وذلك فى السنة الثالثة من الهجرة .

وكان بين المسلمين رأيان أحدهما ان يخرجوا ليقابلوهم خارج المدينة والثانى ان يبقوا فى داخلها وينتظروا هجومهم فيردوهم عنها . وقد ساد الرأى الأول محافظة على كرامة أهل يثرب . وخرج الرسول الى أحد ليقابل القرشيين وحدث فى أثناء ذلك حادثان . الأول ان جماعة من أصحاب المطامع ورئيسهم عبدالله بن أبىّ بن سلول انشقوا عن المسلمين ورجعوا فى الطريق والثانى انه كان فى جوار يثرب محلات لليهود وكانوا على عهد مع الرسول فبدأ الرسول يلاحظ عليهم بعض الغدر والميل الى العدو منذ ذلك الوقت

وكانت موقعة أحد ثلاثة أدوار الدور الأول وفيه انتصر المسلمون انتصارا عظيما حتى وصل أبطالهم الى ظهر جيش القرشيين وبلغوا مكان نسائهم اللائى كن معهم يحرضن على القتال .

والدور الثانى وأصيب فيه المسلمون اصابة كبرى وسببها ان الرماة الذين أمرهم الرسول بالبقاء على سفح الجبل ليمنعوا خيل العدو ان تأتيهم من خلفهم لما رأوا انتصار المسلمين تركوا أماكنهم فانتهز فرسان قريش الفرصة وأتوا للمسلمين من الخلف وأصابوهم اصابة عنيفة حتى ان سيدنا الرسول نفسه جرح وأشيع انه قتل وتفرق الناس ووقع فى صفوفهم اضطراب .

والدور الثالث وفيه تشجع أبطال المسلمين وعزموا على النضال وزادهم ثباتا انهم عرفوا ان الرسول لم يقتل . فاضطر القرشيون ان يكفوا عن القتال بعد ان قتل نحو السبعين من المسلمين وقد اعتبر القرشيون ذلك نصرا لهم ولكن المسلمين لم تخر عزيمتهم بل كانت نفوسهم عالية وردوا على فخر ابى سفيان ردا قويا (١)

وقد كان خوف القرشيين من تجدد الاصطدام بالمسلمين أكبر مايدل

---

(١) قال أبو سفيان مفاخراً مقالة طويلة جاء فيها « نعمت فعال . والحرب سجال يوم بيوم بدر » فرد عليه عمر قائلا «لاسواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار »

على أن إحدا لم تكن هزيمة بالمعنى المعروف فانهم رجعوا الى مكة ولم يجرأوا على أن يمسوا المدينة بسوء . وقد أظهر الرسول شدة بأس المسلمين وعلو عزيمتهم بأنه تبع القرشيين الى مسافة طويلة جنوب يثرب فلم يستطع القرشيون أن يعودوا للاصطدام معه بل ساروا في طريقهم إلى مكة ينتظرون فرصة أخرى لاستئصال الاسلام .

## الأزمة الكبرى — غزوة الخندق

استعد القرشيون هذه المرة استعداداً لم يسبق مثله لمدينة صغيرة فى مثل صحراء العرب أن تستعده وجمعوا اليهم حلفاءهم من القبائل الضاربة حول مكة وصارت عدة جيشهم نحو خمسة آلاف رجل وذلك فى السنة الخامسة من الهجرة . ولم يتردد المسلمون هذه المرة بل رأوا الاقامة فى يثرب والدفاع عنها واقترح سلمان الفارسى أحد الصحابة على الرسول أن يحفر المسلمون خندقا فى جانب المدينة الذى يمكن للجيش المغير ان يدخل منه فأنفذ الرسول ذلك الرأى وعمل بنفسه مع المسلمين حتى أتم الخندق فما اتى أهل مكة حتى رأوا مكيدة لم يسبق لهم عهد بها، وقد جاءوا طامعين فى صدمة سريعة يرجعون بها مؤملين الفوز لكثرة عددهم فخاب أملهم واستطالت بهم مدة الحصار وهم لا يستطيعون الوصول الى المسلمين بحال من الاحوال ولم يحدث قتال الاقليلا لا يكاد يذكر وكان لطول المدة أثر سيء فى الجيش المغير ولا سيما الحلفاء فانهم لم يأتوا ليقيموا مع حلفائهم مدة طويلة وخصوصاً ولم يحدث القتال الذى جاءوا له . وقد حارب الرسول بالمكيدة هذه المرة فانه أرسل من المسلمين فتى لبيباً فطنا أوقع بين الحلفاء وقريش سوء الظن ، ثم ساعد نفاد المؤن مع طول مدة الحصار على رغبة المقاتلين فى الرجوع . وساعد على خذلان القرشيين أن اشتد البرد وهبت الرياح فكانت تكفأ القدور على النيران

ولا يقدر الناس على الوقوف من شدة عصف الريح والبرد . وهكذا اضطر المحاصرون أن يعودوا خائبين . وكان هذا نصراً بغير قتال ولكنه كان نصراً عظيما . لأن قريشا لم تستطع بعده أن تستعد للهجوم إذ أنها رمت بآخر سهم فى كنانتها .

تنفس المسلمون اذ فرج الله عنهم تلك الكربة الشديدة وقد رأى الرسول أثناء الحصار ما كان من خطر اليهود المقيمين بالمدينة وحولها . فانهم كانوا اثناء الحصار يظنون الدائرة تدور على المسلمين فجعلوا ينقضون العهد فعلا ويعينون على المسلمين حتى اشتد الأمر على المسلمين من الخارج ومن الداخل . ولهذا أخذ الرسول يشتد فى سياسته معهم شدة كبرى (١)

الاسلام يتخذ خطة الهجوم

لم يكن الاسلام الى ذلك الحين مهاجماً — فانما قصد الرسول فى بدر أن يرغم القرشيين على الاتفاق معه بأخذ أموالهم وحدثت الموقعة بغير أن يريدها . ثم هوجم المسلمون فى أحد وفى الخندق ولكن منذ العام السادس من الهجرة رأى المسلمون أنه لن يرجع أهل مكة ولن يسلموا الا اذا غزوا فى بلادهم وقهروا بالقوة فبدأ الرسول يعمل على تأمين المدينة أولا ممن حولها من اليهود حتى لا يكونوا وراءه يتمكنون من ظهره . وفى نفس الوقت والى المسلمون التقدم نحو مكة وقد أحب الرسول ان يسالم أهل مكة الى آخر ما فى استطاعته فذهب فى العام السادس للهجرة حاجا ولكن القرشيين أبوا ان يدخلوه مكة ولو حاجا فكسب الرسول بذلك عطف العرب المحايدين لأن الحج فى نظر الجميع فريضة دينية يجب ألا يمنع منها أحد ولكن القرشيين

(١) كان الرسول يقنع باجلاء اليهود عن المدينة أولا عند ما رأى من قلة وفائهم فلما رأى خيانتهم فعلا عند الحصار عاقبهم عقاباً صارماً فقتل المحاربين منهم وجعل الذرارى والنساء والأموال سبياً للمسلمين

اتفقوا معه على عقد هدنة لمدة عشر سنين على أن يباح له الدخول الى مكة فى العام المقبل وتسمى هذه بغزوة ( الحديبية ) نسبة للمكان الذى حدثت فيه المعاهدة . وفى العام السابع دخل الرسول مكة حاجا مع المسلمين وخرج له القرشيون منها حتى حج فكان هذا نصرا أدبيا عظيما — ثم أن القرشيين نقضوا العهد اذ قتلوا أحد حلفاء المسلمين فلم يأمن الرسول الى عهدهم وعول على أخذ الأمر كله فى يده . وفى العام الثامن تجهز لدخول مكة

## فتح مكة

كان الاسلام بعد موقعة الخندق وفشل القرشيين فيها ينتشر انتشاراً سريعاً بين العرب فقد بدأ العامة يرون بأس المسلمين وتسامعوا بفوزهم وجعلهم هـذا يفتحون آذانهم لدعوة الاسلام فيجدون أنها دعوة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتأمر بالعدل والفضيلة وتنهى عن الظلم والرذيلة

وهكذا جعل الناس يفدون أفواجا ويدخلون فى الاسلام طائعين ولما عزم الرسول على فتح مكة كان جيشه ينيف على عشرة آلاف رجل وكان للرسول فيهم كتيبة من الانصار والمهاجرين كان يطلق عليها اسم الكتيبة الخضراء لكثرة ما على رجالها من الدروع والسلاح .

ولما سمع القرشيون بمسير الرسول اليهم وعلموا بكثرة عدد المسلمين خرج قادتهم ليسلموا عالمين أن من أسلم لم ينله أذى . وكان أبو سفيان فيمن خرج ليسلم وهو الذى آلت اليه رئاسة قريش فى ذلك الوقت وفرح الرسول بحقن الدماء وأرسل يؤمن الناس ويحرضهم على وضع السلاح وجعل كل من دخل داره آمناً وكذلك امّن كل من لجأ الى دار جماعة منهم أبو سفيان وكل من دخل الكعبة . وقد قصد بذلك تأليف قلوب الرؤساء أمثال أبى سفيان علما منه أن فى قلوبهم شىء من الكره له لا يزال باقياً .

وبذلك دخلت الجيوش الاسلامية مكة بغير حرب تقريباً وكان الرسول

راكباً على جمل وهو خاشع خشوعا عظيما فى ذلك النصر الذى أولاه الله متذكراً كيف خرج من مكة خائفاً منذ ثمان سنوات وكيف يعيده الله اليها منتصراً وقد علا الدين ودانت له الناس . وقد عفا عن كل من كان قد أجرم ولم يعاقب أحدا بجريمة الا جماعة كانت لهم جرائم دنيئة وهؤلاء لم يعاقبهم بأكثر من النفى من مكة .

وكان من هؤلاء عبد الله بن أبى سرح ووحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب

## الاسلام بعد الفتح

بعد فتح مكة لم يكد يكون خارجا عن الاسلام الا قليل فى بلاد العرب وقد زال تردد المترددين عن الاسلام بانتصار جديد فى غزوة حنين بقرب الطائف أخضع المسلمون فيها القبائل القوية الضاربة فى الجنوب والشرق من مكة ( وهي هوازن وثقيف ) .

وعقب ذلك زاد توارد الوفود مسلمين خاضعين لسيدنا الرسول وكان يرسل اليهم من يعلمهم الدين ويقضى بينهم ومن يجمع منهم الزكاة ومن ذلك يمكن القول أن سيدنا الرسول بدأ يكون فى جزيرة العرب دولة على أساس الاسلام . ولكنه لم يكن مرسلا للعرب وحدهم وكان من قبل قد أرسل كتبا الى الملوك والحكام فى البلاد المجاورة فبعضهم أجاب اجابة حسنة وبعضهم تولى كبره وأغلظ فى الجواب ورأى الرسول أن يبين للعرب الطريق لنشر الاسلام فى غير بلاد العرب ولكنه كان عالماً بما فى ذلك من مشقة لان أقرب الدول اليه دولتا الرومان والفرس . وما دولتا الرومان والفرس . انهما كانتا دولتى العالم اللتين آلت اليهما المدنية واللتين كانتا صاحبتى الجيوش الجرارة والاموال الطائلة ولم يكن عند العرب بعد علم بأساليب حروبهم فجعل الرسول يبين طريق الفتح ولكن فى حذر وتريث مكتفيا بأن يجرىء

العرب على الاتجاه فى هذه الوجهة خوف أن تمنعهم رهبة تلك الدول من محاولة نشر الاسلام فيها وكانت أولى تلك البعثات هى التى اصطدم فيها العرب بجيوش الحدود الرومانية فى غزوتى مؤتة وتبوك .

ولكن تلك الصدمات لم تكن حروبا مع تلك الدول العظمى بالمعنى المعروف ولم يقصد بها أن تكون كذلك . وكان الرسول دائبا فى ذلك القصد يجهز حملة ثالثة لنفس الغرض وقد توفى قبل أن ينفذها. ولكن العرب لم ينسوا أنه أشار لهم الى الطريق التى يسلكونها ولم يترددوا فى المسارعة الى السير حيث أشار . وتوافق وفاة الرسول سنة ٦٣٢ ميلادية

## الدولة الاسلامية بعد وفاة سيدنا الرسول

ضم الاسلام قبائل العرب وجعل منهم كتلة واحدة وهم قوم بدو لهم فضائل البداوة وما فيها من صفات الخشونة وتحمل الشدائد والشجاعة فكانوا قوماً صالحين للفوز فى النضال اذا ما دخلوا فى نضال مع دولة من الدول التى رمتها المدنية بمفاسدها وذهب الترف والاطمئنان بما فى نفوسها من صلابة الرجولة . وكان العرب من قبل لا ذكر لهم فى تاريخ الامم اذ كانوا قبائل مفرقة فاما وقد اجتمعوا على دولة راسية الاساس يؤمنون بدينهم ايماناً صادقا ويرون الجنة فى الشهادة ويقبلون على الموت كحرص غيرهم على الحياة ، فقد كان محتوماً أن يكون لهم فى العالم أثر عظيم وها هم يبدأون سيرتهم منذ سنة ٦٣٣ أى بعد وفاة الرسول بأقل من عام .

وقد بينا ما كان حال الدولتين اللتين كانتا على رأس العالم المتمدين وهما دولتا الفرس والرومان وكان لا بد من أن أول اصطدم بين العرب والعالم يكون مع هاتين الدولتين وسنرى ما كان من ذلك وهو أعجوبة من أعاجيب التاريخ تتمثل فيها كيف يقضى على الدول الضعيفة الفانية اذا ماهزتها دولة

فتية صالحة للبقاء . غير أن العرب اضطروا للانتظار عاماً بعد وفاة الرسول وذلك من جراء الهزة العظيمة التى أصابتهم عند ذلك كما سنرى .

## الخلافة

لم يسبق فى بلاد العرب قبل الاسلام فى عصر من العصور المعروفة فى تاريخها أن خضعت قبائلها لحكومة واحدة وهذا من اثر ظروفها الطبيعية التى سبقت الاشارة اليها فليس عجيباً أن يكون العرب غير عارفين بنظم الحكومات ولهذا يكون من الطبيعى أن يبدأ العرب بعد وفاة سيدنا الرسول فى الابتكار ليقيموا حكومة جديدة فى بلادهم مجتهدين فى نظامها بحسب ما يمليه عليهم عقلهم ويصوره لهم حسن تصرفهم ، لا سيما وأن القرآن لا يشير الى نوع الحكومة الاسلامية فهو لا يتعرض الا للمبادىء العامة وأصول الحكم بطريق فلسفى نظرى . وكذلك لم يشر الرسول للعرب أن يتبعوا طريقا معينة فى حكومتهم بل تركهم عمداً ليجتهدوا لأنفسهم بحسب ما تقتضيه ظروف العصور المختلفة

وسنرى فى تاريخ العرب أنهم كانوا يجربون و يحاولون أن يقيموا نظاماً يليق بهم وبأحوالهم غير أنهم اتفقوا على شىء واحد كان من الطبيعى لهم أن يتفقوا عليه وهو أن يجعلوا أحدهم فى مكان الزعامة الذى خلا بوفاة سيدنا الرسول وأطلقوا عليه لقب « خليفة رسول الله »

## الخلافة الأولى — دور الجمهورية

فى أثناء الاضطراب العظيم الذى هز بلاد العرب عند سماعهم بوفاة الرسول رأى أقرب الصحابة للرسول أن يزيلوا الخلاف ويسارعوا الى البت فى اختيار زعيم ممن يرضاه الناس متوقعين حدوث حوادث جليلة يخشى على حياة دولتهم الجديدة اذا هم لم يبتوا فى ذلك الامر بغير تراخ ولم يصعب عليهم أن يجدوا ذلك الزعيم المرضى واستعملوا أعظم ما يمكن من الحكمة ليقللوا من

اتساع دائرة الخلاف وتم اختيار أبى بكر الصديق بغير صعوبة تذكر. رشحه عمر بن الخطاب ورضى به الاكثرون من الحاضرين راغبين فيمكن أن يعتبر انتخابه عاما ولو أنه لم يشترك فيه الا عدد محدود من العرب وهم الذين كانوا فى المدينة عند وفاة الرسول

## أبو بكر

كان ابو بكر من تلك الشخصيات العظيمة التى يندر وجود مثلها فى التاريخ فكان يجمع بين مضاء العزيمة وصدق الارادة والصلابة فى الحق وبين أعلى مراتب الوداعة والزهد ولين الجانب وكرم النفس . وكان محبوبا عند المسلمين وهذا من أكبر ما أزال عن الدولة الاسلامية خطر الانهدام ونظرا لما تم على أيدى أبى بكر نستطيع أن نسميه المؤسس الثانى للدولة الاسلامية، فالحق أن تلك الدولة أحاطت بها أشد الاخطار وتحركت فيها عوامل التفرق الطبيعية فى بلاد كبلاد العرب ونلخص اكبر هذه الاخطار فيما يلى

(١) المنافسة بين أهل مكة (المهاجرين) وأهل المدينة (الأنصار) حتى كان المدنيون يطمعون أن يكونوا مستقلين تحت حكم أمير منهم

(٢) كره العرب لبذل الاموال لحكومة مركزية اذ يعدون ذلك قيدا على حريتهم المطلقة وقد منع الكثيرون منهم الزكاة

(٣) المنافسة العظيمة بين القبائل المختلفة حتى دفعهم ذلك الى أن يتبعوا بعض الكاذبين من الكهنة والمتنبئين لا لشىء الا لانهم من قبيلتهم

(٤) انشقاق جماعة من الراغبين فى الزعامة لانهم يرون أنفسهم أحق بها.

وقد كان لابى بكر أعظم الفضل فى مقابلة كل هذه الاخطار وردها عن الدولة الاسلامية فان شخصيته المحبوبة أرجعت الكثيرين من طالبى الانقسام الى الوحدة والجماعة عند ما رأوا ذلك الرجل خليفة الرسول

وما كاد انتخابه يتم حتى ظهرت قوة عزيمته التى لا تضعف فشجع

الخائف ودفع المتراخى وكان مثلا حسناً أمام المسلمين حتى انتصروا على مانعى الزكاة وكانوا قد أتوا الى المدينة وهددوها . فكان هذا أول نصر أعلى اسم الدولة الاسلامية وسهل أمامها عملها الباقى

ولما نفس أبو بكر عن المدينة تلك الشدة جهز الجيوش للقضاء على حركات الانفصال فى الجهات البعيدة من بلاد العرب وقد ظهرت قوة ارادته مرة أخرى عند ذلك فقد كان أكثر الصحابة يرون الانتصار على العرب مستحيلا بعد وفاة الرسول الا أبا بكر فقد ثبت قائلا « لو منعونى عقالا مما كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه أو أهلك دونه » فلم يكن للصحابة بد أمام هذه الصلابة الا الاذعان وكانت النتيجة انتصارا عظيما على يد قواده الكبار أمثال خالد بن الوليد فما كاد يمضى العام حتى كانت بلاد العرب مرة أخرى دولة موحدة تحت خلافة أبى بكر

وقد أسرع أبو بكر بتجهيز الجيوش لاتمام عمل سيدنا الرسول من نشر الدين فى العالم فبدأ بتجهيز حملة صغيرة بقيادة أسامة بن زيد الذى كان الرسول عازما على ارساله فى حملة الى الشام قبل وفاته وقد أفادت هذه الحملة من وجوه عدة لانها ذكرت الناس بأيام الرسول ، وأظهرت للعرب أن الامور سائرة على على سنتها الاولى وان على العرب جميعا واجباً عظيماً وهو السير حيث أشار النبى ولانها فوق ذلك أظهرت للمترددين من العرب أن الحكومة المركزية بها قوة عظيمة وأن الخير لهم فى الانضواء تحت لوائها ، وثالثا لانها جعلت العرب يتنبهون الى أن هناك ميادين عظيمة يستطيعون أن ينصرفوا اليها تحت راية حكومة عربية مركزية بدل أن يجعلوا بأسهم بينهم فى حرب داخلية

وهكذا ما أتت أواخر سنة ٦٣٢ حتى وجد أبو بكر نفسه حراً من جميع المشاغل الداخلية فجهز جيشين فى وقت واحد ليصدم بهما الدولتين العظيمتين المجاورتين معاً وهما فارس والروم . وهو عمل هائل فان أبا بكر لم يقدم على شىء أقل من محاربة جميع العالم المتمدين فى وقت واحد

## حرب فارس

أرسلت البعثة الاولى بقيادة خالد بن الوليد الى تخوم فارس فى اواخر سنة ٦٣٢ وبهذا يمكن أن يقال أن فتح بلاد فارس أول عمل خارجى جدى قام به العرب وخالد غنى عن أن يعرف فهو البطل الذى أطلق سيدنا الرسول عليه ( سيف الله ) وهو بطل الحروب الداخلية بعد وفاة الرسول . وكان اسمه يحبب العرب فى الغزو تحت لوائه وقد نجح نجاحا عظيما اذ استولى فى زمن قصير على جميع أرض السواد بمدنها الكبرى الحيرة والانبار وأخضع جميع القبائل العربية الضاربة على حدود أراضى الفرات ثم تعدى إلى مابين نهرى دجلة والفرات ، وجعل يوغل فيها منتصرا حيث سار الى أن استدعاه أبو بكر لنصرة العرب فى ميدان الشام على أن يكون هو القائد الأعلى هناك

فلما ترك خالد جيوش العرب فى فارس لم يكن ذلك بغير أثر عظيم فاسترجع الفرس ما استولى عليه العرب تدريجا بين النهرين وقتل جماعة من أشجع القواد الذى بقوا مع الجيش هناك مثل المثنى بن حارثة وهكذا تراجع تيار الفتح تدريجا الى أيام عمر كما سيأتى

والسبب فى ذلك واضح ظاهر وهو أن محاولة العرب الاصطدام بدولتين عظيمتين فى وقت واحد ، وان كان له أثر أدبى كبير فى نفوس العرب فى الداخل لم يكن من السهل على دولة فتية ناشئة ليس لها العدد القوية ولا التجربة فى الحروب المنظمة مع دول ذات مدن مسورة وحصون

## حرب الشام

فى أوائل سنة ٦٣٣ ارسل أبو بكر البعثة الثانية الى بلاد الشام وكانت تلك البعثة جيوشا متفرقة تحارب متساندة أي أن كلا منها يحارب وحده ويساعد الاقسام الاخرى اذا ما احتاجت اليه . وكان اكبر القواد أبو عبيدة عامر بن الجراح الصحابى الشهير الذى شهد المواقع كلها مع الرسول ويسمى

( ساقط الثنيتين ) تكريما لأنه سقطت ثنيتاه فى موقعة أحد وهو يخرج حلقات المغفر من وجه الرسول اذ دخلت فى وجهه الكريم عند ما أصيب فى تلك الموقعة . وكان أبو عبيدة شجاعا فاضلا ولكنه لم يكن بالقائد العام المسيطر الماهر . ولهذا لم تلق جيوش العرب بالشام من النجاح مالاقته جيوشهم فى فارس . وهناك خلط كبير فى وصف خط سير العرب فى ذلك الفتح ولكنا نتبع أمثل الاقوال واليقها بأن يكون الواقع بحسب طبيعة الجيوش العربية

فضل العرب أن يسيروا من الشرق فى الجهة الشبه الصحراوية متحاشين فلسطين ذات المدائن والحصون الكثيرة التى يشق فيها السير وتكثر المفاجآت . وهناك من جهة الشرق يوجد مدخل الى بلاد الشام وهو الفرجة التى بين وادى الاردن جنوباً ووادى العاصى شمالا وفى تلك الفرجة توجد مدينة دمشق وهى المحطة الطبيعية لمداخل الشام من الشرق كما أنها أكبر مدن ذلك القطر . وبالطبع لا يمكن أن تبقى الجيوش الرومانية ساكنة فتحركت حتى صارت عند ذلك المدخل تمنعه فالتقى بهم العرب عند نهر اليرموك أو ( وادى الواقوصة ) وهو واد من الوديان العميقة التى تصب فى نهر الاردن الاعلى وهناك أتى للعرب امداد كبير اذ كان خالد قد أمر بالذهاب للشام لمساعدة جيشها وقد قطع خالد المفازة بين فارس والشام بمهارة لا يمكن أن تبارى حتى وصل الى الشام واشترك فى موقعة اليرموك وكانت انتصاراً باهراً للعرب سنة ٦٣٤ ولم يبق بعد ذلك مانع من الانقضاض على دمشق . فحوصرت قليلا ثم سلمت — وفى أثناء حصار دمشق جاءت الاخبار بوفاة الصديق وتولية عمر ونزع خالد من الرياسة وتولية أبى عبيدة مكانه اذ كان عمر يأخذ على خالد بعض أمور ولعله كان يخشى على وحدة الدولة العربية أن يفتتن الناس به

## عمر بن الخطاب

اذا كان الاسلام قد أظهر أبا بكر مثلا عاليا للحاكم الثابت الرحيم فانه كذلك قد أظهر عمر مثالا عاليا للحاكم القوى العادل ويطلق عليه فى التاريخ لقب الفاروق (أى الذى يفرق بين الحق والباطل)

وكان انتخابه بطريقة جديدة غير طريقة انتخاب أبى بكر ، وذلك أن أبا بكر رشحه للخلافة قبل موته ووافق المسلمون على اختيار الصديق له اجلالا منهم لحكمة ذلك الخليفة العظيم على انهم كانوا يرون فى عمر صفات عظيمة جعلتهم يسارعون الى الموافقة على اختياره وفى هذا دليل على أن العرب انما كانوا يجربون تجارب جديدة بين حين وآخر فى نظام حكمهم لعلهم يوفقون الى نظام حسن لدولتهم الجديدة . لم تكن الظروف عند انتخاب عمر مثل الظروف التى قابلت أبابكر ، فقد ترك الصديق دولة راسية الأساس منتصرة على اكبر دول الارض وترك العرب أمة متحمسة مقبلة على عهدها الجديد بقوة لم يشهد التاريخ مثلها . فما كان على عمر الا أن يقود تلك الامة بحكمة وأمانة حتى تصل بقوة اندفاعها العظيم الى غايتها المحتومة

## اتمام حرب الشام

حوصرت دمشق مدة قصيرة ، ثم سلمت بعد أن دخلها خالد بالقوة من جانب منها . واستمر النصر بعد فتح دمشق مواليا للعرب وقد هبطوا بعد دخول الشام الى الاراضى ذات المدائن والاسوار وكان جيش الروم قد ضرب ضربتين قويتين فى اليرموك وحصار دمشق ولهذا سهل على العرب الايغال فى البلاد وكانت أكبر المواقع بعد ذلك موقعة (اجنادين) سنة ٦٣٦ وهي الموقعة الكبرى الثانية التى انتصر فيها العرب بعد اليرموك وقد خلت بعدها بلاد الشام من وجود جيش رومانى يخشى بأسه فقسمت

الجيوش العربية الى أقسام ثلاثة قسم للاستيلاء على فلسطين وقسم للاستيلاء على السواحل وقسم للاستيلاء على الاقاليم الشمالية . ويمكن أن يقال أن فتح الشام تم بالاستيلاء على العاصمة الثانية وهى بيت المقدس سنة ٦٣٧

ومما يستحق الذكر أن بطريقها أبى أن يسلمها الا الى الخليفة عمر فجاء هذا من المدينة ببساطة مظهره البدوى وتسلمها وأظهر عند استلامها من الاعتدال والحكمة السياسية والعدل ما لا يذكر مثله لاكبر ملوك الدول المتمدينة .

ولقد حاول الرومان أن يسترجعوا ذلك القطر بالهجوم من البحر أومن آسيا الصغرى ولكن ما كانت أمة فتية كالعرب لتطرد من قطر كالشام على يد مرتزقة الرومان فالحق أن الشعوب دول وكانت دولة الرومان مندفعة فى تيار الجزر

الاستمرار فى حرب فارس

رأى عمر ما آل اليه أمر ميدان الفرس من الضعف منذ سنة ٦٣٣ — وقد كان مشغولا عنه بالنضال مع الشام حتى تحطم الجيش الرومانى فى اجنادين سنة ٦٣٦ . وعند ذلك استطاع عمر أن يوجه كثيراً من قوات العرب الى دولة الاكاسرة . وقد اختار رجلا من أكبر أبطال الاسلام لقيادة جيوش فارس وهو سعد بن أبى وقاص وقد كان من أجل الصحابة الذى شهدوا المشاهد مع سيدنا الرسول وقام معه مقاماً محموداً فى موقعة أحد . وكان أول نصر عظيم تحت قيادته انتصار القادسية سنة ٦٣٦ وهى الموقعة الكبرى التى واجهت فارس فيها جيوش العرب بأكبر استعداد من عدد وسلاح ودواب . واستمرت الموقعة ثائرة ثلاثة أيام انتصر بعدها العرب وقتل قائد الفرس ( رستم )

وقد استولى العرب بعد نصر القادسية على جميع الضفة الغربية لنهر

الفرات وأسسوا مدينـة البصرة لتكون قابضـة على التجارة وتجعل مفتاح البحر فى يد العرب ثم جعل سعد يستعد للاستيلاء على ما بين الفرات ودجلة مسرعا ليستفيد بنصره العظيم فى القادسية . وكان اسم العرب يسبق الجيوش فيوقع الرعب فى قلوب الملك ( يزدجرد ) وقواده حتى انهم هجروا العاصمة ( المدائن ) قبل ان يحصرها العرب وتقدم العرب تدريجا الى المدائن وكانت مدينتين احداها على الضفة الغربية لدجـلة والأخرى على الضفة الشرقية لاتساع تلك العاصمة فاستولى العرب على الغربية أولا ثم عبروا دجلة بخيولهم واستولوا على المدينة الشرقية وحصلوا منهما على غنائم لم يسبق مثلها للعرب ولا غرابة فقد استولوا على قلب الدولة القديمة التى ظلت قرونا طويلة سيدة الشرق ومركز مدنيته

وقد حاول ( يزدجرد ) أن يسترد ما كان فجمع جموعا عظيمة عند جلولاء فى شرق المدائن . وهناك وقعت الواقعة الثانية الـكبرى وانتصر فيها المسلمون مرة أخرى انتصارا باهرا سنة ٦٣٨

وكانت هزيمة الفرس ضربة قوية عليهـم حتى انهم أبعدوا مقرهم فى الجبال الشرقية وهناك لم نسمع بمجهود جديد لهم قبل مضى أربع سنوات أخرى .

وعند موقعة جلولاء ينتهى الدور الثانى من الحرب على ان أصبح العرب سادة جميع الجزء الخصب من بلاد فارس الى حدود الاقليم الجبلى الشرقى ومن هناك جعلوا يرسلون البعوث الى الاقليم الشرقى ويفتحون مدنه

## أثر الانتصارات فى عمر

أدرك عمر بفطرته السليمة ان هذه الانتصارات قد أمطرت العرب بالغنائم ذات القيمة العظيمة وكان عمر يقسم كل شئ بين المسلمين بحسب أسهمهم . وقد رأى ان تلك الثروة فيها خطر شـديد على نفوس العرب

معتقداً ان السر الذى جعلهم ينتصرون على كل الأمم هو انصرافهم عن الدنيا ومادتها واحتقارهم لحياتها . فكان يتألم كلما رأى الغنائم تنصب الى قومه من الدول الغنية المقهورة ولكن ذلك التيار كان لابد منه وما كان عمر يستطيع رده الا بأن يبطل الحروب وذلك أمر من أشق الأمور وأصعبها عليه فقد اندفعت الدولة فى سبيلها ولم يكن فى طاقة عمر ان يمنع ذلك التيار الجارف ، فكان يذرف الدمع خشية من أثر الغنى فى قومه ولكنه مع ذلك لم يستطع تغيير شيء الا انه كان يمانع في فتح ميادين جديدة للحرب أشد ممانعة ومن أمثلة ذلك ممانعته فى فتح مصر مع شدة الحاح عمرو بن العاص عليه فى ذلك

واكتفى عمر بأن يقلل شر الغنى بقدر استطاعته بأن يمنع العرب من امتلاك الأرض والاشتغال بالفلاحة فى البلاد التى فتحوها واستمرت هذه الممانعة مدة طويلة حتى ابيح شراء الارض والعمل فى الفلاحة فيما بعد أيام عمر .

## سياسة عمر أمام الظروف الجديدة

لقد كان عمر بدويا لا عهد له بالحكومات المنظمة ولكنه رأى الدولة اتسعت فى أيامه اتساعا عظيما فجعل يلتمس الوسائل تنظيم حكمها وكانت المسألة أمامه ذات وجهين الاول نظام حكومة المركز والثانى نظام حكومة الأقاليم

أما نظام حكومة المركز فقد عمل على ان يجعل كل الولاة خاضعين لارادة الحكومة المركزية فى كل ما يتعلق بالسياسة العامة وادارة الحروب والفتوح ولكنه ترك لهم الحرية المطلقة فى السير فى حكومة الاقاليم بحسب ما كانت سائرة عليه قبل الفتح الاسلامى ، وكان يختار للحكم من يرى فيهم النباهة وسعة العقل امثال معاوية بن أبى سفيان

وكان لا يقطع أمراً فى حكومته بغير مشاورة اكابر الصحابة ويسير فى أكثر الامور فيما يشيرون به ولكنه أبقى كل أمور الحكومة المركزية على بساطتها الأولى فلم يجعل فيها أنظمة لمكاتبة الاقاليم ولالجمع الضرائب منها ولم يجعل فى المدينة (عاصمة الدولة الكبرى) نظاما جديدا غير تدوين أسماء المحاربين وبيان عطاء كل منهم فى دواوين خاصة يقصد بذلك أن يقيم جيشا منظما وأن يجعل العرب منصرفين عن كل الاعمال الا أعمال الجندية .

وأما نظام الحكومات فى الاقاليم فان عمر وان لم يختط نظما جديدة فى المركز كان له من سعة العقل ماجعله يتبع فى حكم الاقاليم الوسائل التى كانت متبعة فيها من عصور وغاية ما جدد هو انه جعل فى كل قطر عاصمة عربية ليبعد العرب فيها عن الاختلاط بالشعوب المغلوبة ولينزههم عن مفاسد المدنيات المنحلة وليجعلهم وحدهم فى وسط اسلامى حربى يبقى عليهم خلقتهم الأولى ، فجعل فى فارس عاصمة البصرة ثم اتخذ سواها الكوفة لانها خير منها موقعاً وهواء وجعل فى دمشق محلة اسلامية لانعزالها بقرب الصحراء ، وكان دائما يختار العواصم فى جانب الصحراء حتى لاتفصله المياه عن جزيرة العرب .

وكان عمر لايحب ترك القديم علما منه أن تقليد أهل فارس أو الرومان يدخل الى العرب ما اضعف الفرس والروم فكان شديد الوطأة على كل من يخرج عن بساطة العرب الاولى كما فعل مع معاوية وسواه من الحكام ولكنه كان يحاول شيئا غير ممكن فأن اختلاط العرب بسواهم كان لامفر منه بعد تلك الفتوح وكان محتوما أن يدخلوا الى الشعوب المقهورة دماءهم ولغتهم ودينهم وكان كذلك محتوما ان يأخذوا من الشعوب المغلوبة فنونها وصناعاتها ومدنيتها من جميع وجوهها

فتح مصر : فى سنة ٦٣٨ كانت الفتوح قد تمت فى الشام واستقر الامر تقريبا هناك وكذلك كان العرب قد استولوا على جميع اراضى النهرين

الى حدود هضبة ايران وبعد الملك الفارسى الى الشرق لا يكاد يقدر على مهاجمة العرب وعلى ذلك يمكن أن يقال أن عمر وجد نفسه خالى اليدين من الاعمال الحربية منذ ذلك العام وقد كان ميالا الى عدم التوسع فى الفتوح خوفا من الروح العربية أن يفسدها التوسع السريع وما ينشأ عنه من التغير الفجائى فى طريقة الحياة

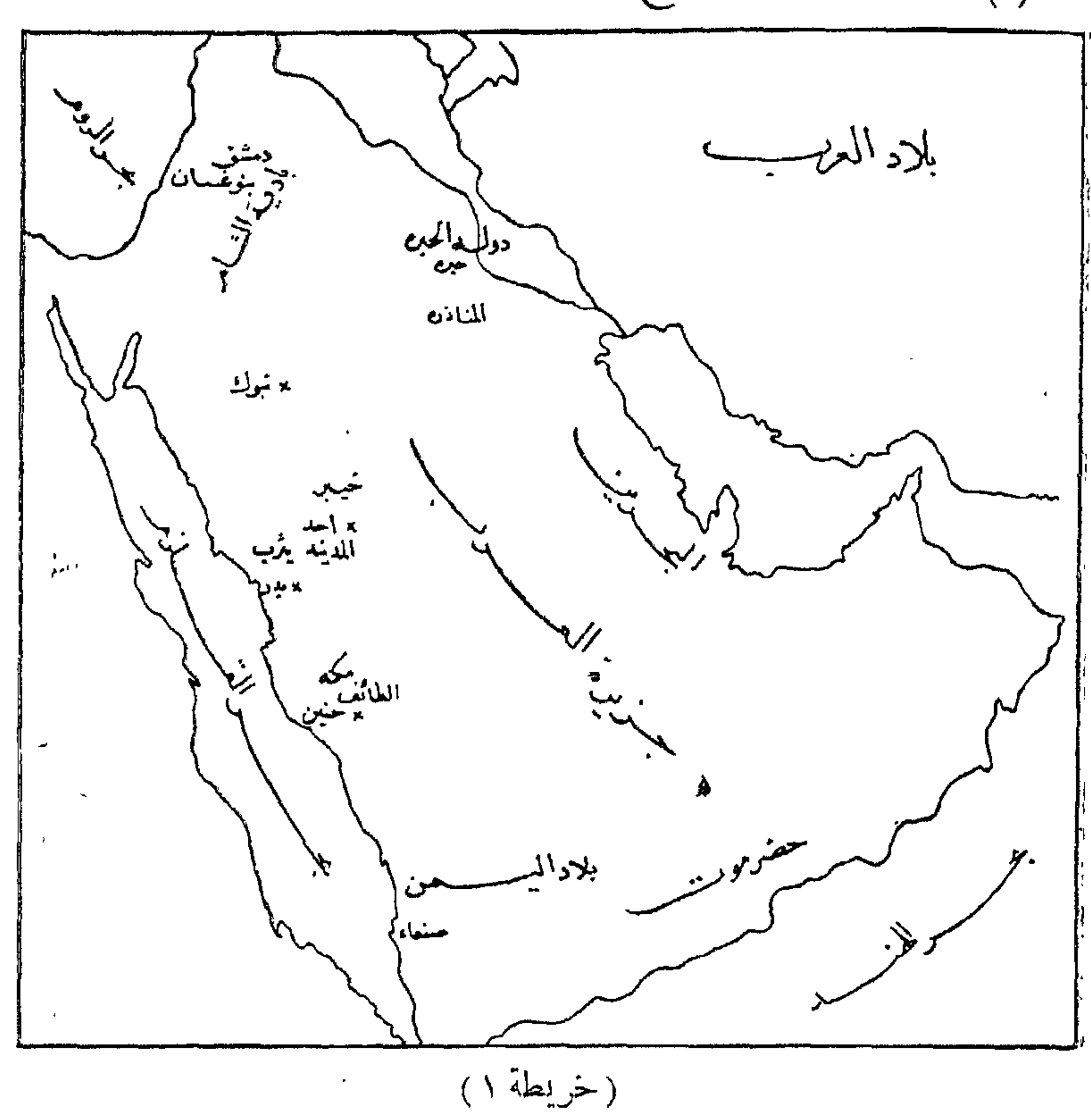
ولكن عمرو بن العاص كان يطمع فى الاستيلاء على مصر فجعل يقنع عمر بضرورة فتحها وفائدة ذلك للدولة العربية ولكن عمر كان شديداً فى الاباء ولعل حجة واحدة جعلته يتردد فى تشدده أولا ثم يرضى أخيراً بتسيير الجيوش العربية الى ميدان مصر ويستأنف فتحا جديدا وتلك الحجة هى أن مصر كانت لازمة لسلامة الشام وأن الرومان ماداموا فى مصر يستطيعون أن يهددوا العرب فى الشام بأن يرسلوا الجيوش من مصر عن طريق صحراء العريش الى جنوب الشام فتهدد المواصلة بين العاصمة العربية ( المدينة ) وبين ذلك القطر فى حين أن الجيوش من اسيا الصغرى تهبط من الشمال وتأتى الاساطيل الرومانية من البحر فيكون فى ذلك ضغط على العرب من جهات ثلاث. ومصر لاشك قطر غنى وما دام فى يد الرومان أمكنهم أن يستعينوا بثروته على غزو العرب كما أن الروم فى مصر يستطيعون أن يهددوا سواحل بلاد العرب ذاتها ، وقد جعل عمرو بن العاص يصف لعمر سهولة فتح مصر وأن المصلحة فى أن يؤخذ الرومانيون فيها على غرة بعد صدمتهم الشديدة فى الشام قبل أن يمر زمن كاف لاستعادة قواهم وتنظيم جيوشهم وأحوالهم وهكذا نجد عمر يرضى بسير عمرو بن العاص الى مصر فى أواخر سنة ٦٣٩ ومعه نحو اربعة آلاف رجل

ويمكن تقسيم حرب العرب فى مصر الى أدوار ثلاثة :

(١) الدور الاول الى مجىء المدد

(٢) الدور الثانى إلى موقعة عين شمس ، وأخذ حصن بابليون

(٣) الدور الثالث الى فتح الاسكندرية




(خريطة ١)

## الدور الأول

سار عمرو مع جيشه الصغير العدد الكبير القوة نحو مصر وكان الخليفة متردداً لآخر لحظة حتى أن عمرو عند ما قرب من حدود مصر علم أن رسولا من الخليفه لاحق بالجيش فأسرع حتى يدركه الرسول بعد دخول الحدود علماً منه أن الخليفة أحكم وأعقل من أن يأمره بالرجوع اذا هو دخل تلك البلاد وحدث ما توقعه عمرو فان الرسول أدركه بعد دخول مصر ومعه كتاب يأمره فيه عمر بالرجوع عن الغزو اذا كان لايزال خارج الحدود ، اما اذا

هو دخلها فليسر على بركة الله . رهكذا عمل عمرو على ادخال العرب فى مصر بكل ما استطاع من حجة وحيلة . وبدأ سيره فى أواخر سنة ٦٣٩

ولم يجد عمرو مشقة فى فتح القرى الصغيرة فى شبه جزيرة سينا حتى الفرما ( بلوز ) وبعد ذلك دخل وادى النيل

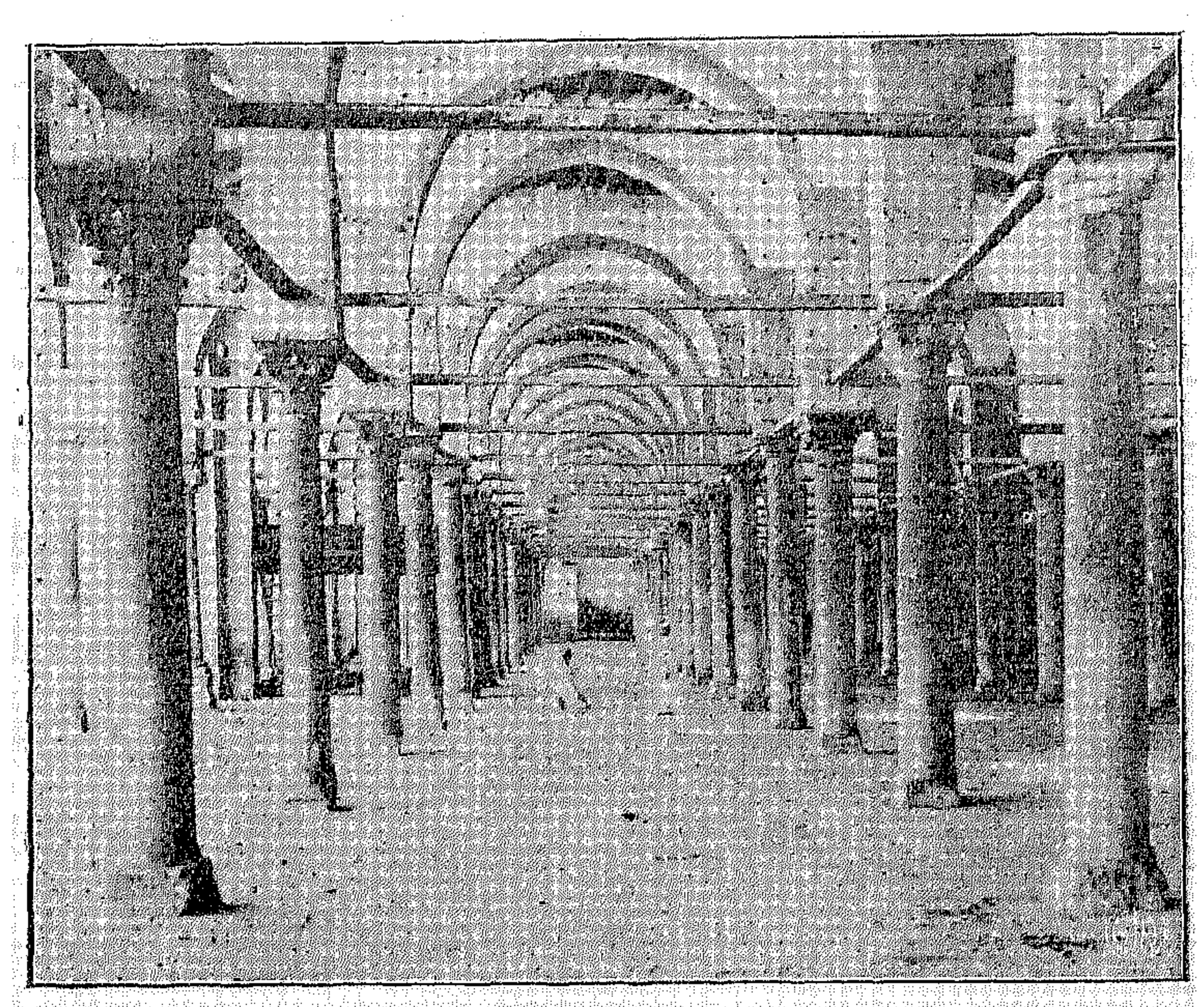
ومن حسن حظ العرب أن الرومانيين ما كانوا يتوقعون مجىء العرب الى مصر بهذه السرعة بعد الفراغ من الشام ولهذا لم يكونوا مستعدين بل كانت جيوشهم القليلة بمصر موزعة على القرى والجهات المختلفة ، وكان حكم الرومانيين بمصر شديدا كما قدمنا وكانت كثرة الحروب التى خاضتها الدولة الرومانية سبباً فى ملل الشعب المصرى واحتقاره للحكومة وميله للتخلص من الاحمال الثقيلة التى القيت على كاهله بكل وسيلة ، كما أن اختلاف المذهب الدينى بين المصريين والرومانيين واضطهاد الحكام لرؤساء الدين فى مصر كل ذلك جعل المصريين يميلون للتخلص من حكامهم بأى ثمن ولهذا وجد العرب من الحكام المصريين أمثال المقوقس وهو مدير القسم الشرقى من مصر مساعدة عظمى فى تسهيل الفتح فكانت الحرب فى مصر كما كانت فى الشام بين العرب والجيوش الرومانية فقط وأما الشعب فكان على الاقل محايداً إن لم تقل أنه كان يقدم للعرب مساعدات عظمى . فلهذا لم يصعب على عمرو أن يصل بجيوشه الى النيل عند مدينة ( مصر ) كما يسمونها وهى العاصمة

وقد أدرك عمرو أن مصر ليست من الصغر بحيث يستطيع فتحها بعدده القليل فأرسل يطلب المدد من عمرو فى أثناء طلب المدد عبر النيل الى الضفة الغربية وشغل جنوده فى احراز انتصارات موضعية أعلت من حماستهم وحصلوا منها على كثير من الغنائم والمؤن . ولما جاء المدد عاد عمرو لمقابلته فعبر النيل ثانيا وتلاقت القوتان العربيتان وكل ذلك والرومانيون لم يتم تجمعهم لمعاكسة عمرو معاكسة جدية مع أنه جازف مرتين بعبور النيل مرة الى الغرب ومرة راجعا الى الشرق

الدور الثانى :

جاء المدد وكان نحو ثمانية آلاف رجل ومعهم جماعة من مشهورى الابطال أمثال الزبير بن العوام وكان الرومانيون فى تلك الأثناء تمكنوا من جمع أول جيش كبير فى ميدان مفتوح وهناك حدث الاصطدام بين الجيشين بجوار مدينة ( عين شمس ) سنة ٦٤٠ وأحرز العرب نصرا عظيما يمكن أن تعده فاصلا . فان الرومانيين لم يجهزوا بعد ذلك جيشا كبيرا فى ميدان مفتوح آخر

وكان لموقعة عين شمس اثر عظيم فان العرب استولوا بعدها على مصر الوسطى وجعلوا يبعثون البعوث للاستيلاء على مدن الوجه البحرى والقبلى وحاصروا الحصن العظيم الذى دخلت اليه بقايا الجيش الرومانى وهو حصن ( بابليون ) وما زالوا محاصرين له حتى سلم فى نفس السنة سنة ٦٤٠



( شكل ٣ — جامع عمرو « جامع الفتح » )

الدور الثالث . فى أثناء حصار حصن بابليون كان العرب قد استولوا على مدن الوجهين القبلى والبحرى ولم يبق من المراكز الهامة الا العاصمة

الكبرى الاسكندرية وتوجه العرب اليها بعد الاستيلاء على حصن بابليون وكان حصار الاسكندرية من أشق الاعمال على العرب لاتصالها بالبحر وكان الرومانيون غير مدافعين الى ذلك الوقت فى سيادة البحر . ولكن العرب استولوا عليها فى سنة ٦٤١ . وبذلك تم لهم تملك مصر في أقل من سنتين . غير أن الرومانيين حاولوا استعادة الاسكندرية مراراً بعد ذلك ونجحوا نجاحاً موقتاً حتى أيسوا أخيرا منها بعد محاولتهم الأخيرة فى خلافة سيدنا عثمان سنة ٦٤٦ .

اكمال فتح فارس : كان من حسن حظ العرب أن الفرس لم يتحركوا ضدهم في هذه السنوات الاربع منذ سنة ٦٣٨ الى سنة ٦٤٢ فانهم لو تحركوا فى هذه الفترة لكان وقع حركتهم على العرب شديداً لانشغالهم فى فتح مصر . ولكن انتهى فتح مصر قبل أن يتمكن الفرس من جمع شملهم واعادة الكرة على غزاتهم ليستردوا منهم استقلالهم . فلم يجمعوا جيشاً جديدا بعد انهزامهم فى جلولاء الا سنة ٦٤٢ ووقفوا للعرب عند نهاوند وكانت هناك موقعة عظيمة تفوق المواقع السابقة وقد انتصر فيها العرب مرة أخرى بقيادة القائد الجديد الذى حل محل سعد بن أبى وقاص وهو النعمان بن مقرن الذى كان خير مثال للشجاعة والثبات فى جيش العرب وقد قتل فى أثناء الموقعة بعد حملة حملها بنفسه كان لها الأثر الاكبر فى الانتصار . وكانت وقعة نهاوند آخر اجتماع عظيم للفرس ولذلك تسمى فتح الفتوح وهرب الملك ( يزدجرد ) وظل يتنقل طريدا مدة الى أن قتل فى مدة سيدنا عثمان سنة ٦٥٢ . وبعد نهاوند اندفع تيار الفتح فى فارس لا يوقفه شيء حتى بلغ قلب آسيا فيما بعد .

عثمان ابن عفان : قتل الفاروق على يد أحد الموالى من الفرس وهو أبو لؤلؤة . وقتله يدل على المشكلة التى بدأ العرب يقابلونها فان الحكومة

البسيطة التى بقى العرب عليها الى ذلك الوقت لم تكن متلائمة مع الفتوح الكثيرة والغنى والاتساع الذى صارت اليه الدولة العربية واذا كانت بساطة عمر تأخذ بالنفس اعجاباً فان بساطة النظام تجعل المفكر يرى عدم ملاءمته للظروف الجديدة .

ولما أحس عمر بأنه موف على الآخرة ابتدع طريقة ثالثة فى اختيار الخليفة وهى مخالفة للطريقتين الاوليين وفيها يظهر نوع جديد من اجتهاد العرب في الابتكار لعلهم يصلون الى نظام صالح لدولتهم . والطريقة الجديدة هي انه اختار ستة من أفاضل الصحابة وجعلهم أصحاب الشورى بأن يختاروا أحدهم ليكون خليفة وأمر ألا يطول بهم الزمن أكثر من ثلاثة أيام خوفا على الدولة من أن تبقى طويلا بلا خليفة يمسك زمامها في مثل هذا الوقت الحرج وقد استقر الرأى أخيرا بعد تردد طويل على اختيار عثمان بن عفان وهو من جلة الصحابة ذوى السابقة والشرف في الاسلام ولو أنه لم يكن من رجال الحرب المشهورين في خوض دمائها .

ولعل الاختيار بهذه الطريقة التى رآها عمر كانت ذات أثر في حوادث الشقاق التى حدثت فيما بعد لاسيما وقد كانت من عثمان أعمال عدها الناس غلطات وجعلوا يلومونه عليها كما سيأتى فكان كل واحد على قيد الحياة من أصحاب الشورى يرى نفسه جديرا بأن يكون في محل عثمان ليصلح الامور بدله . وكان لكل منهم حزب ينصره لعلو مكانته بين العرب فكان هذا أول وجود الأحزاب وتفرق الكلمة والحرب الداخلية .

ما أخذه الناس على عثمان : جاء عثمان في وقت كانت الفتوح فيه قد اتسعت وأصبحت الدولة فسيحة الارجاء وافرة الثروة وفرغ العرب من المشاغل الحربية وجعلوا ينظرون الى ما يعمله الخليفة من الاعمال الدقيقة فى سبيل حكم تلك البلاد المتسعة . فكان الامر يتطلب مجهوداً عظيماً وعلماً

كبيراً بأساليب الادارة . وهذا ما لم يكن لعثمان

لم يسر عثمان سيرة أبى بكر وعمر في الأمور العامة وهذا ناشيء من الفرق بين طبائع بعض الناس وبعض فكان لايتحرج من تولية أهله والمتقربين اليه بدل الجلة من أصحاب الرسول فغضبت لذلك طبقة القادة والزعماء ومنهم بعض أهل الشورى وكان يقطع أهله اقطاعات من الارض دون المسلمين وحابى بعضهم فى الاموال العامة فأثار هذا كره عامة المسلمين . ولم يخل الأمر من أحقاد شخصية كانت تعمل ضده فى الخفاء بعضها ناشيء من كره شخصي وبعضها ناشيء من المنافسة بين القبائل والاسرات وهكذا أحاطت بعثمان تيارات مختلفة متضاربة لم يستطع أن يسير فيها سيراً سهلا ولم تكن له سياسة متناسقة من شدة أو من لين بل كان يتردد بين الاصرار على انفاذ رأيه مرة والرجوع الى رأى أصحابه مرة أخرى وكان أحياناً يظهر من الضعف ما جعل العامة تطمع فيه وعلت الشكوى منه وجعل أصحابه وأهل الشورى منهم خاصة ينصحونه ويتدخلون فى اصلاح الامر اذا أمكن فسبقت الحوادث كل سعيهم وحدثت الثورة المنتظرة .

سبب الثورة المباشر : اذا كانت هذه الحوادث مهدت الى الثورة فان الحادثة التى اشعلت الثورة هى حادثة الكتاب المشهورة فان أهل مصر أتوا يشكون العامل عليهم وهو عبد الله بن ابى سرح وقد نزل عثمان على رأى الناس وعزل ذلك العامل وولى بدله محمد بن أبى بكر وسار محمد فى جماعة الى مصر ثم ما لبثوا أن عادوا ومعهم عبد لعثمان قالوا انهم وجدوه مسرعا فى طريق مصر وراءهم ولما فحصوه وجدوا معه كتابا لابن أبى سرح يأمره بقتل محمد ومن معه وكان الكتاب مختوما بخاتم عثمان

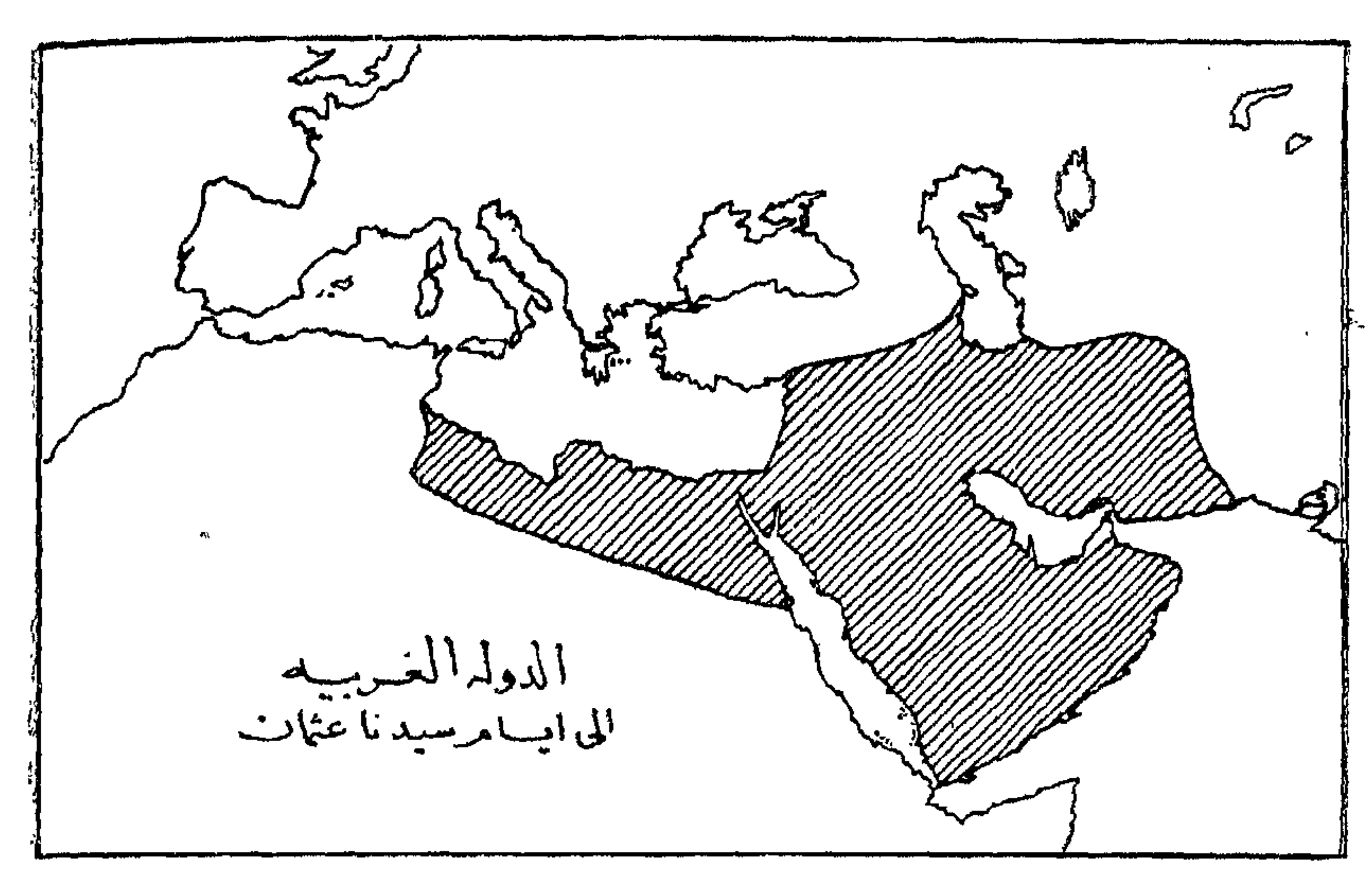
وقد أنكر عثمان كتابة ذلك الكتاب أو العلم به فطلب الجماعة أن يسلمهم كاتبه مروان ليحققوا أمره فأبى لأن من حقه هو أن يحقق الامر ويجازى المسيء – فكانت هذه الحادثة الشرارة التى ألهبت النيران .

الحصار : وما زالت الحركة تشتد حتى حوصر عثمان فى داره ومنع من الخروج ومنع عنه الزاد والماء وكان أكابر الصحابة ينظرون الى تلك الحركة كارهين ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن ينصروه متحمسين ولعلهم كانوا يرون أنه أخطأ وما كانوا يدركون ان الامر سينتهى بالكارثة التى حدثت ولكنهم مع ذلك كانوا يظهرون بين حين وحين عطفهم ورحمتهم كما فعل على إذ بعث له الماء مع ولديه لما علم بانه يطلب الماء وأمرهم أن يمنعوا الناس من الوصول اليه ، وكان الصحابة لما رأوا اشتداد الامر وتفاقم الخطب قد عزموا على نصرته والوقوف بجانبه بالسيف أمام الجماهير ولكن الثوار عندما شعروا بذلك تسوروا عليه الدار ودخلوا عليه وأهانوا حرمته وبعد منظر مؤلم بينهم وبينه قتلوه رحمه الله سنة ٦٥٥

وكان قتل عثمان أول عهد جديد فى الدولة الاسلامية فقد كان حكمه قصارى ما بلغه النظام الابتدائى الذى أقامه العرب ودخلت الدولة بعد ذلك فى اضطراب جديد ينجلى عن نظام جديد اكفل بسلام الدولة ولو أنه كان نظاماً أقل سمواً من النظام الاول كما سيأتى ٠

## الفتوح فى مدة عثمان

لم تكن الفتوح في مدة عمر قد بلغت حدوداً طبيعية من جبال لا يمكن اختراقها أو بحار يعجز العرب عن افتتاحها ولهذا كان لابد من استمرار التيار فى مدة عثمان وقد امتدت الفتوح من جميع النواحى فمن الشرق اوغل العرب فى فارس وبعد قتل ( يزدجرد ) لم تبق مقاومة فى دولة الفرس وما زال العرب الى ان بلغوا حدود الهند والتركستان ومن جهة سوريا أغار معاوية واليها على آسيا الصغرى وجعل يستعد ببناء اسطول ليتم له الاستعداد لغزو دولة الروم براً وبحرا ومن جهة الغرب تقدمت الجيوش من مصر الى برقه ولم يصعب على فرسان العرب ان يهزموا الروم هنالك ويستولوا على ذلك القطر . ففتوح




( خريطة ٢ )

العرب مدة عثمان كانت الاستمرار الطبيعى للفتوح الواسعة فى أيام عمر وأبى بكر

الانقسام بعد قتل عثمان

كان مقتل عثمان مفترق الطرق فى الدولة العربية فقد جرب نوع من الحكم يشبه الجمهورية ولكنه لم يكن نتيجة نمو طبيعى بطىء كفيل بالقيام بحاجة الدولة الواسعة التى صارت للعرب ولهذا حدثت الاضطرابات الكثيرة التى انتهت بالمأساة الكبرى وهى الثورة ضد الخليفة

ولم ينته الأمر بقتله بل وقع اضطراب عظيم فى دولة العرب وكان الاضطراب فى داخل النفوس كما كانت مظاهرة عامة فى كل الأقاليم وكانت المسالة التى يراد الاستقرار عليها هى : ما نوع الحكومة التى يمكن ان تصلح لدولة العرب

لم يوجد عند العرب كما قدمنا نظام حكم شعبى بالمعنى المعروف قديما فى اثينا او فى رومة . ومثل هذا النظام لا يمكن ان يبنى في سنين قلائل ،

بل هو وليد قرون يساير الدولة جيلا بعد جيل وتستقر عليه الأمور تدريجا فلم يكن امام الدولة العربية في تلك الأزمة نظام يحفظ ملكها ويعيد اليها سلامها سريعاً الانظام ملك قوي وهذا ماسينجلي عنه الاضطراب بعد قليل

وكانت هناك أحزاب تتنازع وكل منها يرى أنه أحق بالحكم ويرى مصلحة الدولة فى أن يأخذ أزمتها فى يده ليحكمها على طريقته وهذه الاحزاب هى :

(١) حزب العامة أو حزب شعوب الاقاليم وهم من جنود مصر والعراق الذين اشتركوا فى الثورة .

وقد اختار هذا الحزب عليا للرئاسة وكان يعطف عليهم طائفة كبرى من أكابر الصحابة

(٢) حزب طلحة والزبير أو حزب الاعيان وهؤلاء كانوا يرون أن الثوار أجرموا بقتل الخليفة وأن عليا أخطأ بأن لبى دعاء العامة والثوار ورضى بأن يكون خليفة

(٣) حزب أمية وهم أسرة الخليفة الشهيد وهؤلاء يريدون الانتقام وكان زعيمهم معاوية يضمر تحت المطالبة بالثار رغبة قوية ليسترجع مجد أسرته (بنى أمية) التى نزع الاسلام منها الرئاسة .

وكان المتوقع أن يحدث النضال بين هذه الأحزاب

النضال الاول

صار على خليفة باختيار العامة وقد بايعه الأعيان مثل طلحة والزبير ولكنهم بايعوه خوفا من ان يؤذيهم الشعب اذا هم امتنعوا عن بيعته وقد أبى بعضهم أن يبايع ولكنه وعد وعداً صادقاً ألا يتداخل فى الأمر ضده فكان هذا احتيالا منهم للخروج من الخلاف

ولكن ما كاد على يبدأ حكمه حتى رأى حزب طلحة والزبير يستعد لمقاومته فى العراق وقد ساعدتهم السيدة عائشة أم المؤمنين بنفوذها الادبى

فكان لانضمامها أثر كبير فى زيادة عدد المقاومين لعلى ولكن رئيس الأمويين ( معاوية ) بقى على الحياد فى أثناء هذا سياسة منه فقد كان عازما على أن ينشق على أى الطائفتين تنتصر . وقد حدثت حرب قصيرة بين الطائفتين قتل فيها زعيما الحزب ( طلحة والزبير ) واسرت السيدة عائشة ولكن عليا أكرمها كما ينتظر من مثله والتأم أول انشقاق بعد تلك الموقعة وهي المعروفة بموقعة الجمل نسبة الى الجمل الذى كانت عائشة راكبة عليه فى هودج كأنه علم للجيش .

## النضال بين على ومعاوية

بعد انتصار على فى موقعة الجمل سنة ٦٥٦ لم يكن بد من ظهور معاوية بمظهر المخالف اذ لم يبق له أما ذلك وأما مبايعة على والدخول فى طاعته . فاضطر الى ان يكشف القناع فى عداء صريح فانقسم العالم الاسلامى الى حزبين الأول مع على ويشمل أهل العراق وأهل الحجاز وبعض أهل مصر والثانى مع معاوية ويشمل أهل الشام خاصة وبعض أهل مصر وكان كل من الحزبين يمتاز بصفات فكان على رجلا معروفا بتقواه وسابقته فى الاسلام وزهده فى الدنيا وتواضعه وبساطته مع تشدده فى أمور الدين والدولة فما كان يسمح بأى حال من الأحوال ان يلين أو يداجى أو يؤلف مادام يرى فى ذلك شبهة مخالفة للدين وكان تشدده محموداً عند العامة ولكنه أدى الى غضب كثيرين من أصحابه وأهل بيته الأقربين وكان جنود على فيهم طائفة كبيرة من السابقين فى الاسلام وفى ذلك مافيه من الفائدة الأدبية لحزبه اما معاوية فكان رجل دولة وسياسة ماهراً فى تأليف القلوب ذا شخصية قوية قوة لايكثر مثلها فى رجال الدول حليما يكاد حلمه يكون فوق طاقة الانسان ويجمع الى هذه الصفات دهاء وبعد نظر وعدم تردد فى الوصول الى غرضه بأية وسيلة ولو كانت وسيلة تأباها الأخلاق والدين . وكان جند معاوية معودا الخضوع له راغباً فى خدمته لما ينال منه من الخير الكثير وكان

كل من حوله يجد منه يدا تبذل وتسامحا كبيرا واحتراما .

فكان علي رجل الآخرة ولكن معاوية كان رجل الدنيا .

أحكم معاوية تدبير خططه مع الكتمان في حين كان علي يعلن مايعزم عليه لأصحابه ويستشيرهم . وكان أصحاب معاوية خاضعين له خضوع الجنود للقائد اما أصحاب علي فكانوا يأبون الا أن ينزل على ارادتهم ولم يخل الأمر من كلمات تهديد تلقى اليه من حين لآخر من بعض أتباعه حتى انه ضاق بهم صدرا في آخر الأمر

وبعد مراسلات طويلة حدث الاصطدام الحربي في صفين وهي مدينة على الحدود بين العراق والشام وذلك سنة ٦٥٧ واستمر الاصطدام نحو أربعة أشهر حدث في خلالها عدة مواقع وكان النصر يتم لعلي لولا خدعة معاوية المعروفة وهي رفع المصاحف على الرماح وطلب ابطال الحرب وتحكيم القرآن في الخلاف بين الحزبين

وحدث على أثر ذلك خلاف شديد بين أتباع علي وما كان معاوية يرمى الى أكثر من هذا ومن ان يكسب وقتا يصلح فيه من شأنه ويمنع استمرار الاصطدام الذي رأى انه لاشك منهزم فيه وقد اضطر علي أخيراً لاتباع الأكثرين من أتباعه الذين وافقوا على التحكيم وأمر بابطال الحرب وقد غلب على أمره في اختيار الحكم الذي ينوب عنه فاختار أصحابه أبا موسى الأشعري وهو رجل بسيط العقل ولم يكن من أكثر الناس حبا لعلي واختار معاوية عمرو بن العاص بطل الفتح المصري واتفق الحزبان ان يجتمع الحكمان في قرية بين العراق والشام ويكون حكمها فاصلا .

تمت الخدعة ولم يكن معاوية يقصد مطلقا ان يجعل الأمر تحت رحمة كلمة الحكمين ولكنه وثق من دهاء عمرو وبعد أشهر اجتمع الناس لسماع الحكم فأعلن أبو موسى انه عزل عليا ومعاوية حسب الاتفاق الذي تم بينه وبين عمرو وان المسلمين يختارون من يرضونه بدلهما وأما عمرو فانه قام بعد ذلك

وأنكر وجود اتفاق كهذا وأعلن انه يثبت معاوية فعرف الناس أخيرا انها خدعة وان التحكيم لم يكن من معاوية الا مهزلة يتستر بها للوصول الى أغراضه الحقيقية .

وقد اضر على بذلك التحكيم بمقدار مااستفاد معاوية به وكان أول ضرر أن بعض أتباعه خرجوا عليه لتردده وسماحه بالتحكيم ويسمون بالخوارج حتى انه اضطر لمحاربتهم فى موقعة ( حروراء ) وعندما انتصر عليهم لم تلتئم صفوفه لاضطراب أصحابه وتضارب آرائهم . ولكنه مع ذلك أراد أن يجمع قوة جديدة لكى يحارب بها عدوه الماكر وقبل أن يتم له ذلك اغتاله عبدالرحمن بن ملجم أحد الخوارج اذ اتفق مع اثنين آخرين من اخوانه الخوارج على ان يقتلوا الثلاثة الذين هم سبب تمزيق العالم الاسلامى وهم على ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن لم ينجح إلا عبد الرحمن قاتل على لسهولة الوصول الى ذلك الخليفة الزاهد المتواضع . وكان قتله سنة ٦٦٠

## معاوية بن أبى سفيان

لم يبق أمام معاوية بعد قتل على أحد يخشى بأسه فقد كان الحسن بن على رجلا لينا وكان الحسين صغيراً . وقد حاول أصحاب على أن يحملوا الحسن على استمرار النضال ولكنه أخيراً تنازل لمعاوية ولا ندرى على سبيل التحقيق ماهى الشروط التى قبل بها أن يتنازل عن الخلافة وكان ذلك التنازل سنة ٦٦١ وهو ما يسمى عام الجماعة ومنذ ذلك الوقت صار معاوية خليفة المسلمين بغير منازع

وبعد استقرار الامر لم يكن معاوية غير جدير أن يكون ملك دولة عظيمة فان خلقه وحلمه ودهاءه تؤهله لأن يعد من أكبر الملوك الذين حكموا العالم الاسلامى .

غير أننا لابد أن نلاحظ أن الدولة الاسلامية دخلت منذ ذلك الوقت فى عصر جديد ويحسن بنا أن نبين مميزات ذلك العهد الجديد

الخلافة فى دور جديد

لقد رأينا محاولات متكررة عند تولية كل خليفة ترمى الى ابتكار طريقة الانتخاب وكان كل خليفة يتبع فى حكمه سبيلا يتأثر بشخصيته كل التأثر فكان المنتظر أن هذه المحاولات لابد تسفر فى آخر الامر عن نظام صالح للحكم ولو كانت الدولة العربية دولة صغيرة ونمت نموا تدريجيا لامكن الوصول الى ذلك ولو بعد عهد طويل من التجارب ولكن نمو الدولة كان أسرع ماعرف عن نمو الدول فى التاريخ فكان امام الدولة واجب عظيم وحمل ثقيل وهو المحافظة على تلك الدولة فلم يكن هناك مجال واسع للتجربة وابتكار النظم وتعديلها لأن الاضطراب الذى ينشأ عن ذلك قد يكون فيه خطر شديد على الدولة فكان لابد من أن تصل الدولة سريعا الى نظام ثابت يحفظ فيها الاطمئنان . والحق ان النضال بين على ومعاوية كان من بعض الوجوه نضالا بين الجمهورية الديمقراطية الناشئة التى تريد أن تسير سيرها المضطرب الى أن تستقر أخيرا على أساس ثابت لائق للعرب وبين الحكم العسكرى الشبيه بحكم الدولة الرومانية الامبراطورية المتأخرة أو حكم الدولة الفارسية المنقرضة ولا شك أن نظام الحكم الذى سار العرب فى تكوينه هذه الخطوات الاولى أيام الخلفاء الراشدين كان النظام الطيب الذى يليق بأمة حرة كالعرب ولكن النظام العسكرى الذى أوجده معاوية كان له فائدة واحدة وهى انه حفظ الدولة الاسلامية من الاضطراب الذى كان يهددها من قاعدتها .

اذن معاوية أوجد خلافة جديدة قائمة على القوة ولا تستمد من الشعب قوتها بل من جيش مأجور وهكذا بدأت الدولة الاسلامية تكون كالدول القديمة مكونة من طبقتين طبقة حكام يملكون القوة وطبقة شعب منعزل عن الحكام خاضع لهم مع الكره

غير أن معاوية بشخصيته خفف من حده هذا التغيير الجوهرى . فان لينه وحلمه وتواضعه مع الرؤساء والعامة وحكمته وبعد نظره جعل الناس لايشعرون بالتغيير الكبير الذى طرأ فى الحقيقة على نظام دولتهم

وإذ بدأ معاوية هذه الخطوة كان لابد أن يتبعها بأخرى من تمهيد العرش لبيته فجعل يأخذ البيعة لابنه يزيد من رؤساء القبائل والاعيان ووصل الى غرضه بطريقته التى لاتتردد فى الوسائل الى غايتها .

## الاحزاب السياسية فى أيام معاوية

لم يخل الجو لدولة معاوية كما كان يحب بل كانت هناك سحب ولو أنها لم تكن سحب تهدد بخطر عاجل ، غير أن بعد نظر ذلك الرجل جعله يتبين وجودها ويوجه نظر ابنه وولى عهده اليها وكان أكبر الاحزاب المناوئة للحكومة هى :

(١) حزب على وقد صارت قيادته فى آخر أيام معاوية الى الحسين بعد موت الحسن وهذا الحزب كان له أنصار كثيرون فى العراق والحجاز ومصر

(٢) حزب الزبيريين ورئيس هذا الحزب عبد الله بن الزبير وهو رجل قادر شجاع وكان له أنصار كثيرون فى المدينة والبصرة

(٣) حزب الخوارج وهم بقية الحزب الذى خرج على على بعد التحكيم وكان هناك بقية أكابر الصحابة والتابعين وهم أعيان الدولة وكانوا لايحبون معاوية وبيته ولكن هؤلاء كانوا لايقدمون على إشعال نار الثورة خوفا على دماء الناس فكان معاوية لايعبأ بهم كعادته إذ كان من كياسته أنه يبيح للناس أن يفرجوا عن نفوسهم بالنقد الكلامى مهما كان قارصا ولا يؤاخذ إلا من يخرج عليه بالسيف .

## الفتوح أيام معاوية

بعد أن فرغ معاوية من مداواة الانقسام الداخلى الذى مزقها منذ موت

عثمان وجه قواه الى مواصلة الفتوح ولم يكن ذلك الا استمرارا على الاندفاع مع التيار الطبيعى – تيار الفتح لأمة ناشئة فتية سارت أول الشوط ولابد لها من الاستمرار الى نهايته وغزا معاوية فى جميع النواحى فمد الفتوح الى الشرق الى ما يلى التركستان والسند والى الشمال فيما يلى بلاد أرمنيا وآسيا الصغرى وبنى أسطولا وأرسل جيشا لحصار عاصمة دولة الرومان ذاتها بقيادة سفيان بن عوف وكان في الجيش ابنه يزيد ولكن ذلك الحصار لم يستطع أن يخضع تلك المدينة ذات الاسوار الحصينة فاضطر لرفعه بعد محاولة فتحها ست مرات فى كل صيف مرة وذلك بين سنة ٦٦٨ و ٦٧٤ وقد مات فى ذلك الحصار أبو أيوب الانصارى الذى نزل سيدنا الرسول فى بيته عند الهجرة .

وفى هذه الاثناء كانت الجيوش العربية توغل فى شمال أفريقية بقيادة البطل العربى عقبه بن نافع الذى بنى القيروان بقرب اطلال قرطاجنة

وكانت جميع الجيوش المحاربة فى هذه الميادين من العرب ورؤساؤها كذلك منهم فكانت الدولة لاتزال عربية محضة ، فالدولة الأموية وان أوجدت نظاماً عسكرياً لم تذهب سيادة العرب بل كانت دولة عربية صميمة

## عصور الدولة الأموية

لانستطيع هنا أن نفصل تاريخ الدولة من جميع وجوهه ويكفى أن نلخص عصور الدولة الاموية السياسية

فان بيت معاوية لم يدم بعده طويلا بل يمكن أن يقال أنه انقرض بموت يزيد فالعصر الاول من الدولة الاموية لايتعدى أيام يزيد ( منذ سنة ٦٦٠ الى سنة ٦٨٤ ) وأما العصر الثانى فهو حكم بيت آخر من الأمويين غلبوا على الدولة وهو بيت مروان ( ومدة حكمه من سنة ٦٨٤ — ٧٥٠ )

## الدولة بعد موت معاوية

بموت معاوية ذهب الشخص الذى كان واقفا بين النظام العسكرى

الجديد والشعب العربي الحر الذى نشأ فى البداوة ودرج فى دولة الخلافة نحو تكوين حكومة شعبية جمهورية فأرغم على الخضوع لنظام حكومة فردية عسكرية فلماذهب تأثير معاوية الشخصى الملطف كان لا بد من أحد أمرين اما ان تعود الحكومة الى سبيلها الجمهورى الذى يرضى به الشعب العربى وأما أن يوطأ ذلك الشعب ويخضع بالسيف للحكومة الملكية المطلقة وسنرى أن السبيل الذى سارت فيه الدولة هو الثانى ولكن بعد اضطرابات عنيفة جدا .

وكان اول الاضطراب فى مدة يزيد بن معاوية فان رؤساء الشعب مع أنهم بايعوا له فى مدة حياة أبيه قد بقى منهم أفراد لم يبايعوا أو بايعوا مرغمين وهؤلاء أشعلوا نار الثورة ضده وساعدهم على فكرة الثورة أن يزيد لم يكن محبوباً عند طبقة من طبقات الشعب وكان أول من ثار الحسين بن على ولكنه لم يفلح وقضى على ثورته في أولها وقتل الحسين نفسه قتلة قاسية فى كربلاء وهو قادم فى جماعة قليلة من المدينة ليرفع علم الثورة بالعراق

وقد تحركت النفوس اشفاقاً على الحسين وغضب الاعيان بالحجاز والشعب على العموم عند ما سمع بقساوة أعمال يزيد في معاملته . وقد استفاد عبد الله بن الزبير بذلك الشعور فانه نجح نجاحاً عظيما فى ثورته بالحجاز ومات يزيد قبل أن يقدر على إخضاعه ولم يكن فى بيت معاوية بعد موت يزيد رجل كبير راغب فى الخلافة وبذلك كانت الفرصة سانحة لعبد الله بن الزبير لو انتهزها لصار خليفة وبدأ القواد يفاتحونه فى شأن الذهاب الى الشام ليقاوم دعوة مطالب آخر بالخلافة وهو مروان بن الحكم ولكنه تردد حتى ضاعت الفرصة وقد انقسمت الجنود بالشام الى حزبين أحدهما يريد عبد الله بن الزبير والآخر يريد مروان بن الحكم الاموى وأخيرا انتصر حزب مروان لتقاعد عبد الله بن الزبير عن الاهتمام بالحضور للشام وتم الأمر لمروان بعد موقعة (مرج راهط) وصار خليفة وهو شيخ كبير .

لكنه لم تطل مدة خلافته فمات بعد أقل من عام وصار الامر الى ابنه عبد الملك بن مروان وهو المؤسس الثانى للدولة الاموية

## الدولة الاموية مدة المروانيين

تولى عبد الملك بن مروان ، ونيران الثورة متأججة ، ولم يقتصر الامر على ثورة عبد الله بن الزبير بل أن غيره تشجعوا بنجاحه وبدأوا يجهزون الجيوش لاغراض مختلفة ، وأهم الثوار غير الزبيريين هم :

(١) حزب الشيعة ( أنصار على ) وقد بدأ يتكون ذلك الحزب منذ ذلك الوقت برئاسة أفراد ليسوا من بيت على ولكنهم يدعون الى أن تكون الخلافة لفرد من بيت على . وكان رئيسهم اذ ذاك المختار بن أبى عبيد

(٢) حزب الخوارج وهم ، استمرار الحزب الذى خرج على على بعد التحكيم ، رقد صارت لهم مبادىء محدودة ، ويمكن تسميتهم بالجمهوريين .

ومن ذلك نستطيع أن ندرك حرج موقف عبد الملك ولكن من حسن حظه أن بعض هذه الاحزاب كان معادياً لبعض ويمكن أن يقال أن أشد الخطر على الدولة الاموية كان من قبل حزب أولاد الزبير . وقد نجح عبد الله حتى صارت له الخلافة فى الحجاز والعراق وكثر أنصاره في الجهات الاخرى . ولكن عبد الملك بن مروان كان قرما شجاعاً وكان له أعوان أشداء نضرب لهم مثلا بالحجاج بن يوسف الثقفى ذلك السفاح الجرىء فما زال حتى خلص الدولة من الثوار بعد حروب شغلت معظم مدة حكمه الطويل ( ٦٨٥ — ٧٠٥ )

## سياسة الدولة المروانية ونتائجها

لم تثبت قواعد حكم المروانيين الا بالسيف وذلك بعد نضال طويل سفكت فيه دماء كثيرة من أزكى دماء العرب ولم يخل ذلك من أثر فى اذهاب بعض تلك الروح القوية التى دفعت العرب الى تكوين دولتهم العجيبة

فكان لشدة المروانيين اثران الاول منها سيء وهو اضعاف روح العرب والثاني محمود وهو تمهيد السبيل الى تكوين دولة مطمئنة

ولكن بطبيعة الحال كان لا بد من قيام الدولة بالقوة كما تكونت بالقوة. ومن ذلك الوقت ابتدأ الحكم الذي لايعتد بأرادة الشعب بل يأخذه بالقوة ويخضعه للحكم برغمه وهذه اول خطوة في سبيل ذلك التاريخ الطويل للدولة الاسلامية الذي يمتاز بشدة وطأة الحكومة واستبدادها وعدم الاعتداد بقيمة الافراد وحرياتهم .

واذا كانت هذه نتيجة سيئة فليس هنالك الا عذر واحد يقام لها وهو أن المروانيين ما كانوا يستطيعون أن يخضعوا العرب لاسرتهم وحكمهم الا بالقوة والعنف ، وكانت الدولة لولا ذلك مهددة بعصر طويل من لاضطراب بين الاحزاب حتى تتمخض الحوادث عن نظام جديد آخر ولم يكن ذلك النظام المجهول بمحقق الصلاح

لكن الشعوب الاسلامية لم تكن لتخضع لنظام تلك الدولة بغير أن تتحرك . فلما عجزت عن الثورة علنا دبرت الخطط لقلب الدولة في الخفاء ، وهنالك عاملان ساعدا أكبر مساعدة على انجاح الدعوة الثورية في الخفاء

(١) كره الشعب الاسلامي للنظام المرواني القائم على السيف وانصراف حبهم الى الأسرة التي رأوها في صدر الاضطهاد وهي العائلة الهاشمية (أسرة الرسول ) وكانت الأسباب التي تقرب هذه الأسرة الى قلوب الناس كثيرة ومختلفة وليس أقلها أنهم أهل بيت الرسول

(٢) رغبة الشعوب الاسلامية الغير العربية كالفرس مثلا في أن تجد فرصة لاسترجاع مكانتها الأولى قبل أن يسلبها العرب سلطانها والعودة الى التصرف في أحكام نفسها فساعدت تلك الشعوب الحركة الثورية في الخفاء طمعاً في أن يؤول الأمر الى دولة جديدة تتخذ منها رجالها وتعيد إليها نفوذها .

وكانت نتيجة هذا أن بدأت دعوة سرية في بلاد الفرس بنوع خاص

وكانت تدعو فى أول الأمر الى أن تكون الخلافة ( للامام ) من بيت الرسول ثم آلت الدعوة أخيرا الى بنى العباس الذين أخذوا زعامة الهاشميين فى أوائل القرن الثامن

فتوح الدولة مدة المروانيين

بعد أن استتب الأمر للمروانيين بدأوا يصرفون جهود الشعب العربى مرة أخرى الى الفتح اذ كان لابد لذلك الشعب الناشىء من الحركة بصورة من الصور وكانت الفتوح فى مدة معاوية قد بلغت أكناف التركستان والسند فى الشرق وأرمنية وآسيا الصغرى وجزائر البحر فى الشمال حتى حوصرت القسطنطينية وبلغ الفتح في شمال أفريقيا الى المحيط الاطلنطى . وكان امتداد الفتوح زمن المروانيين فى كل هذه الوجهات . ويمكن أن نلخص عصور الفتح المرواني فى عصرين

(١) عصر الوليد وسليمان ابنى عبد الملك

(٢) عصر هشام بن عبد الملك

(١) عصر الوليد وسليمان

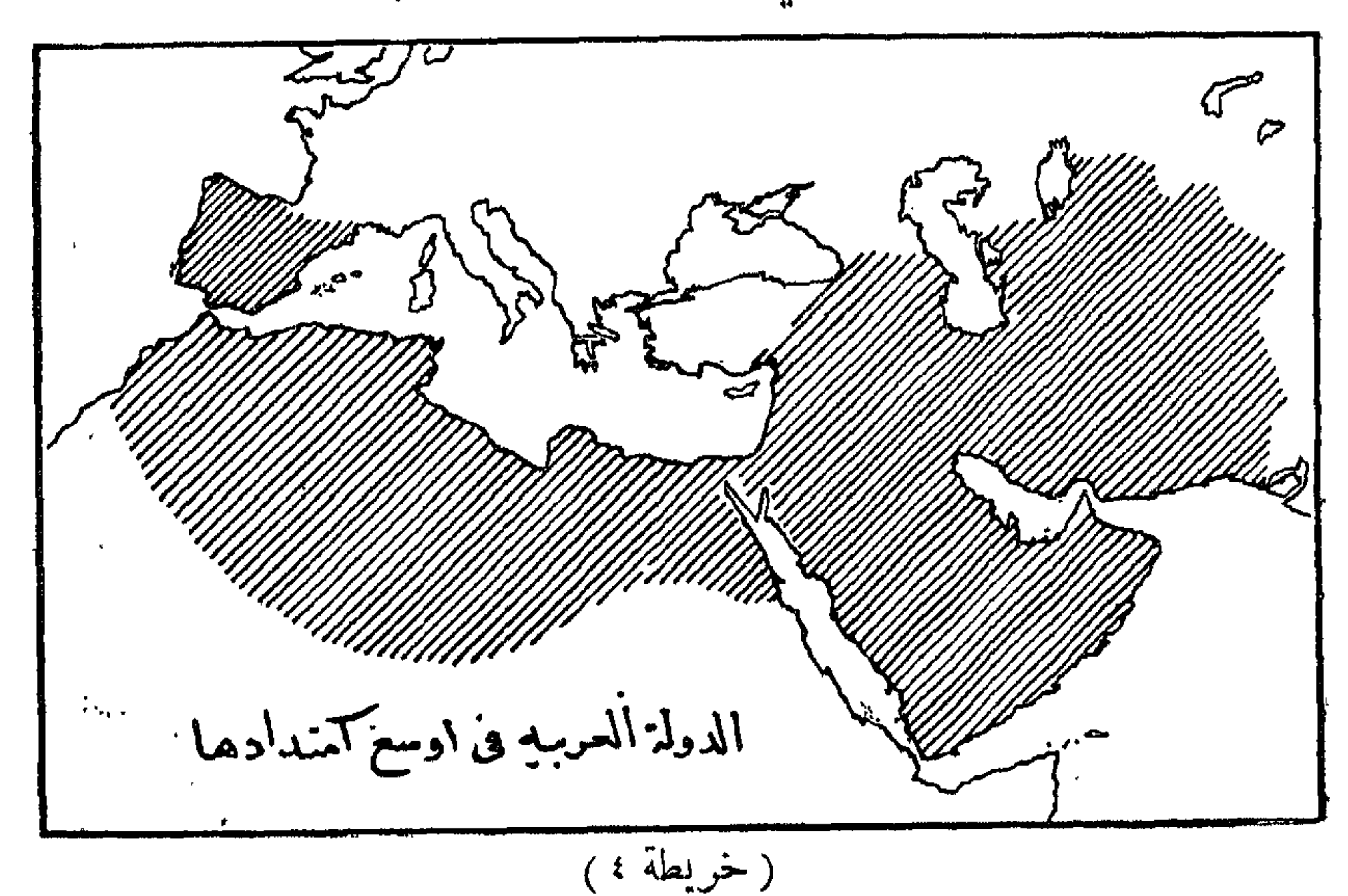
لما صارت الخلافة الى الوليد بعد ابيه عبد الملك بن مروان لم يكن فى الدولة مشاغل داخلية تذكر ، ولهذا كانت وثبة الجيوش العربية قوية فى جميع الانحاء فقواد الشرق مثل قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم والمهلب ابن أبى صفرة جعلوا يوغلون فى انحاء الهند والتركستان الى ما وراء نهرى جيحون وسيحون وموسى بن نصير مع مولاه المشهور طارق بن زياد أوغلا فى الغرب وعبرا المضيق الذى صار الى الآن معروفا باسم طارق وهناك هزمت الجيوش العربية جنود القوط الغربيين وقضوا على دولتهم بعد الانتصار فى موقعة ( شريش ) سنة ٧١١ فى حين أن الاساطيل والجيوش كانت توغل فى أرض الروم حتى وضعت الحصار على قسطنطينية للمرة

الثانية فى تاريخ الاسلام وذلك سنة ٧١٦

ولم ينج قسطنطينية الا استعمال النار الاغريقية التى كانت لا تقاوم ، وكان سرها مغيبا عن العرب اذ ذاك . ومع ذلك فقد استمر الحصار على شدة حتى اضطر القائد أخو الخليفة وهو البطل مسلمه بن عبد الملك أن يرفع الحصار بعد أن استمر اكثر من عام . ولعل سياسة المسالمة التى اتبعها الخليفة عمر ابن عبد العزيز عند توليته سنة ٧١٧ هى التى أسرعت برفع الحصار عن تلك العاصمة الكبرى

(٢) عصر هشام بن عبد الملك

وقف تيار الفتح منذ تولية الخليفة العادل المسالم عمر بن عبد العزيز فقد كان منصرفا الى الاصلاح الداخلى ولو طال له الأجل لكان أحدث كثيراً من التغيير الجوهرى في نظام الدولة . واستمرت الحروب هادئة فى مدة يزيد بن عبد الملك الذى كان منصرفا الى اللهو فلم تتجدد الفتوح الواسعة الا أيام هشام بن عبد الملك وهو آخر عظيم من خلفاء بنى أمية وقد طال حكمه (نحو عشرين عاماً بين سنة ٧٢٤ — ٧٤٤ )




( خريطة ٤ )

وكان اكبر ميدان للفتوح فى أيامه الميدان الغربى مما يلى الاندلس:

بعد انتصار طارق بن زياد سنة ٧١١ على جيوش دولة القوط عند شريش انقسمت الجيوش العربية الى أقسام ثلاثة فقسم منها هبط الاندلس الجنوبية ذات السهول الفسيحة وقسم سار الى قرطبة في الشمال الغربى من المضيق وقسم أوغل فى الجبال الشمالية وفتح العاصمة الكبرى طليطلة. واستمر الفتح بعد ذلك حتى ملك العرب أسبانيا جميعاً الا بعض القبائل التى فى الجبال العالية الشمالية، والشمالية الغربية، فان العرب قنعوا منهم بالخضوع.

ولم يكن من الطبيعى أن يقف تيار الفتح بعد الانتهاء من اسبانيا وما كانت جبال البرانس العالية لتقف فى سبيل قوم كالعرب لم يزالوا فى عنفوانهم فدخلوا الى بلاد الفرنج وفتحوا كل الجزء الجنوبى منها وبلغوا أقليم نهر اللوار حتى وقف لهم القائد الفرنجى الكبير شارل مارتل عند مدينة تور وهناك كانت الموقعة الفاصلة الكبرى (تور) سنة ٧٣٢ وانهزم فيها العرب فكانت سنة ٧٣٢ قصارى ما بلغه فتح المسلمين فى غرب أوربا غير أنهم احتفظوا مع ذلك الانهزام بالجزء الجنوبى من بلاد الفرنج مدة طويلة الى أن تقلص ظلهم عنها تدريجاً بعد أن خبت فورتهم بحكم السنة الطبيعية

آخر الدولة الاموية

مات هشام سنة ٧٤٤ ولم تمض بعده ست سنوات حتى سقطت الدولة الاموية بعد أن تعاقب من خلفائها أربعة بين منصرف للهو وضعيف عن الحكم وقد ثارت الفتن بين الاحزاب المتنازعة على الملك من الامويين أنفسهم ولهذا وجدت الدعوة السرية مجالا فسيحا للانتشار ولاسيما فى خراسان حيث ظهرت الجيوش بنادى بأن تكون الخلافة فى بيت العباس من بنى هاشم وهذه الجيوش كما نتوقع من الشعب الفارسى الذى كان يتطلع الى اعادة مجده بثورة على الدولة العربية المحضة وهي دولة الامويين المكروهة

وحينما كانت الجيوش العباسية تصطدم بجيوش مروان الثانى آخر الامويين كان الشعب يضمر الفرح ولا يتحرك لنصرة دولة أساءت أساءات عدة ولم تغفر لها حسناتها الكثيرة عندهم ٠

## نظرة فى الدولة الاموية

قامت الدولة الاموية على القوة برغم الشعب العربى الذى كان يفضل أحد أمرين إما أن يختار الخلفاء برغبته الحرة وإما - اذا كان لابد من تولية أحد بغير الاختيار - أن يكون الخليفة من بيت بنى هاشم آل سيدنا الرسول وكانت الدولة الاموية تلاقى ما كان يعترضها من العقبات بقوة السيف بقسوة شديدة فزادت تلك القسوة من نفور الناس منها ولاسيما وقد كانت موجهة الى أفراد من آل بيت الرسول مثل الحسين بن على وزيد بن على ابن الحسين الذين أصبحوا يعتبرون ضحايا أبرياء لاعتداء الامويين الغاصبين وليسوا بثوار على الدولة يستحقون العقاب وهذا كان مركز الخليفة الاموى فى منتهى الدقة والحرج فالمكروه دائما تنسى حسناته وتعد سيئاته ويبالغ فيها ٠ ولكن مع ذلك قد أمكن الامويين أن يبقوا فى الخلافة نحو قرن وذلك لأن أسرتهم الاموية على وجه الاجمال كانت أسرة ممتازة بالنابهين الاقوياء وقلما يوجد فى أسرة واحدة حكمت مثل هذه المدة القصيرة عدد كبير من الحكام الاقوياء كالذى وجد فى هذه الدولة: فمعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد كل هؤلاء كانوا أمثلة ظاهرة للقوة والشجاعة وكثير منهم امتاز بحسن السياسة وبعد النظر والاصلاح وقد كانت دولتهم عربية محضة وكانوا على رأسها يوجهون الشعب العربى الى الانحاء المختلفة فساد العالم تحت قيادتهم وتوجيههم وكان وحده هو سيد الدولة الاسلامية وقائدها وجنديها

فاذا كانت الدولة الاموية أفقدت الاسلام نظام الحكم الحر الجمهورى فانها وحدت صفوفه وجعلت دولته أعظم دول العالم وأساسها العرب

أنفسهم ، ولكن منذ بدأ الخلفاء يضعفون كان سقوط الدولة فجائياً لان مركزها الحرج الذى تقدم بيانه كان لايسمح بوجود ضعيف على الدولة بل يحتاج الى رأس قوى يدبر الامور ويقابل الاخطار قبل أن تتجسم ·

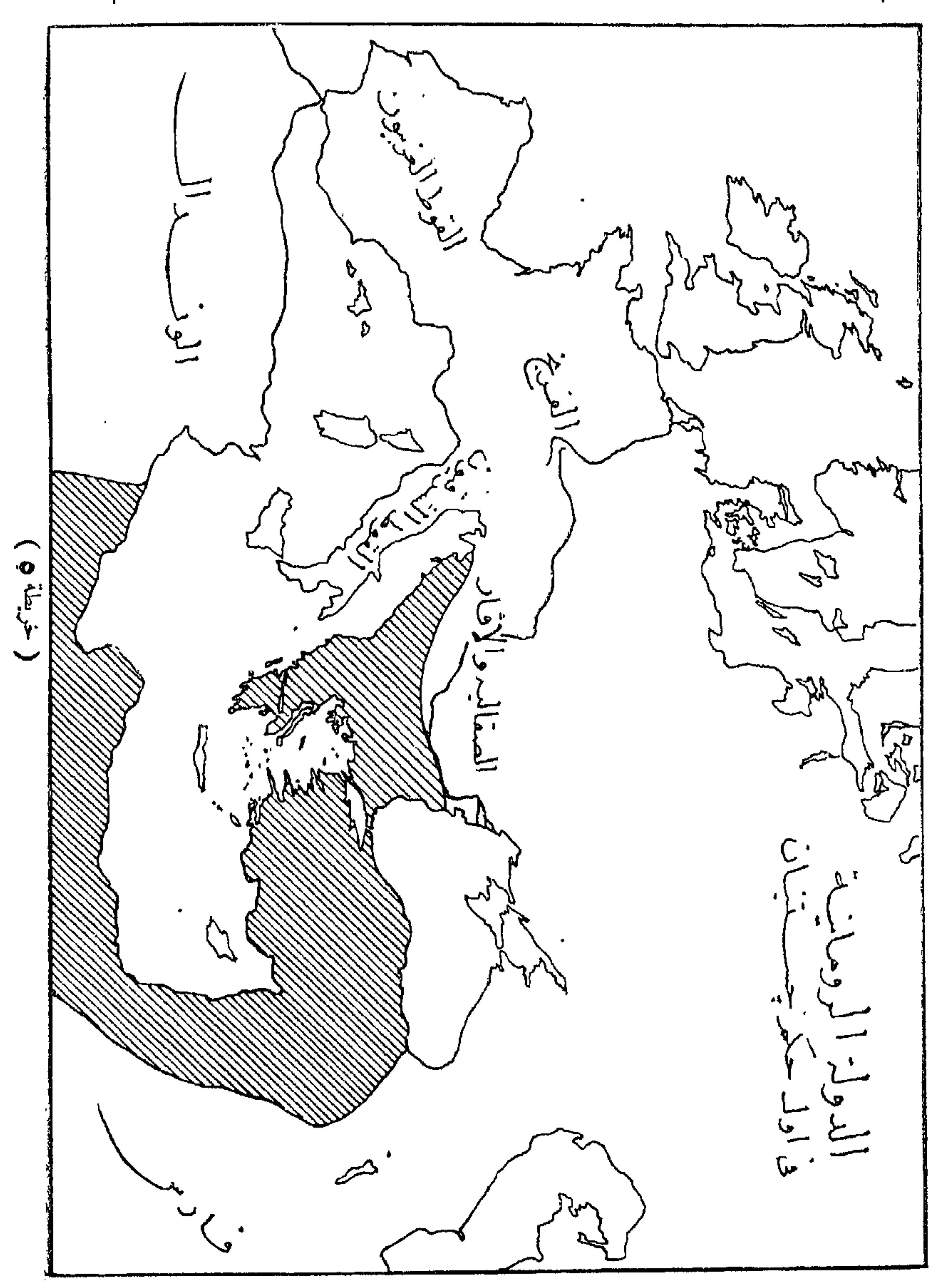
## مابلغته المدنية الاسلامية مدة الامويين

كان العرب فى مدة الخلفاء الراشدين ( عصر الجمهورية ) خارجين من البداوة فى صحرأهم لاشغل لهم إلا الحرب وقد فتحوا البلاد الفسيحة التى بجوارهم وكان لابد لهم من أن يتأثروا بالشعوب التى غلبوها ·

حقاً قد انتصر العرب فى الحرب ولكنهم متى استقروا فى البلاد بعد ذلك يكون لابد لهم من التماس وسائل الحياة المدنية · وعند ذلك تكون الشعوب المغلوبة هي صاحبة التفوق وقد رأينا أن عمر حاول أن يبقى العرب بعيدين عن الاعمال غير الحربية ولكن أنى يستطاع ذلك وسنة الحياة أن الشعب البدوى لابد أن يستقر بعد أن يبلغ مدى فتوحه وهكذا بدأ الشعب العربي يستقر منذ أواخر أيام العصر الجمهورى ويأخذ بأسباب الاعمال العادية من فلاحة وتجارة وصناعة ولكن العرب كانوا فى كل ذلك لايجارون الشعوب الاصلية فى البلاد وبهذا كان عدد المشتغلين منهم بالتجارة والصناعة فى أول الامر قليلا

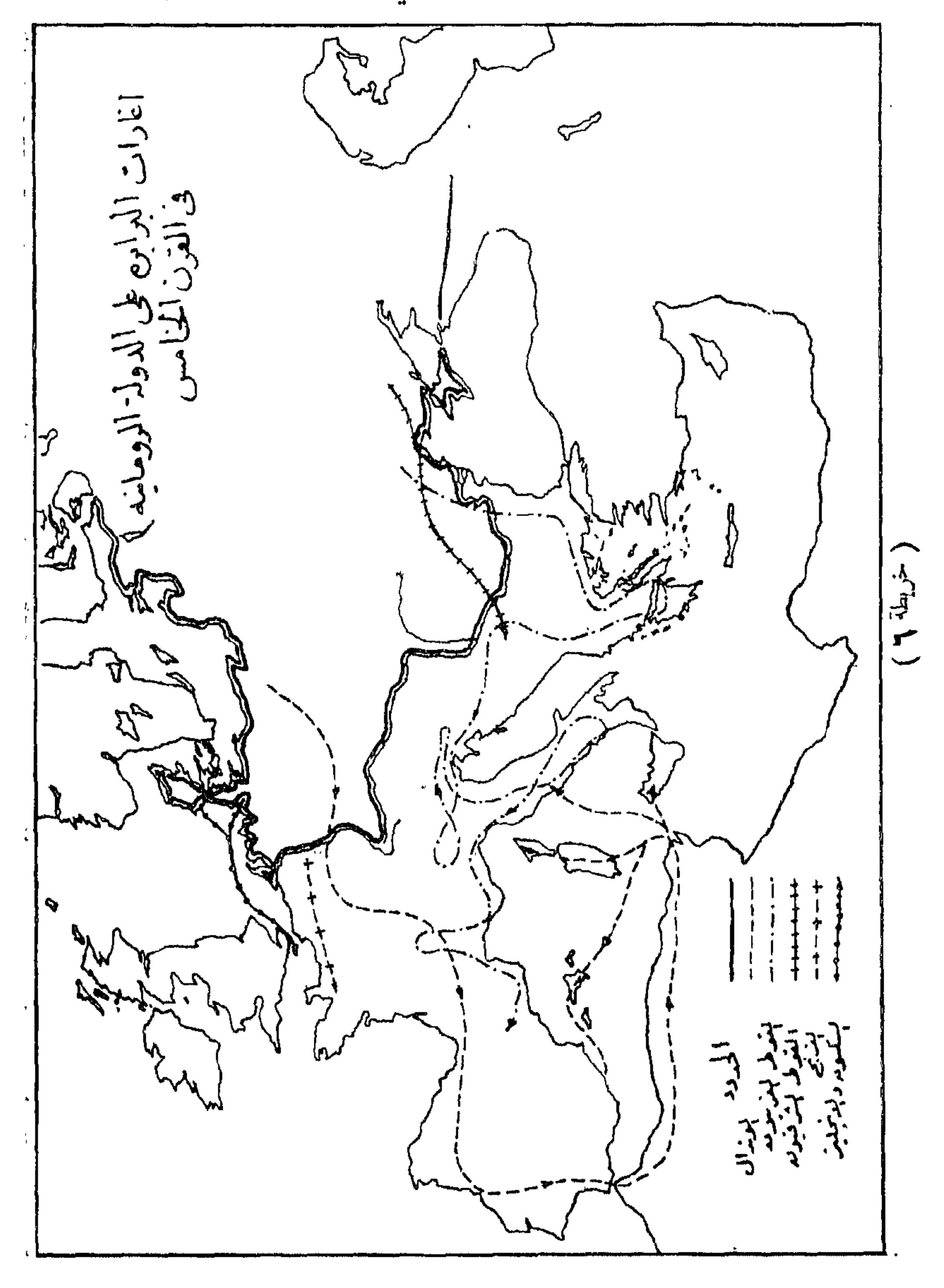
ولما جاء العهد الاموى كان العرب قد اعتادوا شيئاً كثيرا من نعيم الامم التى تعيش فى الدول القديمة ( الفارسية والرومانية ) ولو أنهم احتفظوا بالطباع العربية والعادات العربية يباهون بذلك ويفاخرون بأصلهم البدوى لاسيما وقد كان الامر للعرب وحدهم فى الدولة الاموية وقد أثرت الحياة المنعمة التى بدأ العرب يحيونها فى اذواقهم وميولهم العملية ، فنشأ منهم جماعة من الفنانين والكتاب ، وزها الشعر ، وبدأت حركة صغيرة نحو الاشتغال بالعلوم والبحث . فنسمع أن عبد الملك بن مروان استطاع أن يحول لغة الحكومة فى الاقاليم إلى العربية بعد أن كانت اللغات المحلية كما نسمع بنشأة فن

الموسيقى العربية وفن البناء فى أواخر حكم الامويين على أننا لايمكن أن نقول أن الشعب العربى صاحب هذه المدنية الوليدة بل يجب أن نسميها المدنية الاسلامية لأن العرب وان اشتركوا فى بنائها لم يكونوا بطبيعة الحال هم أصحاب السبق فيها . وغاية الأمر أن ذكاء العرب الفطرى وحماستهم القوية



(خريطة ٥)

عند أول دخولهم ميدان المدنية وقوتهم الحيوية الكامنة فيهم قوة شعب ناشىء لم تزل موفورة وثابة — كل ذلك أعطى المدينة الاسلامية وجهة جديدة ميزتها عن المدنيات القديمة ، وهي التي زهت فيما بعد فى عهد الدولة العباسية فى الشرق وفى مدة الأمويين بالاندلس فى الغرب ويطلق




( خريطة ٣ )

على مجموعها اسم ( المدنية العربية ) أو خير من ذلك ( المدنية الاسلامية )

## حال أوربا الى أواسط القرن الثامن

وثب الاسلام وثبته العظيمة التى ذكرناها فيما سبق فغير وجه العالم تغيراً يمكن أن نقول بشأنه أنه حور العالم ووجهه فى اتجاه غير اتجاهه الاول فمن جهة قد صارت السيادة الحربية للدولة الاسلامية منذ أوائل القرن الثامن وذلك بعد أن انقرضت دولة الفرس القديمة وتضعضعت دولة الرومان وقضى على دولة القوط الغربية ومن جهة أخرى قد صارت المدنية الى المسلمين الذين بدأوا يوجهونها وجهة خاصة بهم كما سبق القول

ولكن أوربا كانت لا تزال بها دول يعتد بها وهذه الدول سيكون لها فيما بعد شأن جديد ولهذا يجدر أن نذكر عنها كلمة موجزة :

بقى فى أوربا ثلاث دول رئيسية وهى دولة الروم الشرقية بعد أن جردها المسلمون من أكثر بلادها ودولة اللمبرديين فى ايطاليا ودولة الفرنج.

(١) دول الرومان : ان أهم ما فى تاريخ هذه الدولة منذ أول القرن السابع هو تاريخ علاقاتها بالدول الاسلامية فقد جردها الاسلام من الشام ثم من مصر ثم من شمال افريقيا وأنشأت الدولة الاموية أسطولا فى البحر أخذ كثيراً من شواطئه وجزائره وغزا عاصمة الدولة نفسها كما رأينا مرتين

وكان المسلمون بين حين وآخر يغيرون على آسيا الصغرى فيثلمون حدود تلك الدولة فى نقط متعددة .

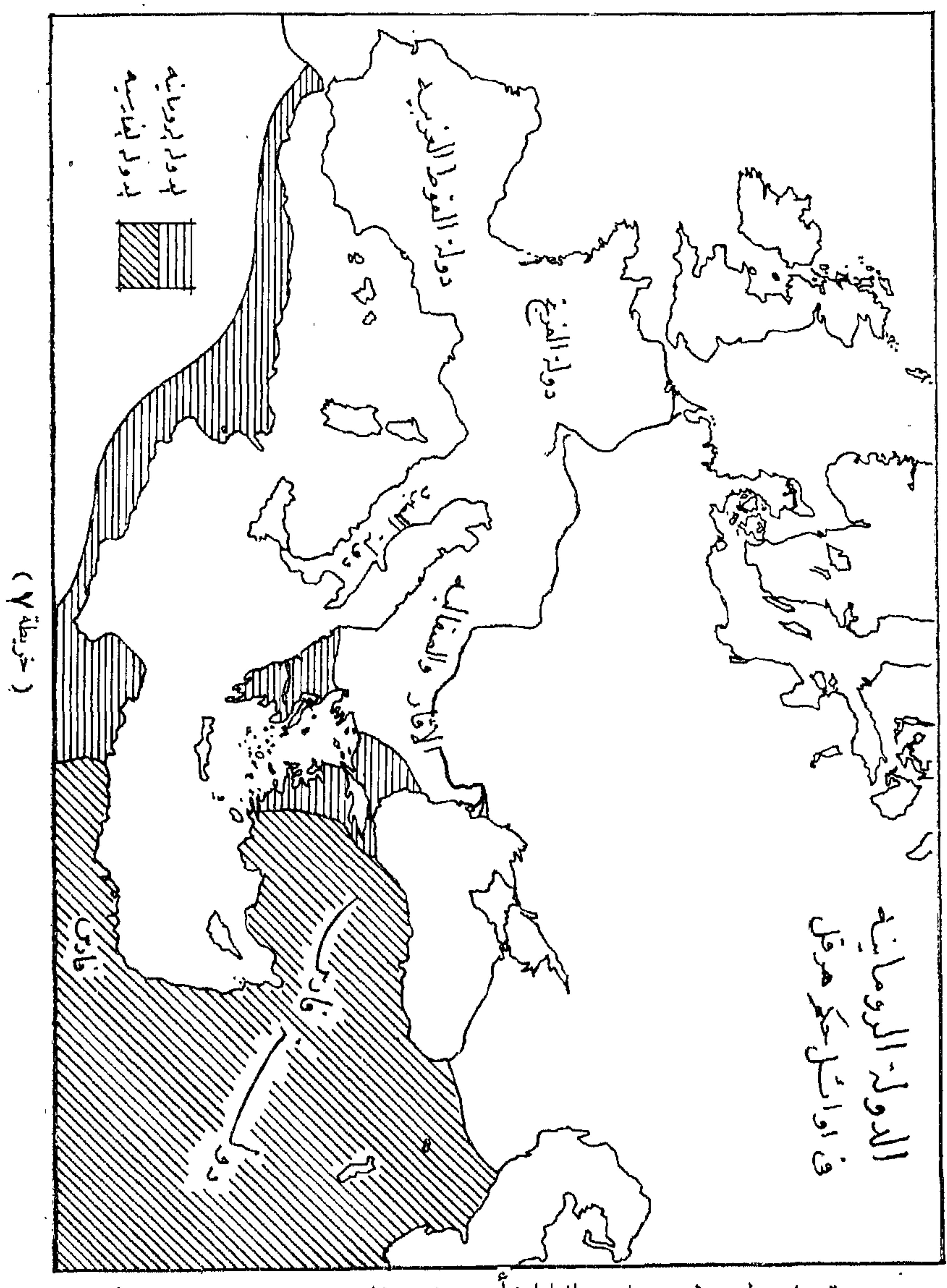
وقد كانت حكومة الدولة الرومانية الى أواسط القرن الثامن تحاول ان تصلح من شأنها بعد أن اتضح لها ضعفها فى النضال مع العرب ولعل من أظهر ما حاوله الاباطرة فى ذلك السبيل محاولة ( ليو ) وهو الامبراطور الذى رد هجوم العرب الثانى عن قسطنطينية أن يقوم بحركة اصلاح دينية تسمى فى التاريخ باسم ( حركة تكسير التماثيل ) وذلك أن

الرومانيين تأثروا بنقد الاسلام لهم فى تقديس التماثيل فى عباداتهم فاحب ليو أن يزيل هذه من أماكن العبادات حتى لا يتهم الرومان بعبادة الاوثان ولكن حركته هذه لم تنجح الانجاحاً مؤقتاً وكان لها آثار غير مباشرة كبرى فان البابا فى رومة لم يوافق عليها وغضب على ليو من أجلها وأدى ذلك الى توسيع شقة الخلاف بين انحاء العالم المسيحى وشطره قسمين وبدأ الخلاف الكبير الذى بين الكنيستين الشرقية والغربية وسيأتى مآل ذلك فيما يلى.

(٢) دولة اللمبردين فى ايطاليا : فتح اللمبرديون ايطاليا وحلوا محل الرومانيين فيها بعد أن زالت دولة القوط الشرقية . وكانت دولتهم بايطاليا غير موحدة كما مر اذ أن اللمبرديين فتحوا تلك البلاد وهم مقسمون بعد موت زعيمهم البوين . ولهذا بقيت بقايا من الاملاك الرومانية تتخلل الاراضى التابعة للمبرديين وتاريخ ايطاليا فى القرنين السابع والثامن عبارة عن سلسلة محاولات يقصد بها الوصول الى مداواة تلك الحال فانه بعد فترة عشر سنوات من موت البوين لم تكن فيها حكومة مركزية اختار الامراء اللمبرديون ملكا من بينهم واستمروا بعد ذلك على: (١) محاولة تكوين حكومة مركزية وكانت تلك الحكومة تجتهد أن تخضع لسلطتها جميع الامراء المتفرقين الذين يشعرون بحقهم فى الاستقلال (٢) ومن جهة أخرى كانت تلك الحكومة تحاول أن تقلل من ظل الحكم الرومانى فكانت بين حين وآخر تنزع جزءا من بقايا الاملاك الرومانية (٣) وكذلك حاولت الحكومة المركزية أن تكون نظاماً شاملا خاضعاً لقانون واحد

وكان فى ايطاليا شخص له مكانة سامية وهو البابا وقد مر ذكر الطريقة التى زاد بها نفوذه ولاسيما أيام الملك اجيلولف فى أواخر القرن السادس على يد البابا (جريجوار الاول ) فكان البابا الى جانب الحكومة اللمبردية فى أثناء القرنين السابع والثامن ينازعها السلطان ويجدر بنا أن نذكر أكبر ملوك

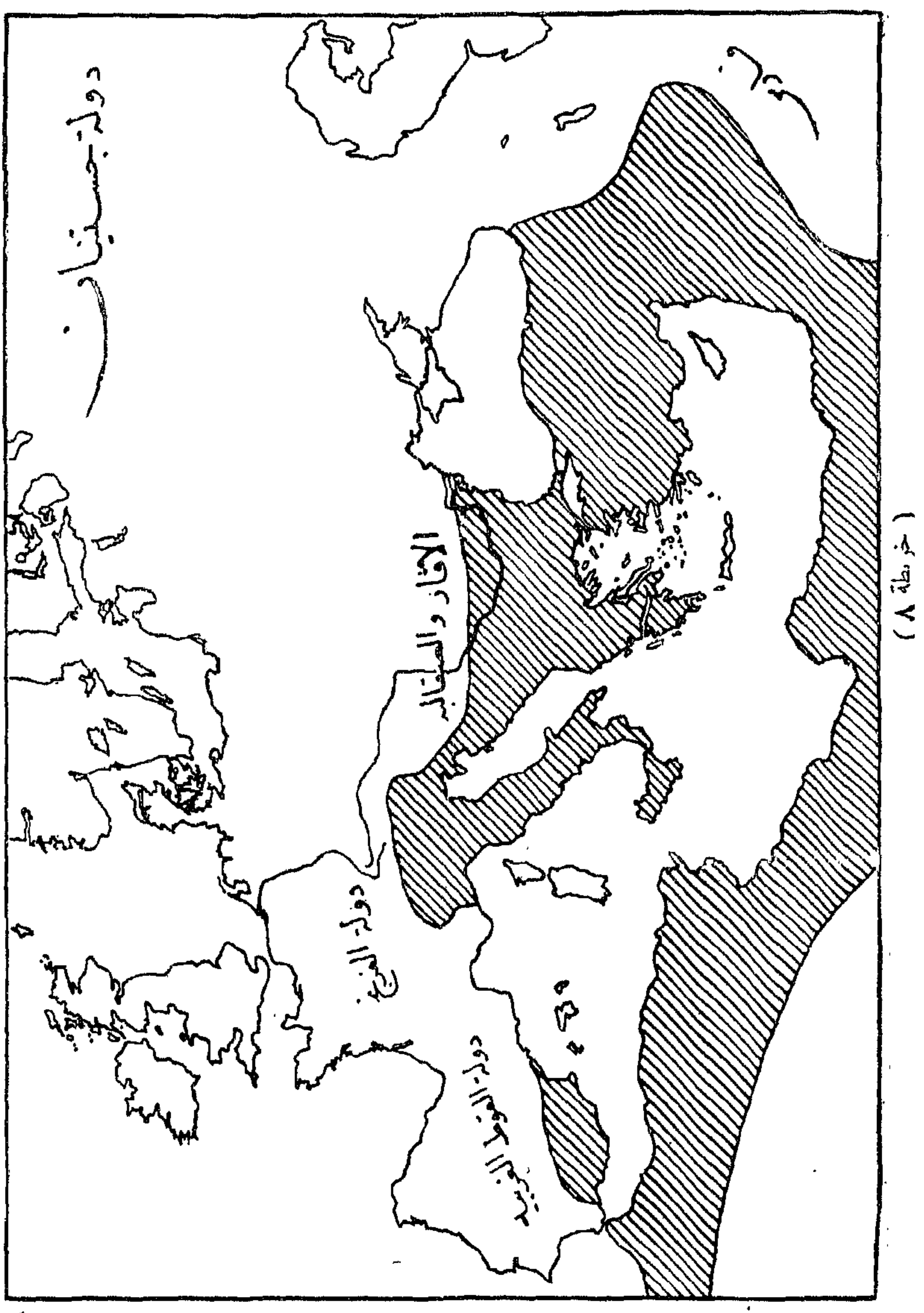
اللمبرديين فى النصف الاول من القرن الثامن وهو ( ليوتپراند ) فانه مثل من الامثلة التى تتمثل فيها هذه المحاولات من تلك الوجهات الثلاث




( خريطة ٧ )

وقد اصطدم ليوتبراند بالبابا فأدى ذلك الى نتيجة غير مباشرة كانت ذات أثر بعيد المدى فيما بعد وذلك أن البابا بدأ يستنجد ضده بملوك من

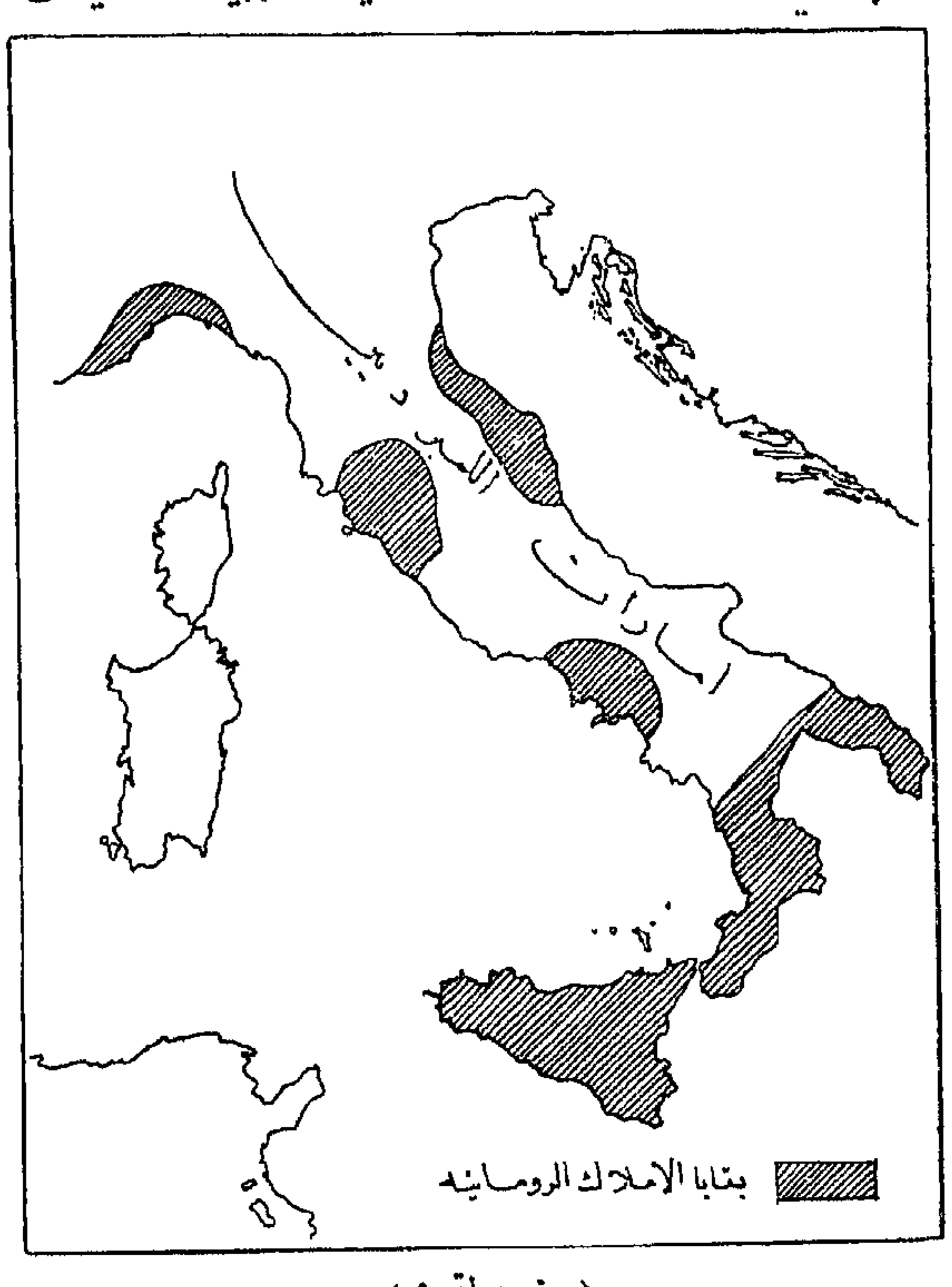
الخارج وكان أمامه فى العالم المسيحى ملكان الاول امبراطور الدولة الشرقية والثاني ملك الفرنج فأما الامبراطور الشرقى فقد تقدم ذكر ما كان يدعو




( خريطة ٨ )

اليه فى ذلك الوقت من ابعاد التماثيل عن دور العبادة وتكسيرها وما نشأ من وراء ذلك من الخلاف مع البابا فلم يكن أمام البابا الا الاستعانة بملك

الفرنج وكان الملك الفرنجى اذ ذاك فى يد وزيره المعروف ( شارل مارتل ) الذى كان هو الحاكم فعلا على بلاد الفرنج فاستعان به البابا وبذلك سن سنة جديدة وهي سنة طلب النجدة من الفرنج ضد الملك اللمبردى وسنرى لذلك نتيجة هامة فيما بعد . اذ من ذلك سيمهد السبيل لفتح الفرنج ايطاليا وازالة دولة اللمبرديين واعادة الدولة الرومانية الغربية كما سيأتى .



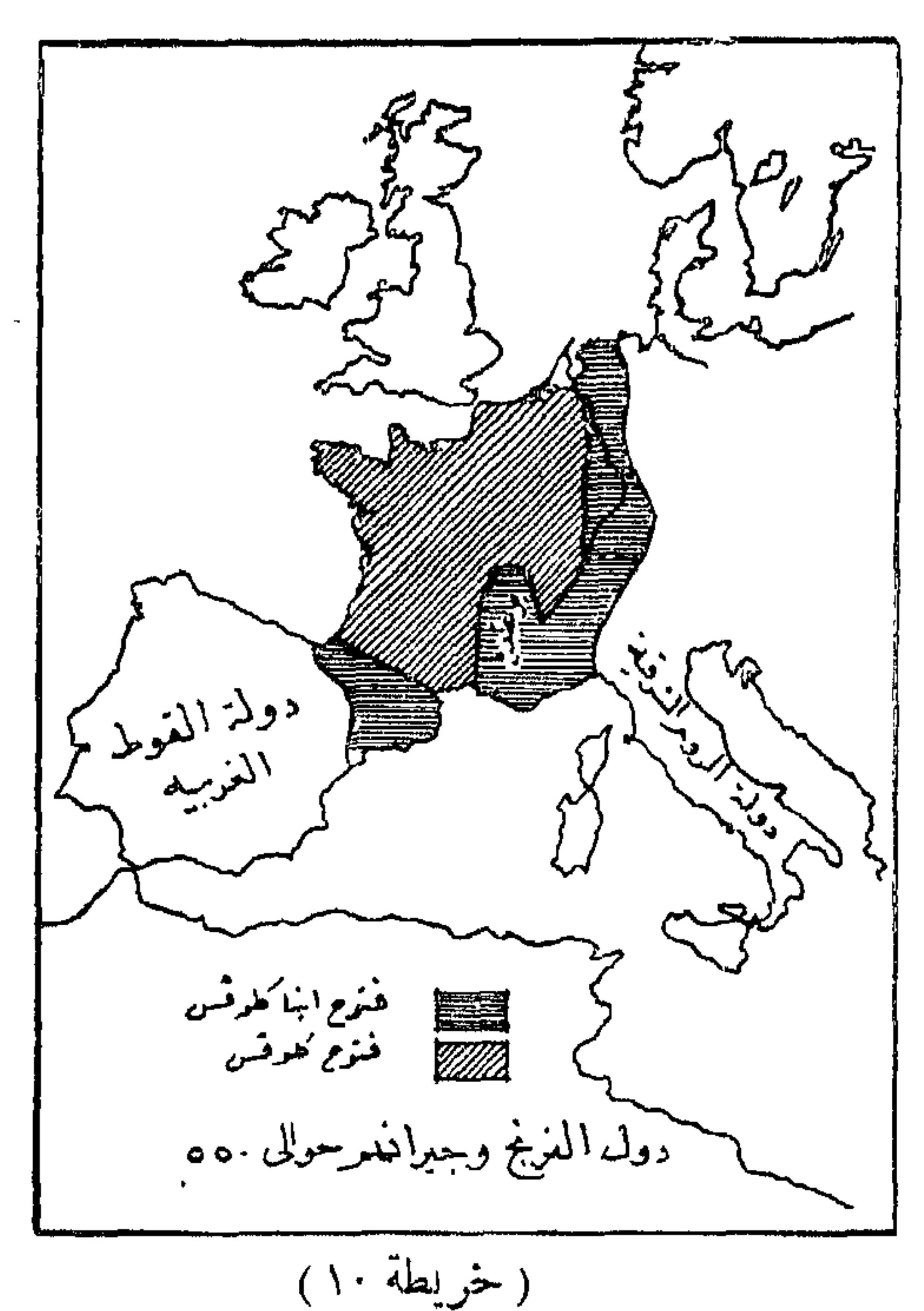

( خريطة ٩ )

ولنذكر هنا أن ( شارل مارتل ) كان اذ ذاك صديقاً للملك اللمبردى ليوتبراند لانه كان حليفة ضد المسلمين وطالما أعانه فى حربه ضدهم فى جنوب فرنسا — ولهذا لم يتدخل ( شارل ) بأكثر من التوسط فى الصلح بين البابا والملك اللمبردى .

(٣) دولة الفرنج : كون الملك كلودوفيج ( كلوفس ) هذه الدولة كما تقدم وتركها عند موته سنة ٥٢١ ممتدة من أكناف نهر الرين شرقاً الى جبال

البرانس جنوباً ولكن تلك الدولة تقسمت بين أبنائه بعد موته بحسب سنة الفرنجة

وقد ورث أبناء ( كلوفس ) ما كان فى طبع أبيهم من صفات بعضها طيب وبعضها سيىء فكانوا فى خلقهم خليطاً من القوة والشجاعة والقسوة والغدر .




( خريطة ١٠ )

ومهما يكن من الامر فان دولة الفرنج زادت اتساعاً فى أيامهم بالرغم من تقسمها . فامتدت من الشرق الى شرق نهر الرين وجعلت الاسلحة الفرنجية تغزو بلاد جرمانيا المجاورة لذلك النهر من الشمال الى الجنوب ولم يقف التقدم عند هذا الحد بل أن الفرنج حاولوا التداخل فى ايطاليا فى أواسط القرن السادس لولا أن ردهم عنها نارسيس الذى كان قد نجح فى اجلاء القوط الشرقيين كما مر . وكذلك ضم الفرنج برغنديا الى دولتهم فأصبحت بذلك كتلة قوية واحدة .

وقد توحدت تلك الدولة العظيمة فى يد كلوتار الاول بعد أن مات جميع اخوته أبناء ( كلوفس ) غير انه عند ما مات سنة ٥٦١ رجعت الدولة الى التقسم حسب سنة الفرنج ومن ذلك الوقت نلمح بذرة التضعضع الذى انتاب ملوك دولة الفرنج فان أبناء كلوتار ما لبثوا أن دبت بينهم العداوة وجندوا شعبهم بعضه ضد بعض وثارت حروب طاحنة بينهم استمرت نحو أربعين سنة وكان لها أثر عظيم فى تلك الدولة من وجوه عدة :

(١) مات كثير من أمراء البيت الميروفنجى ( البيت المالك ) وهذا مهد السبيل الى حكم الصغار من هذا البيت ومن ذلك الوقت اضمحل شأن الملوك .

(٢) زاد نفوذ الامراء الفرنج فى أثناء هذا النضال ولا سيما عند ما ذهبت الاجيال القوية من أفراد البيت المالك ولم يبق الا الصغار الضعاف وكان من أكبر الامراء الذين نبغوا فى هذا الوقت الامراء الذين كانوا رؤساء حشم القصر ويطلق عليهم لقب ( حجاب السراى )

(٣) انقسم الفرنج الى حزبين أثناء الحرب فانقسمت فرنسا الى قسمين أصبح كل منهما منافساً للآخر وهما القسم الشرقى (ويطلق عليه اسم استراسيا) والقسم الغربى ( ويطلق عليه اسم نويسترنيا )

ويمكن أن يقال أن فرنسا بعد انتهاء تلك الحروب سنة ٦١٣ دخلت فى عهد جديد يعرف بعهد ( الملوك العاطلين ) اذ أن الامراء سلبوا الدولة سلطانها على الاقاليم واستولى حجاب القصر على الحكومة المركزية وأصبح الملك الميروفنجى فى يدهم لا أمر له .

وقد زاد نمو أسرة حجاب القصر حتى صارت الحجابة وراثية فيها من أوائل القرن السابع وكان من هذه الاسرة الرجل العظيم ( ببين درستال ) الذى اجتمع فى يده حجابة القصر فى كلا قسمى فرنسا و يمكن اعتباره

فى الواقع حاكما على تلك الدولة نحو ثلاثين سنة فلما مات سنة ٧١٤ خلفه على حجابة القصر ابنه ( شارل مارتل ) المعروف بوقفته المشهورة أمام العرب

شارل مارتل

لم تكن الامور ممهدة أمام شارل عند موت أبيه فان فرنسا كانت فى ذلك الوقت معرضة الى أخطار عظيمة تهدد كيان الدولة بالانهيار

ففى داخلها كان الاحزاب يتنازعون على السلطة وهم حزب البيت المالك ( الميروفنجى ) وحزب أخى ( شارل مارتل ) لان شارل لم يكن الابن الشرعى لابيه ولهذا كان ينافسه أخوه الاصغر الشرعى على حجابة القصر وفى أثناء هذا التنافس كان الامراء الفرنج يسعون جهدهم ليكونوا سادة أنفسهم لا يقيدهم خضوع لحكم مركزى . أما من جهة الخارج فقد كان أكبر خطر ذلك التيار الجارف الذى لم تقو دولة الروم ولا دولة القوط الغربية على صده وهو الفتح العربى وكان العرب عند ذلك قد بلغوا أواسط فرنسا وكادوا يجعلون حدودهم نهر اللوار بعد الاستيلاء على حوض نهر الرون الخصب وجميع جنوب فرنسا .

غير أن شارل مارتل كان رجل الساعة فى فرنسا فانه قضى على جميع الأحزاب المناوئة له فى الداخل سنة ٧١٩ واضطرها أن تقف الى جانبه فى حرب العرب ثم ألب جيرانه على دفع ذلك الخطر الداهم على حياة دول الغرب فساعده ليوتبراند اللمبردى مساعدة كبرى وانتصر شارل على العرب فى ( موقعة تور ) سنة ٧٣٢ وهى الموقعة التى تعتبرها دول أوربا فاصلة فى تاريخها إذ لولا وقفة شارل ورجوع العرب بعدها عن التوغل فى قلب أوربا لكان للتاريخ وجه آخر ولكان للاسلام فى أوربا سلطان كبير .

وقد أطلق الفرنج على ( شارل ) لقب مارتل منذ نصره فى تلك الموقعة ومعنى ذلك اللقب ( المطرقة ) تمجيداً لشدة وطأته :

ولم تكن فتوح شارل مقصورة على الجنوب ، بل أنه عبر الرين شرقاً وجعل يغزو مجاهل جرمانيا ، وبذلك وجه الفرنج فى سياستهم الحربية نحو الشرق ، وهى وجهة سنرى فيما بعد أنها تبلغ قصاراها فى مدة حفيده وسميه شارل الكبير . واتبع فى فتوحه الشرقية خطة جديدة وهى انه جعل همه نشر المسيحية فى القبائل التى يخضعها بسيفه ، فكانت بعثات رجال الدين مع جنوده ينشرون الدعوة الدينية بين قوم لم يسمعوا من قبل بالمسيح وهذه أيضاً خطة سنرى خلفه العظيم شارل الأكبر يسير عليها ويبلغ بها غايتها .

## اتخاذ الحجاب لقب الملك

كان شارل مارتل ملك الفرنج فعلا ، ولم تبق الى جانبه قوة تذكر لحزب مناوىء . ولكنه مع ذلك ظل على لقب الحجابة ولم يغيره فلما مات سنة ٧٤١ كان الموقف عجيبا فان ابنه ( پپين القصير ) الذى ورث الحجابة بعده رأى جميع السلطة له ومع ذلك وجد الى جانبه الملك ( الميروفنجى ) له الولاية الاسمية الجوفاء فأحب أن يضع حداً لهذا الموقف الشاذ ووجد الفرصة سانحة أمامه فان البابا كان محتاجا الى مساعدته كما سنبين فيما يلى وكان ثمن المساعدة المرجوة أن يصدر البابا فتوى بأن ( پپين ) صاحب السلطة الفعلية أجدر من الملك العاطل بلقب الملك فاتخذ پپين لقب الملك سنة ٧٥٢ وأدى ثمن تلك المساعدة بعد قليل فقد مر بنا أن البابا استعان على ( ليوتپراند ) اللمبردى بشارل مارتل ولكن هذا اكتفى بأن يصلح بين رئيس الدين وصديقه ملك ايطاليا — غير أن الخلاف تجدد بعد ذلك بين البابا الجديد وبين الملك الذى بعد ليوتپراند وعاد البابا فطلب معونة ( پپين ) ملك الفرنج المدين له بالفتوى التى مهدت له سبيل الملك فلم يتردد پپين بل أعان البابا ودخل بجيوشه ونصره بالقوة على منافسه الملك اللمبردى و جعله ينزل

للكنيسة عن جميع الارض الواقعة فى منطقة تمتد من رافنا شرقا الى رومة غرباً ، ومن ذلك الوقت زاد نفوذ البابا الدنيوى فأصبح حاكما على جزء عظيم من أرض ايطاليا

وقد كان الملك پپين فى سياسته سائراً على غرار أبيه وبوفاته سنة ٧٦٨ يبدأ عهد جديد فى تاريخ أوربا على يد ابنه شارل الكبير ( شارلمان )

# الدولة العباسية ومعاصروها

بينما كانت أوربا فى هذا التطور تحاول أن تدافع أمام سيل العرب الجارف من جهة وتحاول أن تكون دولها الجديدة من جهة أخرى كان هناك تطور خطير فى الدولة الاسلامية فان حكومة الامويين التى كانت منذ بدأت مكروهة من الشعب أخذت قبل منتصف القرن الثامن تضعف وتزداد عليها الصدمات العنيفة . وكانت أقوى صدمة عليها خروج أنصار العباسيين ( نسل العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام ) ومحاربتهم لها . وقد تقدم أن الشعب الفارسى كان يطمح الى أن يسترجع عزه الماضى بوسيلة من الوسائل وقد وجد فى الانضمام الى لواء الدعاة العباسيين فرصته فلبى مئات الآلاف من أهل خراسان دعوة أبى مسلم الخراسانى كبير دعاة العباسيين وبدأت الثورة فى خراسان البعيدة عن مركز الحكومة الاموية

ولم يستطع الوالى قمعها ولم تكن الحكومة المركزية متفرغة لمقابلة تلك الثورة لانصرافها الى المنازعات الداخلية مع المتطلعين للخلافة من الامويين انفسهم وهكذا سارت الثورة سريعا وكان انتصارها الاول داعيا الى الثقة بالعباسيين وقوتهم وانصرف الشعب عن الامويين المكروهين عندما اتضح له أنهم عاجزون عن مقاومة الدعوة الجديدة ولم يكن الشعب الاسلامى ليقف الى جانب الامويين ليقاوم ثورة تدعو الى جعل الخلافة فى بيت عم

الرسول . وكانت الموقعة الفاصلة أخيراً عند نهر الزاب شرق الموصل حيث هزم مروان الثانى وفر وما زال متنقلا فى الاقطار حتى قتل أخيرا بالفيوم فى مصر سنة ٧٥٠ . ويمكن أن يقال أن الأمويين خسروا الدولة بانهزام جيشهم فى موقعة الزاب ، إذ لم يجد العباسيون مقاومة تذكر ، ودانت لخلافتهم الاقطار الاسلامية كلها ، وكان أول خلفائهم عبد الله بن العباس المعروف بالسفاح .

وقد أتى القواد العباسيون بأعمال كثيرة حملهم عليها الانتقام من الامويين فقتلوا من أفراد تلك الأسرة كل نابه حتى لم يبق الا النادر أو الخامل . وكان ممن نجا منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى فر ونجح أخيرا فى الاستيلاء على الاندلس وأقام فيها دولة مستقلة عن العباسيين منذ سنة ٧٥٥ وهى دولة الامويين بالاندلس

ولم يقف انتقامهم عند قتل الاحياء بل أنهم نبشوا قبور الخلفاء الامويين وأهانوا بقاياهم بأعمال لا يبررها العقل فجلدوها وأحرقوها وقتل السفاح من الناس عدداً كبيراً يقال أنه بلغ ثلثمائة الف من غير المحاربين ولكن اضطراب العصر لم يجعل أحداً من الشعب يستنكر ذلك العمل ولعل عصر استقلال الرأى كان قد مضى منذ أن أذهبت سياسة الحجاج الروح العربية الحرة .

ولكن بعد ذهاب سورة الانتقام بدأ العباسيون يقيمون دولتهم ويستقرون فى حكمهم وخبا لهيب الكره والانتقام .

## نظام الحكومة العباسية

لم يغير العباسيون نظام الحكم الذى كانت الدولة الاسلامية سائرة عليه فى أيام الأمويين فلم يتغير فى الدولة الاشىء واحد وهو أن الخلافة صارت فى بيتهم بعد أن كانت فى بيت منافسيهم ولكن مع ذلك قد كان هناك اختلاف كبير بين حالى الامة الاسلامية فى الدولتين لاختلاف العصور

واختلاف القائمين بأمر الحكم ونلخص هنا وجوه ذلك الاختلاف

(١) كانت الدولة الاموية دولة عربية قائمة فى كل انحاء مجهوداتها على الشعب العربى وذلك الشعب وان روض وأخضع كان لا يزال نزاعا الى روحه القديم ولكن الدولة العباسية قامت على مجهود الشعب الفارسى وهو شعب قديم المدنية معود الخضوع لحكومته المستقرة منذ القدم فكان هناك ميل الى زيادة البعد بين الحاكم والمحكوم وصار خلفاء العباسيين وطبقة الحكام فى دولتهم منعزلين عن الشعب عالين فوقه علواً كبيراً

(٢) كانت الدولة العباسية ذات قداسة لانتسابها لبيت السيد الرسول وهذا زاد من الميل الى علو خلفائها وانعزالهم عن العامة .

(٣) كانت الدولة العباسية محبوبة لشرف نسبها وكانت وراء محبة الناس لها تأتى بأعمال لو أتت بها دولة أخرى لعلا الضجيج من ظلمها ولكنها كانت فى مأمن من شرفها يغتفر الشعب لها ما لا يمكن أن يغتفره لحكام من بيت آخر .

(٤) كان شرف الخليفة داعياً الى اعلائه فوق مرتبة الحكم الفعلى ولهذا كان الميل دائماً الى ايجاد طبقة من الحكام يباشرون الاعمال العادية مستمدين سلطانهم من الخلافة العليا . ومن ثم نمت سلطة الوزراء وسواهم من الحكام المباشرين لامور الدولة

(٥) تقدم الشعب الاسلامى فى سبيل الاستقرار والمدنية فى مدة العباسيين وبدأ ينصرف الى وجوه المدنية من الانحاء المختلفة وقد اجتمع هذا الانصراف مع الظروف الأخرى فكانت النتيجة انعزال الشعب عن الاشتغال بالامور العامة والسياسية تدريجاً . وهذا أدى الى وجود صفة يمتاز بها العالم الاسلامى منذ ذلك الوقت وهو وجود طبقتين متفرقتين منفصلتين طبقة رجال الدولة وطبقة الشعب العام .

وكانت الطبقة العليا من رجال الدولة مكونة من الساسة ومن الجنود وما دام الشعب منصرفاً عن أمور الدولة كان لا بد من التماس رجال السياسة والجنود من الخارج وهذا ما أدى الى اتخاذ الجنود الاجانب كالاتراك والديالمة الخ وهذه صفة غالبة على تاريخ الدولة العباسية حتى لقد يمكن تقسيمها الى أدوار كل دور منها يمتاز بسيادة شعب معين من الشعوب

أدوار الدولة العباسية

يمكن تقسيم تاريخ العباسيين الى الادوار الأربعة الآتية

(١) دور سيادة الفرس ومدته من أواسط القرن الثامن الى أواسط التاسع

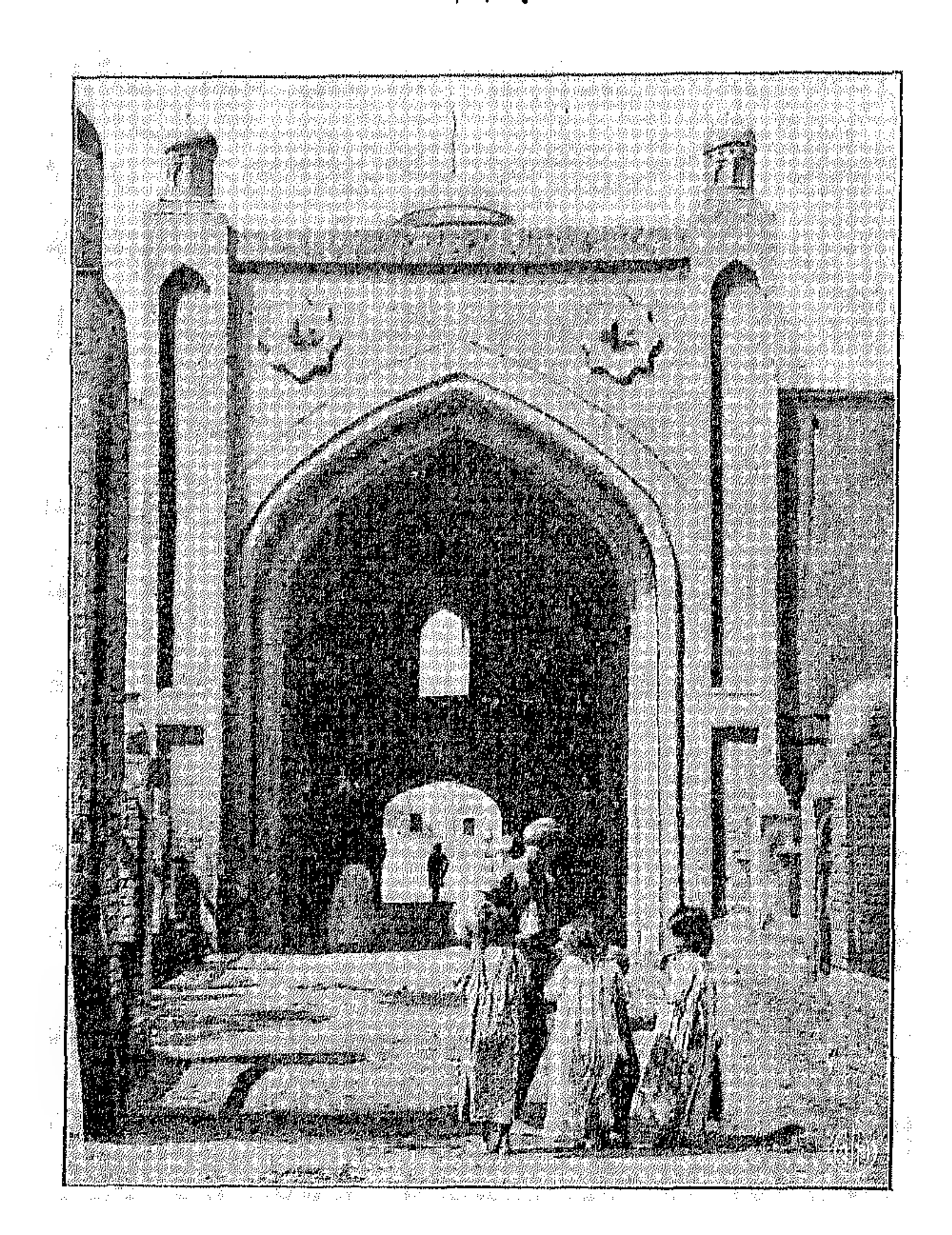
(٢) دور سيادة الجنود الاتراك ومدته من أواسط التاسع الى أواسط العاشر

(٣) دور سيادة الديالمة ومدته من أواسط العاشر الى أواسط الحادى عشر

(٤) دور سيادة السلاجقة ومدته من أواسط الحادى عشر الى أواسط الثالث عشر وهو آخر حياة الدولة العباسية اذ سقطت بغداد فى يد التتار سنة ١٢٥٨

# الدور العباسى الاول

بعد اشتداد الأمور وهدوء ثورة الحرب بدأ العباسيون كما ذكرنا يقيمون دولتهم على قواعد المدنية الاسلامية التى بدأها المسلمون فى الدولة الاموية غير أن العباسيين حولوا مركز الخلافة الى بغداد التى بناها الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور على نهر دجلة ولعل أكبر ما دعا الى اتخاذ ذلك المقر الجديد أن العباسيين ما كانوا ليأمنوا أن يجعلوا مقر حكمهم دمشق وهي التى كانت الأسرة الاموية فيها ذات عز وانصار وان اتخاذ بغداد فى وسط الشعب الفارسى لدليل على أن ذلك الشعب هو الذى كان العباسيون يركنون الى ولائه .



( شكل ٤ — باب فى أسوار بغداد )

وقد توالى على الخلافة فى ذلك العصر جماعة من أقوى الحكام شخصية فبعد عبد الله السفاح جاء أبو جعفر المنصور ثم المهدى فالهادى فالرشيد فابنا الرشيد الأمين والمأمون وكان المعتصم آخر تلك السلسلة المتينة واليه يرجع السبب فى ادخال سياسة جديدة فى الدولة سياسة اتخاذ الجنود الأتراك بدل الركون الى الفرس كما سنرى . ولم يكن فى عصور الدولة الاسلامية عصر أشد نشاطاً فى بناء المدنية من ذلك العصر فان قوى الدولة وخير عناصر الشعب الاسلامى اشتركت معاً فى الانشاء من جميع نواحيه ، ولا يفوتنا ذكر النهضة العلمية العجيبة التى اشترك فيها بعض الخلفاء العباسيين أنفسهم فان أبا جعفر كان ممن شجع التأليف والترجمة وكان الرشيد من علماء

الخلفاء ، وكان المأمون من أكبر الخلفاء بحثا وميلا للعلم ، واكراماً لأهله

ولم يكن العلم وحده مميز تلك النهضة بل ارتقت الفنون بانواعها درجات واسعة فالموسيقى بلغت مبلغا جعلها علما له قيمة سامية وازدهر فن البناء والنقش العربى وصارت بغداد جميلة تباهى بما حوته من مبان فخمة وقصور بديعة يسكنها شعب مزدحم نام من جميع نواحيه المادية والفكرية

وقد نمت الثروة الزراعية والتجارية والصناعية وشجع على زيادتها ما كان فى الدولة من قوة تحفظ عليها أمنها وتقوم على اصلاح سبل الحياة فيها من اصلاحات هندسية لتحسين الرى وتحسين طرق الاتصال وسواها وكانت الحياة المنعمة فى بغداد أكبر ما يشجع المصنوعات الثمينة كالحرير الموشى والسلاح المزركش وصناعات العطور وما اليها من مستلزمات حياة النعيم ولم تنس حكومة ذلك العصر أن تنشىء المدارس والمستشفيات ولو أن تلك المنشئات لم يكن لها فى نظرها المكان الذى لها فى العصر الحاضر على أن الدولة لم تخل من وجود مسائل معضلة فى ذلك العصر كانت بين حين وآخر تشغلها عن التفرغ الى الاعمال السلمية . وهذه المسائل بعضها خارجى وبعضها داخلى

المسائل الخارجية

(١) وجدت الدولة العباسية بطبيعة الحال على رأس العالم الاسلامى فى مواجهة الدولة المسيحية الكبرى وهي البيزنطية التى كانت منذ نهضة الاسلام هدفا لهجمات الدول الاسلامية . فكان من المحتوم أن يستمر النضال معها لتجاور التخوم وضرورة الاحتكاك المستمر بين دولتين ذاتي عقليتين مختلفتين ومدنيتين منفصلتين فثارت الحروب على الحدود عند آسيا الصغرى بغير انقطاع تقريباً ، وقد مات الرشيد فى إحداها ، ولاينسى التاريخ اغارة المعتصم على آسيا الصغرى ، ووصوله الى عمورية انتقاماً لامرأة مسلمة بلغه أنها

استجارت باسمه من اعتداء الرومانيين عليها . ولكن تلك الحروب وان خرجت الدولة الاسلامية فيها غالبة فى كل مرة ليست مثل الحروب التى كان يشنها المحاربون العرب مدة معاوية أو سليمان بن عبد الملك فان أغارات الأمويين كانت كالسيل الجارف ولم تكن حروب حدود كحروب الرشيد والمعتصم .

(٢) لم تكن الدولة الرومانية هى الجار الوحيد الذى يناضل مع دولة الخلافة العباسية فانه إلى شرقها كانت شعوب الترك تسترعى انتباه الدولة بين حين وآخر كما أن هناك دولة اسلامية منافسة فى الغرب وهي دولة الاندلس وكانت دائما تنتهز الفرص لأذى العباسيين والانقضاض على أرضهم وقد كان هذا الخطر ماثلا أمام العباسيين مثولا مزعجا حتى أن بعضهم كالرشيد العظيم اتخذ صديقا من ملوك الفرنج ( شرلمان ) ليكون مساعداً له على تلك الدولة ليشغلها عن دولته . وقد كان أمراء الاندلس من جهتهم يلتمسون أذى العباسيين ولو بطريق غير مباشر بمصادقة الدولة الرومانية الشرقية وتشجيعها على حربهم .

المسائل الداخلية .

ولكن فى داخل الدولة الاسلامية كانت هناك مسائل كبرى تسترعى اهتمام الخلافة العباسية ولو أنها لم تكن فى أول الأمر مسائل تستعصى معالجتها .

(١) منافسة الشيعة

كان العباسيون فى ايام الامويين فرعاً من البيت النبوى وكانت الدعوة السرية فى مبدأ الامر تدعو الى أن يكون الخليفة من بيت الرسول ( أى من نسل على لأن نسل الرسول لم يحفظ الامن طريقه ) ولكن العباسيين ظهروا فى آخر الأمر فى الصدر ونمت الدعوة باسمهم وصاروا هم الخلفاء

فكان هذا سببا فى حقد ابناء عمهم العلويين وكانت كراهة العلويين تظهر من حين الى حين فى شكل ثورة صغيرة أو مؤامرة تضطرب لها الدولة مثل ثورة النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله المحض من نسل الحسن بن على وكانت بالمدينة ثم ثورة أخية ابراهيم بن عبد الله بالبصرة وغيرهم

(٢) انفصال الاطراف

لم يكن من الطبيعى فى دولة من الدول أن يمتد سلطانها الى زمن غير محدود على أراض متباعدة وأقاليم متباينة وشعوب مختلفة وهكذا كان أمر الدولة العباسية ، فان امتدادها من حدود الصين والهند الى المحيط الاطلسى لم يكن طبيعيا ولم يكن ليستمر الا ما بقيت قوة المركز عظيمة قادرة على حفظ عقدها من الانفراط ، ولكن كان الميل دائما الى حدوث ذلك الانفراط . وقد بدأ فعلا تحققه منذ أيام الرشيد عند ما سمح لأسرة ابراهيم بن الاغلب ان تحكم شمال أفريقية مستقلا على أن يدفع مقدارا من المال كل عام . ثم تبع ذلك انفصال جزء من التركستان فى أيام المأمون ومن ذلك الوقت أخذت اطراف الدولة فى الانحلال عنها ولو أن ذلك كان ببطء غير محسوس. وقد كانت مصر بين الدول التى سارت في سبيل ذلك الانفصال منذ أواسط القرن التاسع كما سيأتى

(٣) زيادة نفوذ الفرس

قامت دولة العباسيين على مجهود الفرس كامر واتخذت مقرها بين ظهرانيهم وكان كبار رجال الدولة والجيش منهم بطبيعة الحال . وقد سبق ذكر أن الفرس كانوا شعبا قديم المدنية يحاولون أن يسترجعوا عزها وقد ساعدوا العباسيين وكانت مكافأتهم أن الدولة الجديدة كانت فارسية فى كل شىء الا الاسم .

غير أن الخلفاء العباسيين كانوا شديدى الغيرة أن يروا أثرا من آثار انصراف الامر الى سواهم وهذا يفسر ايقاع أبي جعفر المنصور بأبي مسلم الخراسانى

وقتله وهو صاحب الفضل فى تكوين دولته وهذا نفسه يفسر ايقاع الرشيد بالبرامكة وزرائه الفرس العظام وهم الذين كان لهم الفضل الاكبر فى ازدهار الدولة مدة حكمه [١] فانه لم يقو على الابقاء عليهم عند ما رأى تسرب السلطة اليهم وقد زاد سلطان الفرس عقب انتصار المأمون على أخيه الامين [٢] في الحرب الداخلية التى ثارت بينهما حتى صار كل الامر فى يدهم فلم يستطع المعتصم الا أن يدخل عنصراً جديدا ليقاوم به نفوذ الفرس المتزايد وهو شعب الترك فاستكثر من ادخالهم فى الجيش وتم الانقلاب ومن ذلك الحين صارت قوة الدولة مرتكزة على جيش جاب أفراده من الخارج منعزلين عن كتلة الشعب انعزالا تاماً حتى صارت لهم عاصمة وحدهم وهى ( سرمن راى ) فى شمال بغداد .

(٤) زيادة الحركة الفكرية

قد تؤدى الحركة الفكرية المطلقة الى قيام أحزاب سياسية متطرفة الرأى فى ناحية من نواحى الفكر . وقد تؤدى الى التعمق فى البحث فى السياسة

---

(١) كان يحيى بن خالد بن برمك مؤدب الرشيد وكان الرشيد يجله كأبيه وجعله وزيره وكان أبناء يحيى أكبر رجال الدولة فى عصره (وهما جعفر والفضل) وقد قاموا بأمور الدولة خير قيام حتى بدأ الرشيد يسىء الظن بهم ويوجس خيفة من زيادة نفوذهم وهم من الفرس وقد وقع فى نفسه أنهم ميالون الى الحزب العلوى فأوقع بهم وقعته المشهورة فقتل جعفر ومات أبوه وأخوه فى السجن وهناك قصص مختلفة عن سبب الايقاع بهم ولكنها أقرب الى أن تكون وليدة الخيال .

(٢) كان المأمون ابن زوجة فارسية للرشيد وكان الامين ابن زبيدة العربية وقد تردد الرشيد فيمن يوليه العهد منهما لان المأمون كان زكيا يحبه أبوه لما يتوسمه فيه وكان الامين أكرم أصلا وأحب الى رجال الدولة فعهد الرشيد اليهما أن يكون الامين الخليفة بعد أبيه وأن يكون المأمون حاكما على الشرق (فارس وما يليها) ويكون قائدا للجيوش ولكن الامين نفس على أخيه ما أعطاه أبوه من الحكم فلم يلبث أن نقض عهد أبيه وبدا بحرب أخيه وكانت النتيجة انخذاله وانتصار المأمون عليه وكان أكثر رجال المأمون من الفرس الذين كان المأمون يسميهم أخواله .

أو فى الدين أو فى الاخلاق فيؤدى ذلك التعمق الى نتائج تكون غير متلائمة مع بقاء حال الدولة كما هي . وهذا ما حدث من آثار الرقى الفكرى الذى بدأ فى الدولة العباسية وكان بعض الخلفاء يخشى ذلك الى حد كبير فيقاوم تلك الحركات الفكرية مقاومة شديدة ونذكر أمثلة من ذلك مقاومة المهدى لما كان يسمى بالزندقة ومقاومة بعض الخلفاء المتأخرين لاصحاب مذهب المعتزلة الخ .

# الدور العباسى الثانى

## ( من منتصف القرن التاسع الى منتصف العاشر )

يبتدىء من بعد حكم الواثق الذى جاء بعد المعتصم و يمتاز ذلك العصر بسيادة الجنود الأتراك وغلبتهم على الأمر فانهم منذ شعروا أن الدولة قائمة على سيوفهم جعلوا أنفسهم سادتها وبسطوا أيديهم بالبطش فى جميع الانحاء حتى تعدت الى الخلفاء أنفسهم فصاروا لا حول لهم ولا قوة ثم كثرت المؤمرات من بعضهم على بعض وقتل فى تلك المؤامرات بعض الخلفاء مثل ( المتوكل على الله ) وارتكبت فظاعة لا مثيل لها فى عقاب من يخالف ميول الجنود وكثيرا ماسملت عيون الخليفة أوعذب ولاشك أن مثل هذا العصر ينعكس فيه صدى الحوادث السياسية على أمور البلاد كلها في الداخل والخارج ويكون أثرها في كل ذلك سيئاً . وقد بدأت فيه الدولة العباسية في سبيل الاضمحلال والسقوط حربياً أمام جيرانها ومدنياً في داخلها . وبدأت في تلك الاثناء حركة الانفصال عن المركز تتخذ شكلا هائلا

فقامت في شمال افريقيا دول مستقلة أكبرها دولة الفاطميين وتقلص ظل الدولة العباسية تماماً عن تلك الجهات. واستقلت مصر استقلالا لم تعد بعده الى الدولة العباسية

وقامت في البلاد الشرقية دول متعددة يحكمها أمراء من كبار الترك والفرس وأكبر هذه الدول دولة بني بويه . وصارت الخلافة لا تحكم الا على رقعة صغيرة نسبياً وهى العراق وما يليه .

وبدأت كفة الحروب الخارجية ترجح الى جانب جيران الدولة وأكبر هؤلاء الدولة الرومانية الشرقية التى استرجعت كثيرا من بلادها التى فقدتها في آسيا الصغرى والجزيرة وانتهى امر الدولة العباسية اخيرا بأن يتسلط عليها أمير من الامراء الذين نمت قوتهم في بلاد فارس وهو معز الدولة بن بويه

ومن ذلك الوقت دخلت الخلافة في الدور الثالث الذى يمتاز بأنها صارت محكومة بأمير فاتح أتي غازياً غالبا وصار الخليفة الى جانبه فى مكان الذى تحت الحماية . ولو أن صفة الخليفة الدينية وشرف نسبه العباسى كانا عاملين على المحافظة على سلطانه الاسمى وقنع ملوك بنى بويه بالمحل الثاني في الظاهر مع الاستيلاء على كل أمور الدولة فعلا .

# الدور العباسى الثالث

## ( من أواسط القرن العاشر الى أواسط الحادى عشر )

ويسمى ذلك الدور بعصر الديالمة لان بنى بويه يسمون الديالمة اما لأنهم من شعب الديلم الفارسى المجاور لبحر قزوين واما لان منشأ دولتهم كان في تلك البلاد .

وليس لهذا العصر صفة يمتاز بها عن سابقه من جهة اضطراب حال الدولة في الداخل وضعفها أمام جارتها الدولة الرومانية من جهة والدول الاسلامية المستقلة من جهة أخرى فقد تقدم تيار الانتصار الروماني الى أن قربت الجيوش الرومانية من بغداد نفسها

ويمكن أن يقال أن في هذا الدور قد تم انقلاب عظيم وهو ظهور منافسة الشيعة وتغلبهم. فان البويهيين أنفسهم كانوا من الشيعة العلوية وهم أصحاب السلطة في الشرق فى حين أن دولة الفاطميين التى نشأت فى أوائل القرن العاشر في شمال افريقيا بلغت أكبر عزتها في هذا الدور فملكت كل شمال افريقيا الى مصر وبسطت سلطانها على الشام بل أن اسم الخليفة الفاطمى ذكر مرة على منابر بغداد ذاتها . وهكذا تمكن الفاطميون العلويون أخيرا من أن يثأروا لانفسهم ويظهروا بمظهر المنافس المخيف أمام أبناء عمهم العباسيين الذين ضعف سلطانهم الى ذلك الحد فى القرن الحادى عشر .

# الدور العباسى الرابع

(من أواسط القرن الحادى عشر الى أواسط الثالث عشر سنة ١٢٥٨)

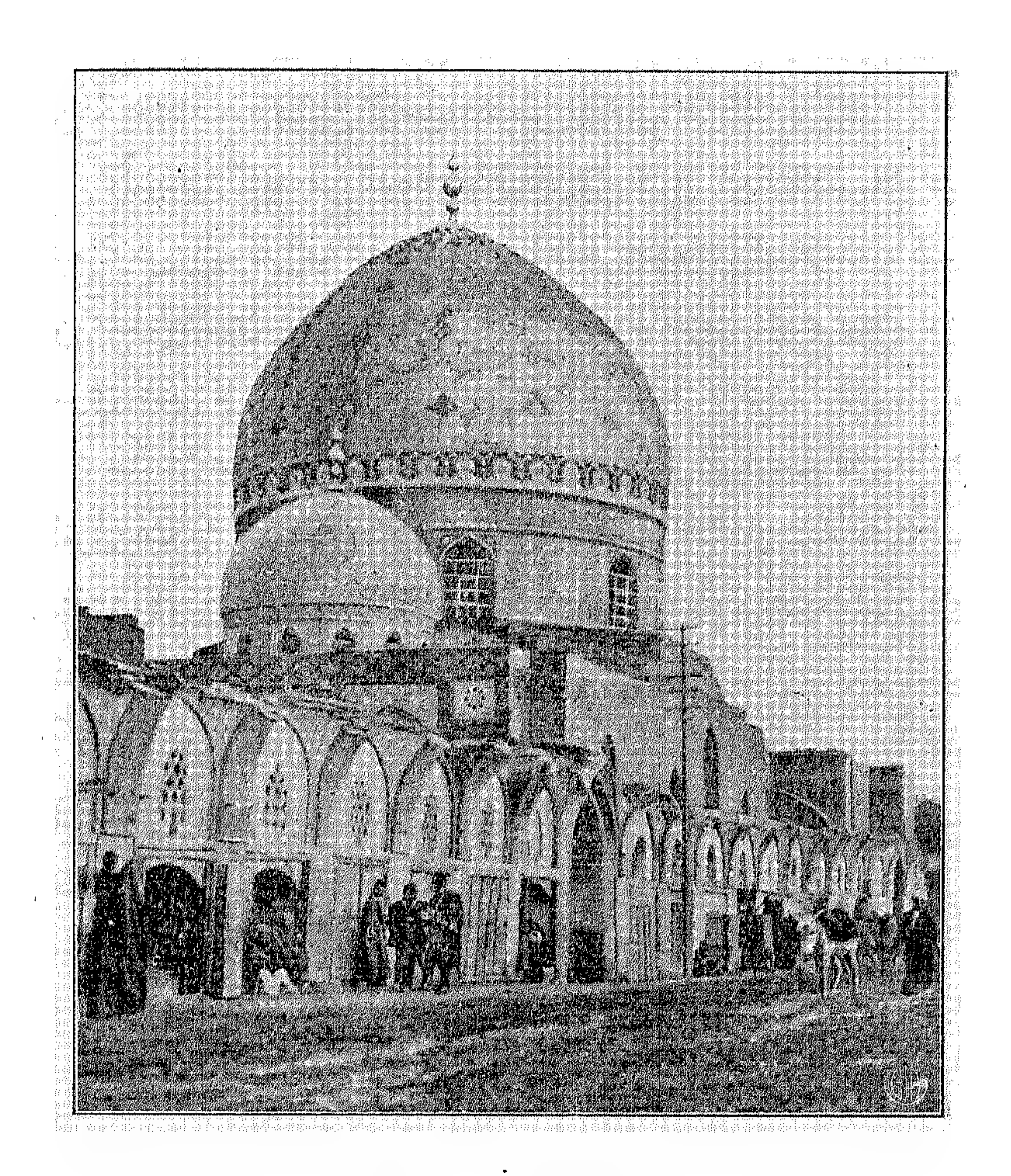
هذا ما يمكن تسميته بعصر السلاجقة نسبة الى تسلط أمراء الاتراك الذين ينسبون الى جد اسمه سلجوق . وقد كان منشؤهم فى بلاد فارس حيث نمت دولتهم في أيام تسلط الديالمة وما زالوا حتى صارت أمارتهم أقوى أمارات الشرق فاستنجد بهم الخليفة أثناء فتنة من الفتن الكثيرة التى كانت تثور بالعاصمة بين حين وآخر وكان أمير السلاجقة أذ ذاك (طغرل بك). وهو أول أمير حكم فى بغداد من السلاجقة

وعصر السلاجقة هو الثانى لوجود دولة فاتحة تحكم بغداد ولكن هناك فرقاً كبيراً بين علاقة السلاجقة بالخلافة وعلاقة سلفهم البويهيين بها فان السلاجقة كانوا سنيين وليسوا من الشيعة وكانت علاقتهم بالخلافة علاقة فى مجموعها طيبة وقد قنعوا بالسلطة الفعلية وتركوا للخليفة كل مظاهر الابهة والعظمة وعملوا معه على وفاق وكانوا جنودا شجعاناً يؤيدهم جيش من بنى جنسهم الاتراك فاسترجعوا القوة الحربية للخلافة العباسية وظهرت على

يديهم جيوش المسلمين على جيوش الدولة الرومانية وعادت الى الخلافة قوتها الحربية وتجددت سلطتها على أكثر البلاد التى فقدتها في الدورين الماضيين حتى صارت مرة أخرى سيدة جزء كبير من العالم الاسلامى القديم من حدود الهند والصين الى حدود مصر

وأخذت الشام من الدولة الفاطمية التى كانت تهدد بالاستيلاء على جميع أرض الدولة العباسية من قبل ثم فتحت جيوش السلاجقة كثيرا من آسيا الصغرى حتى صارت قرب بحر مرمرة وجعلت قسطنطينية مرة أخرى تخشى غزو المسلمين لها .

حدث هذا الانتعاش الحربى على يد سلاطين السلاجقة الاوائل وهم طغرل بك والب ارسلان وملك شاه الذين حكموا ما بين سنة ١٠٥٥ — سنة ١٠٩٢ ولكن ما لبثت الدولة العباسية بعد حكم هؤلاء الثلاثة أن تفككت واعترتها حوادث ذات بال وتكونت بعد ذلك فى قلبها دول جديدة سنرى ذكر تاريخها فيما يلى الى أن انتهى أمرها سنة ١٢٥٨ عند ما أغار عليها سيل التتار الجارف وحطم ما تخلف بها من آثار المدنية الاسلامية العظيمة كما حطم ما تخلف من تلك المدنية فى جميع بلاد الشرق .



( شكل ٥ ـ مسجد بغداد )
بقايا مما أفلت من يد التخريب

# نظرة فى أسباب اضمحلال الدولة الاسلامية

تتشابه الأمم فى أسباب قيام مجدها وأسباب اضمحلالها ، وإنا لنجد ذلك واضحا فى حال الدولة الاسلامية فان اسباب قيام مجد الدولة الرومانية كما أن أسباب اضمحلالها تشبه فى أكثر الوجوه أسباب اضمحلال تلك الدولة . غير أن اختلاف الشعوب والاقاليم يسبب وجود بعض عوامل خاصة فى اضمحلال الدولة الاسلامية ، وإنا ذاكرون اكبر هذه الاسباب

## تغير روح الشعب :

ان الروح التى اثارها الاسلام فى العرب هى التى دفعتهم الى الفتوح وكانوا قوما بدويين لم تضعفهم المدنية ولم تذهب بقوتهم مفاسد الترف ولكن تلك الروح لم تلبث بعد اتساع الدولة أن تغيرت وفقد الشعب الاسلامى تدريجا قوة النضال والقدرة على الكفاح . وقد ساعد على الوصول الى هذه النتيجة سريعا أن الحكومات شجعت على أضعاف الروح المعنوية رغبة منها فى القضاء على الثورات الداخلية . وكان هذا منذ أيام الحجاج . ثم زاد الامر عند ما استولى العباسيون فانهم أعرضوا عن العرب واتخذوا جنودهم من الفرس ثم أعرضوا عن هؤلاء واستعملوا الترك فى جيوشهم وهكذا أبعد الشعب الاسلامى تدريجا عن أمور السياسة والجندية ففقد العامة على توالى الزمن الانصراف الى تلك الميادين واكتفوا بالأعمال السلمية تاركين السياسة والجندية للجنود الاجنبية

## الجنود المرتزقة :

منذ استعمل الخلفاء الجيوش المرتزقة صارت الدولة الاسلامية

فى يد قوادهم يتنازعون على السلطة ويستنزفون الخزائن العامة غير مبالين بشيء الا أغراضهم الخاصة .

نظام الاقطاع :

وهذا يختلف فى الشرق عنه في الغرب فان منشأه فى الشرق كان أن يكل الخليفة الى أمير من الامراء جمع الضرائب نظير مقدار من المال يتعهد أن يفي به لخزانة الدولة وهذا كان مبدأ استبداد الامراء وتغلبهم وكانوا يسيئون الى الشعب بثقل الضرائب التى يجبونها منه وأدى ذلك الى اضعاف الثروة وتقليل الانتاج .

استبداد الامراء :

مما يسترعى النظر أن الحكومات الاسلامية ولا سيما فى العهد الاخير لم تتبع الخطة الجمهورية التى سار فيها الاسلام فى مبدأ الامر بل أن الامراء المسلمين الذين حكموا الاقاليم المختلفة منذ الدور العباسى الثانى يمتازون بشدة عسفهم وانعزالهم التام عن الشعب وكانوا ينظرون الى الشعب كأنه فريسة وان وظيفته امداد الامراء بالمال ليساعد على مجدهم الشخصى وبذخهم وترفهم .

فساد الاخلاق العامة

ان الفظائع التى كان الحكام يرتكبونها والتى بالغ فيها الجنود منذ الدور الثانى العباسى كان لها أثر عظيم فى الاخلاق العامة فانها كانت أمثلة سيئة ولهذا نسمع بكثير من حوادث الاضطهاد والمصادرة والتعذيب التى لانسمع بمثلها الا قليلا فى الامم التى على مثل مدنية الدولة الاسلامية .

وقد زاد الطين بلة أن الشعب العام تأثر بهذه الأمثلة فى آخر الامر وانحط لهذا مستوى الخلق عنده

الاضطراب والاحزاب

لم يكن الاضطراب فى الدولة الاسلامية مقصوراً على حوادث الجنود

وثورانها بل نسمع بأحزاب متشاحنة كانت سببا فى قلاقل مستمرة زادت من اختلال الأمن وضعف الدولة كالثورات بين الشيعة وأهل السنة ، وثورات اتباع المذهب الحنبلى الخ الخ

الضعف الاقتصادى :

لا غرابة اذا كانت هذه حال البلاد الاسلامية سياسياً واجتماعيا أن تضمحل موارد الثروة ، وقد أثر ضعف موارد الثروة على الخزانة العامة فصارت عاجزة عن بذل الأموال اللازمة للقيام بأمور الحكم ، وهكذا وصلت الدولة الاسلامية تدريجا الى حال لا تستطيع معه مقاومة هجمات جيرانها البدو الاقوياء فسقطت أمام أغارة التتار المدمرة فى القرن الثالث عشر كما سقطت الدولة الرومانية أمام غارات الجرمان من قبل فى القرن الخامس

ملاحظة : هذه الأسباب كلها تنطبق على الدولة الاسلامية الكبرى التى كان مركزها بغداد وليس يقصد بها البلاد الأخرى المستقلة من العالم الاسلامى مثل مصر أو الاندلس .

# الدول الاسلامية الصغرى

## ( الى أواخر القرن الحادى عشر )

تقدم بيان نمو الدولة الاسلامية منذ نهضتها فى القرن السابع وقد رأينا انها استمرت دولة واحدة متماسكة ما دام قلبها قويا أى مادامت حكومتها المركزية حكومة قوية قادرة على الدفاع عن حدودها من الخارج ومن الداخل . وقد بقيت الدولة الاسلامية على ذلك الحال طول مدة الخلافة الاولى ومدة الامويين . ولكن ماجاءت الدولة العباسية حتى بدات أول خطوة فى سبيل تقسم الدولة الاسلامية وذلك باستيلاء عبد الرحمن الداخل الاموى على الاندلس واستقلاله هو وأسرته من بعده بالحكم فيها وأصبحت الاندلس منذ ذلك الحين دولة اسلامية قائمة بذاتها

وتلت هذه الخطوة خطوات أخرى فأن الدولة العباسية لم تكن كدولة العرب الناشئة أيام الامويين بل انها استقرت وأخذت باسباب المدنية وشغلتها شئون كثيرة عن الحروب ولهذا ظهر عجزها عن الاحتفاظ بكل أراضيها منذ أيام هرون الرشيد نفسه فان شمال افريقيا استقل استقلالا فعليا وان بقى اسميا تابعا للخلافة العباسية وكان هذا على يد ابراهيم بن الاغلب . وحدث بعد ذلك ان استقلت الاطراف الشرقية للدولة الاسلامية في أيام المأمون وهكذا أخذت الاطراف البعيدة تسقط من الدولة تدريجا ولو ان هذا التساقط كان دائما تحت ستار الخضوع الاسمى للخلافة .

ولكن ماجاءت أواسط القرن التاسع حتى بدات انحاء الدولة تستقل بشكل مفزع وذلك منذ تسلط الجنود الاتراك على الخلافة واساءوا استعمال سلطتهم وأثاروا بها الاضطرابات المستمرة — فان الاطراف البعيدة شعرت عند ذلك بضعف المركز عن اظهار سلطته عليها وجعل حكامها يستبدون

بها وأخذ دعاة الشيعة يكونون فيها الدول مثل الدولة الفاطمية التى نشأت فى شمال أفريقيا منذ أوائل القرن العاشر . وكان الرؤساء الاتراك أنفسهم يعملون على الاستقلال ببعض انحاء الدولة كما حدث بمصر فان اول استقلالها كان على يد احمد بن طولون وهو أحد الاتراك الذين انتهزوا فرصة ضعف الدولة العباسية واضطراب أمورها فنزع مصر منها وأسس بها دولة مستقلة.

وقد نمت هذه الدول التى استقلت عن الدولة العباسية تدريجا حتى كان لبعضها شأن عظيم فى تاريخ العالم ولهذا نخصها بالذكر لنبين أهم مميزاتها وسنقتصر على ذكر الدولتين الكبريين اللتين كان لهما أكبر أثر فى التاريخ وهما دولتا الاندلس ومصر فانهما زادتا وعظم أمرهما حتى صارتا تضارعان الدولة الاسلامية الاصلية ( العباسية ) فى المجد وفي المدنية واذا ذكرت بغداد بصفتها عاصمة اسلامية كبرى فليس يقل عنها اسم مصر ( التى صارت فيما بعد القاهرة ) واسم قرطبة عاصمة الاندلس الكبرى . بل ان القاهرة بقيت عظيمة محتفظة بالمدنية الاسلامية بعد ان سقطت بغداد وحطم التتار مجدها القديم كما ان الاندلس بقيت بعد سقوط بغداد مثلا للمدنية المغربية العظيمة

# دولة الاندلس

## (من الفتح فى أوائل القرن الثامن الى أواخر القرن الحادى عشر )

دخل العرب الاندلس فى مدة خلافة الوليد بن عبد الملك كما مر وكانت جيوشهم مكونة من العرب ومن البربر سكان شمال أفريقيا وقد دفعت الحماسة الدينية جموعهم وهى الحماسة التى كانت فى قلوب المسلمين فى ذلك العصر فلم يقف فى سبيلهم جيوش القوط بل هزمت عند أول لقاء

في موقعه شريش سنة ٧١١[1] ثم توالت الفتوح بعد ذلك حتى فتحت العاصمة طليطلة واستمر تيار الفتح حتى صار كل شبه الجزيرة تقريبا خاضعاً لسلطان العرب الا الاقاليم الجبلية التى فى الشمال والشمال الغربى فقد كانت قديما معقلا حصينا للاجناس المغلوبة ، وقد تحصن بها بقايا القوط كما تحصن بها من قبل بقايا السويفى وقنع المسلمون منهم بالخضوع

وقد امتدت دولة العرب بعد ذلك شمالا كما رأينا حتى بلغت قصارى امتدادها أيام خلافة هشام بن عبد الملك ، وعند ذلك صدمت صدمة قوية فى موقعة تور سنة ٧٣٢ كما مر . ومن ذلك الوقت بدأت دولتهم فى شمال جبال البرانس تتقلص تدريجاً حتى استقر الأمر أخيراً باكتفاء العرب بشبه جزيرة أسبانيا إلى حدود الجبال الشمالية ( البرانس ) ولا يمكن أن نقول أن العرب بدأوا فى تكوين دولة مستقرة فى تلك الأيام فان الحرب لم تدع مجالا لبناء تلك الدولة ، ولهذا كان الولاة لايزيدون على كونهم قواداً للجيش وكان أكبر واجباتهم فى نظر الحكومة المركزية أن يمدوا الفتوح ويستمروا على الغزو ، فلما أن هزم العرب فى موقعة تور ، وتبين للخلافة الأموية أن سير الحروب والايغال فى الشمال لم يصبح من الأمور الهينة وأن دولة الفرنج أصلب عودا من دولة القوط بدأت فكرة الاستقرار تنمو وأخذ هشام يفكر

---

(١) يمكن أن يدرك القارىء أسباب ذلك الانهزام السريع من مراجعة تاريخ دولة القوط فقد كانت دولة تكثر بها المنازعات بين الإمراء على الملك وكان الحكام أقلية مكروهة من الأهلين لأنهم لم يتم اختلاطهم بدماء أهل الأندلس بل ظلوا أجانب إلى آخر الامر وكان الامراء القوط يخصون أنفسهم بكل ثروة البلاد ونعيمها فكان حكمهم ثقيل الوطأة على العامة

هذا إلى أن اليهود الذين كانوا بالاندلس إذ ذاك كانوا خاضعين لاضطهاد شديد جعلهم يساعدون على نصر العرب وقد كان اليهود عند ذلك من أكثر عناصر دولة القوط انتاجا ومهارة

فى الاستفادة باسبانيا من الوجوه السلمية ، غير أن المدة لم تطل بعد ذلك بالدولة الأموية بل نجحت الثورة العباسية ضدها وماحكمت الدولة العباسية حتى بدأ عصر جديد فى أسبانيا وذلك باستيلاء عبد الرحمن الداخل عليهاوهو الأموى الذى لجأ إلى الأندلس هرباً من اضطهاد العباسيين سنة ٧٥٥

العهد الأموى :

أطلق الخليفة العباسى ابو جعفر المنصور لقب ( صقر قريش ) على منافسه عبد الرحمن الداخل اجلالا له وتقديرا لعظمته فانه دخل الأندلس هاربا لاحول له ولا قوة معه فما مضى على حكمه بالاندلس سنوات معدودة حتى كانت قد صارت دولة قوية ناجحة تخشى بأسها الدولة العباسية الكبرى . وعبد الرحمن الداخل هذا هو أول سلسلة من الحكام الأمويين الذين تعاقبوا على الاندلس نحو قرنين ونصف من أواسط القرن الثامن إلى أوائل القرن الحادى عشر

وقد طال حكم عبد الرحمن الاول فانه حكم البلاد منذ استقر له الامر سنة ٧٥٦ الى سنة ٧٨٨ فلمامات ترك البلاد مستقرة ناجحة من جميع الوجوه حتى كانت الدولة العباسية تخشاها ولا تحاول التدخل فى أمورها يدل على ذلك ماقاله أبو جعفر المنصور « نحمد الله الذى جعل البحر بيننا وبينه » وكذلك كانت دولة الفرنج لا تجرأ عليها حتى فى أيام شارل الكبير نفسه . وصارت جبال البرانس هى الفاصلة بين الدولتين ولم ينجح شارلمان فى محاولة اختراق تلك الحدود بل هزم واضطر للارتداد عنها . وأما فى الداخل فقد بدأ عبد الرحمن يجعل لدولته عاصمة زاهرة وهى قرطبة التى صارت فيما بعد من أكبر عواصم الدول الاسلامية وكان عبد الرحمن ذا همة عالية وله قدرة كبرى على الالمام بتفاصيل الادارة فأقام نظاما جديدا لحكومة اسبانيا شبيها بما كان فى الحكومة الاسلامية فى الشرق مع الاعتداد بظروف

اسبانيا وطبيعتها . واجتهد أن يتجنب غلطات دولة القوط المنقرضة وذلك بتشجيع العرب على استعمار البلاد والعمل الانتاجي بها فبدأ ذلك الشعب القوي يعمل في الوجوه السلمية بنفس القدرة التي كان يبذلها في حروبه وبدأ يظهر من المسلمين العمال ورجال العلم والمنتجون المختلفون وكثر امتزاجهم بالأهلين حتى نشأ على توالي الزمن شعب جديد من امتزاج العرب والبربر وأهل اسبانيا .

غير أن دولته لم تكن سالمة من وجوه الضعف وأهمها الآتية :

(١) كانت هنالك بقية من القوط وسواهم من الشعوب المسيحية ملتجئة الى الجبال الشمالية وهؤلاء سيكونون فيما بعد نواة الدولة المسيحية الاسبانية التي ستطرد العرب من اسبانيا بعد إقامتهم بها أكثر من سبعة قرون ونصف .

(٢) كانت طبيعة الأندلس تساعد دائما على التفرق عند أول ظهور ضعف بالحكومة المركزية .

(٣) حل العرب بأخصب جهات الأندلس وأحسنها مناخا وبقي المسيحيون في الأقاليم الوعرة ذات الجو القاسي فكان هذا عاملا على تغيير مركز العرب أمام المسيحيين على مرور الزمن فأن وداعة حياتهم جعلت المسيحيين الشماليين الخشنين بعد مدة يتغلبون عليهم . وقد حاول المسلمون بالأندلس فيما بعد أن يسدوا نقصهم باستدعاء مساعدة المسلمين الخشنين في شمال افريقيا ولكن تلك المحاولات كانت لا تفيد الا مؤقتا ثم تغلب الطبيعة ويعود النصر الى جانب أهل الجبال الشمالية من المسيحيين

## عصر عبدالرحمن الأوسط

حكم بعد عبد الرحمن الأول اثنان لم يكونا في مثل قوته وهمته ولهذا هدد البناء الذي أقامه بالانهيار وقامت الثورات الداخلية وتحركت دولة الفرنج حتى نزعت من الاندلس برشلونه . ثم حكم عبد الرحمن الثاني وكان

من أكبر افراد الأسرة الأموية. حكم بين سنة ٨٢٢—٨٥٢ وامتاز عصره برجوع الاستقرار الداخلى والخارجى . وفى مدته بدأت تظهر أول ثمار المدنيه التى أقامتها الأسرة الأمويه بالأندلس وبدأ ظهور العلماء وأهل الفنون المختلفة في الأندلس وساعدت الطبيعة على ظهور نبوغ العرب هناك فان جمال المنظر وحسن المناخ وطيب الحياة جعلت للأدب الأندلسى جمالا يفوق جمال الأدب المشرقى وكان عبد الرحمن الثانى من اكبر الملوك ابهة فى بلاطه وجعل مقامه فى قرطبة آية من آيات الفخامة حتى كان سفراء الدول المسيحية يذهلون مما يشاهدون فيه من آثار الغنى والنبوغ الفنى . وقد حاول عبد الرحمن الأوسط بهذا ان يقاوم ضغط الفرنج على حدوده بمصادقة دولة الروم الشرقية المنافسة للفرنج

وقد وقعت فى ايامه اغارات النرمان على شواطىء الاندلس الغربية والجنوبية ولكن قوة الدولة لم تجعل لهذه الاغارات أثرا كبيرا بل ردت بسهولة وتعرف هذه الاغارات عند العرب باغارات ( المجوس )

## عبد الرحمن الثالث ( الناصر )

اضطربت أمور اسبانيا بعد عبد الرحمن الثانى وظهرت فيها عوامل الضعف التى بيناها من قبل . وكان يلوح ان تلك الدولة لن تلبث طويلا حتى يتقوض اساسها إلى ان ولى الحكم عبد الرحمن الثالث او الناصر الذى حكم بعد فوضى طويلة سنة ٩١٢ . وقد طال حكمه إلى سنة ٩٦١ ، وكان لاشك اكبر ملوك اسبانيا وفى ايامه بلغت عظمتها اوسع مداها

وقد كان معاصرا لعصر استبداد الجنود الأتراك فى الدولة العباسية وأدرك في آخر حكمه عهد الديالمة ، وكذلك كان فى أيامه ظهور الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا . وأما فى أوربا فقد كان معاصرا لأول ظهور العهد الاقطاعى ودوله

اتخاذه لقب الخلافة

قد اتفق فى عهد الناصر أن ظهر ضعف الخلافة العباسية فى الشرق وقامت لها منافسة فى شمال أفريقيا وهى الدولة الفاطمية التى اتخذ رؤساؤها لقب الخلافة وصاروا يناوئون العباسيين بكل ما استطاعوا ، وكان الناصر إذ ذاك فى أسبانيا يرى دولته جديرة بأن تكون فى المحل الأول بين الدول الاسلامية فاتخذ هو الآخر لقب الخلافة وصار فى العالم الاسلامى ثلاث خلافات ( العباسية فى بغداد والفاطمية بأفريقيا والأموية بالأندلس ) وقد كان الناصر جديرا بكل عظمة فانه منذ ولى الحكم أعاد إلى الأندلس أمنها الداخلى الذى اضطرب بعد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت له مشاغل عدة أهمها :

(١) ضغط الفرنج من شمال جبال البرانس ولا سيما بعد أن أخذوا برشلونه .

(٢) بدء ظهور الأمارات المسيحية فى الأقاليم الجبلية الشمالية حتى لقد صارت تلك الأمارات الشاغل الأكبر للدولة الاسلامية بالأندلس

(٣) ميل الأمراء المسلمين إلى التفرق ومساعدة طبيعة الأندلس على ذلك التفرق فكان الناصر دائما متنبها إلى ذلك الميل ليقاومه بكل وسيلة خوفا على وحدة الدولة .

(٤) منافسة الدول الاسلامية الأخرى ولا سيما دولة الفاطميين فى شمال افريقيا وكان معاصره الخليفة الفاطمى العظيم المعز لدين الله .

ولكن الناصر مع كل هذه المشاغل نجح كل النجاح فى حفظ دولته وتنمية كل مواردها ، وفى أيامه أينع غرس عبد الرحمن الأول وعبدالرحمن الثانى وصارت قرطبة عاصمة الاندلس تنافس بغداد وتفوقها فى جمال التنسيق ورقى الصناعة والفنون وازدهار الآداب . وكانت مبانى الناصر مما يضرب

بها الأمثال في الجمال والعظمة ولا سيما ضاحية الزهراء التي بناها بجوار قرطبة

على أن هذه العظمة كان يظهر من خلالها وجوه الضعف المختلفة التي كانت في أساس الدولة ولم تكن دولة الأندلس لتبقى موحدة عظيمة الا ما دام الحاكم مثل الناصر في قوته ولهذا يمكن أن نعتبر عصر عبد الرحمن الناصر قصارى مجد الأندلس وبدأ بعده عصر الهبوط . وكان من أكبر ما يدل على أن عصر الهبوط سيعقب عصر الناصر أن ذلك الخليفة العظيم اضطر أن يتخذ جنودا مرتزقة من الأجانب ليستعين بهم على دفع أخطار الاغارات ولا سيما اغارات مسيحيي الشمال .

وكانت اغارات المسيحيين في الشمال هي أكبر مشاغل الدولة بعد أيام الناصر وتضاءلت إلى جانبها الأخطار الخارجية من دول الفرنجة والفاطميين فان دولة الفرنجة منذ أواخر القرن العاشر كانت في شغل من أمرها وتنازع أمرائها الاقطاعيين كما أن الفاطميين بعدوا عن الأندلس منذ فتحوا مصر واستوطنوا بها . وبعد موت الناصر ظل الأمر مندفعاً بقوة حكمه مدة خلفه الحكم الثاني ولكن بعد ذلك بدأت الأخطار تظهر واضحة من قبل الشمال حتى أن وزير الدولة ( محمد بن أبي عامر المنصور ) اضطر أن يأخذ الأمر في يده من الخليفة الطفل الذي خلف الحكم الثاني وهو ( هشام الثاني ) وقضى كل حياته في حروب مستمرة مع تلك الأمارات المسيحية وفي هذا ما يدل على الخطر الكبير الذي أصبح يهدد الأندلس من تلك الناحية

وبعد موت المنصور استمر ابنه عبد الملك على سياسته وكان في الأندلس حزبان حزب مشايع لبيته وحزب آخر مشايع لبيت الخلافة وقد أدى هذا إلى خلاف داخلي عرض الدولة للأخطار التي كانت دائما ماثلة تهددها فبعد موت عبد الملك سنة ١٠٢٩ انتهز الأمراء الفرصة واستقل كل منهم في واديه

أو اقليمه وأكبر هؤلاء أمراء أسرة ( بنى عباد ) فى اشبيلية وأسرة ذى النون فى طليطلة وأسرة بنى هود فى السواحل الشرقية . ويعرف هؤلاء بملوك الطوائف وبذلك انفرط عقد الدولة وصارت قطعا شبيهة بالأمارات الاقطاعية التى كانت بأوربا فى ذلك العصر . وقد كان من الطبيعى أن يشتد عزم المسيحيين فى النضال مع المسلمين بعد هذا الانقسام وهذا ما حدث. فعلا حتى أن بعض الأمراء المسلمين رأى أن يستعين على صد المسيحيين بالمسلمين االذين فى شمال افريقية وكانت قد قامت دولة هناك بعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر وهى دولة المرابطين

على أننا يجب ألا ننسى أن نمو الأدب والفن والعلم والصناعة لم يتأثر بذلك الانقسام بل لقد استمر وزاد مع ضعف الدولة الحربى وانقسامها السياسى وكان ملوك الطوائف من أكبر العاملين على ذلك النمو حتى لقد يمكن أن يقال أن أزهى عصور الأدب والفنون والعلوم والمدنية بالأندلس كان ذلك العصر الذى تقسمت فيه الدولة وضعفت قوتها الحربية .

## دولة المرابطين أو الملثمين

بعد انتقال الفاطميين إلى مصر بقى شمال افريقيا تابعا لدولتهم مدة نحو قرن إلى أن ضعفت رقابتهم على تلك الأرجاء البعيدة فبدأت تتكون هناك دول جديدة أساسها قبائل البربر والعرب الضاربة هناك وكانت أولى هذه الدول دولة المرابطين وسميت بذلك الاسم لأن منشأها فرقة دينية جعلت أهم مبادئها الجهاد أو ( المرابطة ) ولعل فى ذلك الاسم صلة بالآية القرآنية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »

وقد شجع الخلفاء العباسيون هذه الدولة الناشئة لتكون منافسا يضعف من شأن دولة الفواطم في شمال افريقيا كما يقاوم نفوذ الأندلس هناك .. وكان الفواطم منذ أواسط القرن الحادى عشر قد بدأوا في الاضمحلال

السياسى ومنذ ذلك الحين أخذ ظل دولتهم يتقلص تدريجاً عن الأطراف من الشرق والغرب فى حين أن الدولة العباسية كانت على عكس ذلك منذ أواسط القرن الحادى عشر فقد أعيد اليها مجدها الحربى على يد المتسلطين عليها إذ ذاك وهم السلاجقة . فقيام دولة المرابطين كان معاصرا لدولة السلاجقة ونهضة الخلافة العباسية فى الشرق واضمحلال دولة الفواطم والدولة الأندلسية وبينما كان السلاجقة يعيدون مجد الدولة العباسية ويغزون بلاد دولة الروم الشرقية ويهددون قسطنطينية دعيت دولة المرابطين لمساعدة بعض ملوك الطوائف ( بنى عباد ) ضد المسيحيين الذين كانوا يهددون الأندلس الاسلامية منذ تفرقت وتقسمت . وكان أمير المؤمنين في دولة المرابطين اذ ذاك يوسف بن تاشفين أكبر ملوك هذه الدولة فعبر إلى الأندلس تلبية للدعاء وهزم المسيحيين الذين كانوا على أبواب اشبيلية فى موقعة الزلاقه سنة ١٠٨٦

غير أن المرابطين لم يعودوا بعد ذلك إلى صحارى شمال افريقيا بل أزالوا ملك بنى عباد وملكوا الأندلس الجنوبية وجعلوها مقر حكمهم جاعلين شمال افريقيا قطرا تابعاً .

وقد كان حكم المرابطين بالأندلس بدء اضمحلال تلك المدنية الزاهرة التى قامت هناك على طول ثلاثة قرون منذ أواسط القرن الثامن فان مجيء جيوشهم فاتحة إلى الأندلس كان صدمة عنيفة للتقدم المدنى الذى كان لا يزال مستمرا إلى أيام ملوك الطوائف .

## مصر

( منذ الفتح فى أواسط القرن السابع الى أواخر القرن الحادى عشر )

فتح العرب مصر ( سنة ٦٤٠ — سنة ٦٤١ ) وحلوا بها مقيمين وجعل عليهم عمرو بن العاص واليا فاتجه فى سياسته نحو تكوين دولة شبه مستقلة

فى قلب الدولة الاسلامية الكبرى وكان يقصد أن يجعلها قطرا ناجحا ويصلح ما كان فاسدا فى أيام الرومانيين وقد كان أكثر أهل البلاد بطبيعة الحال من المصريين الاصليين المسيحيين وحل العرب بينهم جيشا حاميا وحكاما ولم يتدخلوا فى بدء الأمر فى الزراعة والتجارة وسوى ذلك من وجوه التماس الرزق وقد أدرك عمرو أن المصريين أدرى بالحكم وأساليبه فى بلادهم وأنهم على مدنية أرقى من مدنية العرب إذ ذاك فلم يحاول أن يغير شيئا الا فى وجوه الاصلاح المادى .

غير أن سياسة عمرو لم تلق نجاحا لمعارضة سيدنا عثمان ثم جاءت فترة الاضطراب بين الامام على ومعاوية فلم يكن لمصر فيها عند ذلك سياسة مدنية حتى استقر الأمر أخيرا على خلافة معاوية وحده وكانت مصر نصيب عمرو بن العاص مكافأة له على المساعدات الكثيرة التى أداها لمعاوية أثناء النضال وعند ذلك استطاع عمرو أن يبنى سياسته على أساس دائم وقد استمر الحكم فى بيته مدة إذ تولى بعد موته ابنه غير ان الأمر عاد الى سياسة أخرى وهى أن تكون مصر جزءا لا يختلف عن سائر الجهات فى شدة اتباعه للحكومة المركزية ومنذ ذلك الوقت قلت مكانتها السياسية فلم تكن أكبر من أى قطر آخر من اقطار الدولة طول مدة الامويين ومدة العباسيين الأولى .

وكان فى تلك الاثناء يحدث فى مصر تطور عظيم فان العرب نزحوا اليها واستقروا بها وأخذوا يشتغلون بالفلاحة والتجارة والصناعات بعد أن عدلت الحكومات الاسلامية عن منع العرب من الاشتغال بذلك ومن جهة اخرى كانت هناك مرغبات كثيرة فى دخول المصريين الاصليين فى الاسلام ومن أكبر هذه المرغبات أن تكون لهم الحقوق المدنية والسياسية التى كانت للمسلمين ومن هذا وذلك بدأ اهل مصر يكونون خليطا متعادلا

من المسلمين والمسيحيين ثم بدأ عدد المسلمين يزيد تدريجيا حتى كان يمكن أن يقال أن مصر صارت قطراً اسلامياً فى حكم عبد الله بن طاهر الحاكم من قبل المأمون العباسى

وكانت المعاشرة المستمرة والمصلحة المشتركة اكبر عامل على تقريب ما بين العناصر المقيمة بمصر حتى صار هناك شعب جديد يمكن أن نطلق عليه اسم الشعب المصرى الجديد منذ أواسط القرن التاسع

وقد كان من الطبيعى لمصر دائما ان تكون دولة مستقلة لوقوعها منعزلة عن جميع الجهات المجاورة بفواصل طبيعية من الصحراء والبحار ولولا قوة الحكومات المركزية الاسلامية لما كانت مصر تبقى خاضعة لها وقد زاد الميل الى الاستقلال منذ تولد الشعب المصرى الجديد من اختلاط العناصر القديمة واتفق منذ اواسط القرن التاسع ان اضطربت أمور الحكومة العباسية المركزية منذ استولى الجنود الاتراك على امورها واساءوا استعمال سلطتهم كما ذكرنا من قبل فلاحت الفرصة للاستقلال ولكن ذلك الاستقلال تحقق على ايدى حكام من الاتراك الذين توالوا على مصر منذ اواسط القرن التاسع من بعد حكم الوالى عنبسة آخر عربى حكم مصر . وكان اول عهد مصر بحركة الانفصال عنـد ما تولى عليها احمد بن طولون

## الدولة الطولونيه (٨٦٨ — ٩٠٥)

نشأ احمد بن طولون فى ( سرمن راى ) فى جيش الاتراك وقد ساعده الحظ أذ تولى ( بيكباك ) الأمير التركى على مصر فأرسله بدله ليحكم ذلك القطر ومن حسن حظه أنه بعد وفاة بيكباك ولى على مصر ( برجوج ) حمو احمد بن طولون فزادت قدمه رسوخا فى البلاد وقوى نفوذه فيها حتى

أنه عند ما تغير الحاكم الاسمى على مصر لم يلق صعوبة فى مقاومة الحكومة المركزية (العباسية) والوقوف فى وجهها مخالفا معلنا استقلاله منها .

ويمكن النظر الى اعمال ابن طولون من جهتين الاولى جهة الداخل والثانية جهة الخارج .

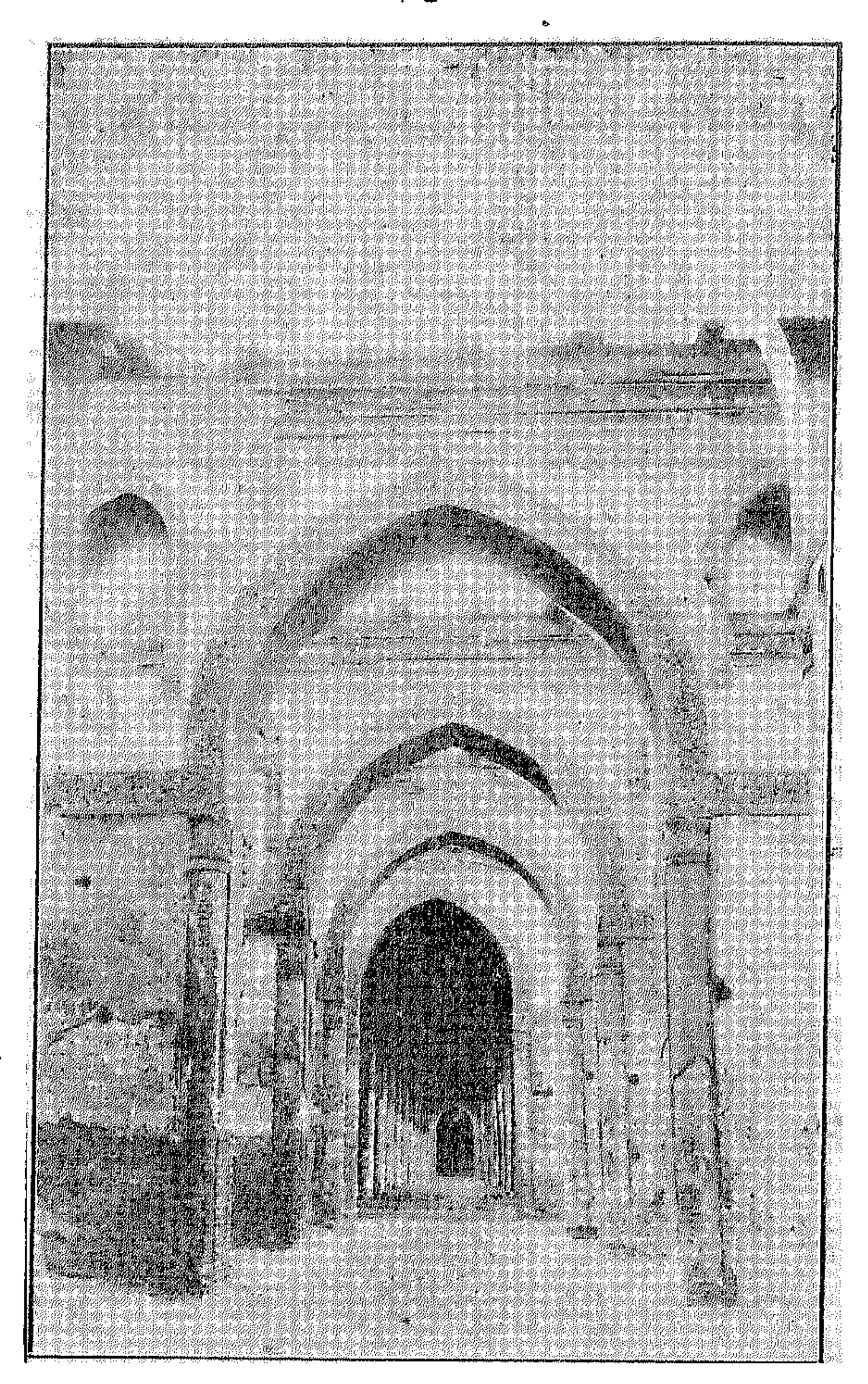
أما فى الداخل فقد ادخل كثيرا من وجوه الاصلاح ولا سيما توحيد الادارة وقد كانت ادارة مصر فى أشد الحاجة الى اصلاحه لتعدد الرؤساء ورغبة كل منهم أن يكون له أكبر الأمر . ثم جعل ايراد مصر لها ومنع ارسال الخراج الى الخلافة فحدث عند ذلك خلاف بينه وبين الموفق أخى الخليفة وكان عند ذلك صاحب السلطة فى بغداد ولكن ابن طولون خرج منه سالما وأصبح مستقلا بالمعنى الحقيقى منذ ذلك الحين عن الدولة العباسية سنة ٨٧٢

وقد ادخل من وجوه الاصلاح الأخرى شيئا كثيرا مثل اصلاح مقياس النيل وتشجيع ملكية الفلاحين للأراضى وتقليل الضرائب الباهظة التى كانت تجبى قبله .

وزيادة على هذه الاصلاحات المادية قام باصلاحات أخرى مثل تجميل العاصمة فبنى لنفسه ضاحية جديدة لأنه رأى العاصمة السابقة (العسكر) غير كافية له ولجنوده وسمى الضاحية الجديدة القطائع (وموضعها الآن قلعة الكبش بالسيدة زينب) وبنى لنفسه مسجدا لا يزال الى الآن باقيا وهو من الخطوات الاولى فى سبيل تكوين فن مستقل فى البناء [١].

---

(١) لم تؤخذ أعمدة جامع ابن طولون من المبانى القديمة بل بنيت بالآجر كما أن القباب ذات العقد المدبب كانت الأولى من نوعها تقريبا فى مصر . وتمتاز مأذنه ذلك المسجد بشكلها الحلزونى من الخارج الذى يشبه بناء فى ( سرمن راى )



( شكل ٦ ) مسجد ابن طولون

وأما فى الخارج فان ابن طولون منذ استقل بدأ يفكر فى أن سلامته تتوقف على ابعاد حدوده بقدر المستطاع ولهذا بدأ يغير على الشام ليجعلها بينه وبين منافسه الكبير ( الموفق ) وقد بدأ حروبه منذ سنة ٨٧٨ ولم يلق صعوبة تذكر حتى بلغ انطاكية واكناف آسيا الصغرى فى أقل من عام واحد . وقد كانت فتوحه هذه مدعاة للاحتكاك المستمر مع جيوش الدولة

العباسية من جهة والدولة الرومانية من جهة أخرى فكان ابن طولون دائما في شغل من تلك الحروب وقد مات فى احداها سنة ٨٨٤ قبل أن يكمل سن الخمسين .

وخلفه ابنه خمارويه وهو فتى منعم منصرف الى الترف فبدأت الدولة تهتز للسقوط ولكنها لم تسقط فعلا فى مدة حياته فانه مع ترفه أمكنه بعد حين أن يقود جيوشه للمحافظة على بلاده فى الشام ولعل تحسين علاقته مع الخليفة المعتضد الذى ولى الخلافة عندئذ هو الذى ساعد على بقاء دولته له وقد كان من آثار ذلك التحسين زواج الخليفة من ابنة خمارويه (قطر الندى) وقد كان ذلك الزواج فرصة لكى يظهر خمارويه ترفه وغناه فيما أعدلها من جهاز وهدايا [١] وقد كان طريق سيرها من مصر لبغداد ممهدا وبه عند كل مبيت منزل بنى لاستقبالها .

وقد كان خمارويه فى سياسته الداخلية عاكفا على توفير وسائل النعيم لنفسه فلم يجدد اصلاحا ولم يقم باعمال عامة بل كانت كل أعماله مقصورة على دائرة حياته الخاصة بين بناء قصور وحدائق بها أنواع الوحوش وا تخذ لنفسه بحيرة من الزئبق لكى ينام عليها يحرسه أسد من آساده . ولكن ذلك لم يغن عنه من الموت فقتله بعض مماليكه فى دمشق سنة ٨٩٦ .

وبموت خمارويه يمكن أن يقال ان دولة الطولونيين قد انتهت . فان ابنه (أبو العساكر جيش) لم يحكم الا أشهراً ثم عزله قواد الجيش وتبعه أخوه الاصغر (أبو موسى هرون) ولكنه قتل سنة ٩٠٤ . قتله عماه وتولى أحدهم (شيبان) مكانه ولكن الجيش ثار عليه واستدعى جيوش الخليفة فدخلت مصر سنة ٩٠٥ وأزالت آثار تلك الدولة الصغيرة التى لم تحكم الا سبعا وثلاثين سنة . وفى أثناء هذه الفوضى كانت كل ممتلكات مصر فى الخارج

---

(١) يقال أن نفقات ذلك الجهاز بلغت مليون دينار

قد سقطت عنها وزال أثر الطولونيين كأن لم يكن — ولكن مهما يكن من الامر فقد كانت هذه المحاولة الاولى فى سبيل تحقيق استقلال مصر وهى توجيه لذلك القطر الى الوجهة التى كان من الطبيعى أن يسير نحوها .

وقد بقيت جيوش الخلافة العباسية فى مصر نحو ثلاثين سنة وصار الخلفاء يرسلون الولاة من قبلهم الى مصر وهم من رؤساء الاتراك فيسيئون الحكم وما كانوا ليحسنوا وهم فى عصر استبد به الجنود الاتراك بالخلافة نفسها وأفسدوا فى حكمها واستمر الامر كذلك الى ان أرسل محمد ابن طغج الاخشيد واليا وهو من الاتراك ولكنه كان من أفذاذهم . وهو صاحب المحاولة الثانية فى تحقيق استقلال مصر

## الدولة الاخشيدية (٩٣٥ — ٩٦٩)

اتفق فى مدة الفترة بعد انتهاء الدولة الطولونية وفى اثناء وجود جيوش الخلافة العباسية بمصر ان قامت فى شمال افريقية دولة جديدة وهى دولة الفاطميين وقد حاولت تلك الدولة الجديدة منذ تأسيسها ان تفتح مصر وقد استولوا فعلا على الاسكندرية والفيوم مدة طويلة حتى تمكن الجيش أخيرا من الدفاع عن مصر وقد كان محمد ابن طفج فى بعض هذه المدة حاكما على الشام وقلده الخليفة ولاية مصر زيادة على ولاية الشام فصار منذ سنة ٩٣٣ حاكما على القطرين ثم انتقل الى مصر منذ سنة ٩٣٥ . ومنذ انتقل الى مصر بدأ يكون دولته الجديدة . ولم يكن من الطبيعى ان رجلا قادرا مثل محمد ابن طغج يبقى متصلا بالدولة العباسية التى كانت عند ذلك فى أحط حالات الاضطراب فقد بلغ من أثر استبداد الجنود الاتراك بالخلافة ان استقلت أطراف بلادها وتنازع الامراء فى كل جهة على أقاليمها المختلفة ينزعونها ويقيمون فيها دولا مستقلة وكان بجوار دولة الاخشيد جماعة من

الامراء يحاول كل منهم الاستقلال وتوسيع رقعة بلاده وأكبر هؤلاء هم الحمدانيون ( وهم أسرة عربية فى شمال الشام عند حلب ) وابن رائق (فى بلاد الجزيرة الغربية) وكان هؤلاء ينفسون على الاخشيد ولاية الشام ومصر وجرتهم هذه المنافسة الى حروب طويلة معه وقد كان الاخشيد مهددا كذلك من جهة الغرب بالفاطميين الذين رسخت قدمهم فى هذه الاثناء وصارت خلافتهم ذات شأن فى العالم الاسلامى ولولا ثورات داخلية فى بلادهم لكانت اغاراتهم المتواصلة تقضى على دولة الاخشيد بمصر فى أول أمرها

ومع أن الاخشيد كان محاطا بهذه الاعداء تمكن من المحافظة على دولته بجيش كبير منظم على أنه لم يستطع أن يملك كل الدولة التى ملكها احمد ابن طولون فانه اضطر الى التنازل على شمال الشام للحمدانيين ودفع لهم جزية سنوية عن جنوب الشام الذى كان فى يده . وقد تنازل كذلك عن كثير لابن رائق . والحق أن الاخشيد كان رجلا مسالما فى علاقاته الدولية فكان يؤثر أن يقف الحروب ولو بالتنازل عن بعض اطماعه . وكان عذره فى ذلك واضحا وهو كثرة الاعداء المحيطين به . ولم يتفرغ الاخشيد إلى كثير من الأعمال الداخلية ولهذا لم يعرف لدولته من الأعمال مثلما عرف لدولة الطولونيين. ولم يتخذ الاخشيد لنفسه ضاحية كما اتخذ احمد بن طولون اللهم الا بعض القصور الخاصة

ومما يستدعى الاهتمام أن المصريين فى مدة الاخشيد كانوا قد أصبحوا شعباً مشتركا فى مظاهر الحياة ويدل على ذلك ماذكره المؤرخ (المسعودى) عن يوم عيد الغطاس اذ قال « ان المصريين خرجوا ذلك اليوم بين مسيحيين ومسلمين إلى النيل يركبون القوارب ويسيرون على شواطىء النهر وهم جميعا فى سرور بالعيد فى حلل زاهية وزينة من حلى وجواهر يقصفون ويغنون ويلهون الخ » وقد مات محمد بن طغج فى سن كبيرة فوق الستين سنة ٩٤٦

بعد حكم إحدى عشرة سنة ودفن فى بيت المقدس .

وبعد موته آل الحكم اسميا إلى ابنه الأكبر وهو ( أبو القاسم أنوجور ) ثم إلى أخيه وهو أبو الحسن على ولكن الحقيقة أنهما لم يحكما بل حكم باسمهما الخصى ( أبو المسك كافور ) وهو عبد حبشى لابن طغج آلت اليه الوصاية على ابن الاخشيد القاصر فتولى الحكم بنفسه تاركا لابن الاخشيد مرتبا ضخما يتمتع به فى حياة ترف بعيدا عن الحكم . فلما مات أبو القاسم أنوجور سنة ٩٦١ استمر كافور على الحكم باسم أبى الحسن على مع أنه كان راشدا ولما مات هذا بعد قليل سنة ٩٦٥ صار أبو المسك كافور واليا على مصر من قبل الخليفة الذى اعترف بولايته وقد كانت سياسة كافور شبيهة بسياسة سيده الاخشيد إلا أنه لم يكن محاربا وقد استطاع على كل حال ان يحتفظ بالدولة الصغيرة التى خلفها الاخشيد خارج حدود مصر امام منافسيه ولا سيما الحمدانيين . وقد اشتهر كافور فى عالم الادب لان شاعراً من أكبر شعراء العربية مدحه أولا رجاء أن يحصل منه على ولاية أقليم من الاقاليم المصريه فلما لم ينل بغيته ذمه بقصائد بديعة فى باب الهجاء . وذلك الشاعر هو المتنبى

وقد كان كافور فى حياته الخاصة يحب البذخ والابهة ومع ذلك فقد كانت خزائن البلاد عامرة وهذا يدل على أن الأستقرار والامن فى هذه المدة قد أحدثا أثرهما فى انماء ثروة البلاد .

وقد مات كافور سنة ٩٦٨ واختير بعده طفل من ابناء الاخشيد ولكن تنافس رجال الدولة عند ذلك أدى الى ثورات داخلية لم تفت عين الخليفة الفاطمى الرقيبة فان المعز لدين الله الخليفة الفاطمى انتهز هذه الفرصة لكى يتم ما عجز عنه اسلافه من فتح هذا القطر الغنى فلما لاحت له الفرصة لم يتركها تفلت بل أرسل جيوشه الى الشرق ولم يمض عام حتى كانت الجيوش الفاطمية فى داخل مصر ( سنة ٩٦٩ ) .

وقد كانت مدة المحاولات الأولى نحو الاستقلال منذ أيام ابن طولون الى ان استولى الفواطم على مصر نحو قرن وعام ( ١٠١ سنة ) ومن ذلك فترة ثلاثين سنة تتوسط بين عصر الطولونيين والاخشيديين

واذا كانت هاتان الدولتان محاولتين أو ليتين نحو الاستقلال فقد بلغ الاستقلال تمام نضوجه فى أيام الدولة العظيمة التى حلت بعد ذلك فى مصر وهى الدولة الفاطمية وفى أيام الدول الكبرى التى جاءت بعدها .

## الدولة الفاطمية — ( العصر الاول ٩٦٩ — ١٠٩٤ )

أخذ العباسيون الصدارة فى الدعوة ضد الأمويين وصارت الخلافة لهم سنة ٧٥٠ وقد كانت الدعوة اولا فى بيت الرسول وأقرب الناس الى الرسول أبناؤه ولم يكن للرسول نسل الا الذين ينتسبون الى على ابن عمه وفاطمة ابنته ومن ذلك نشأ تنافس شديد بين بيت العباس وبيت على وكان العباسيون يخشون تلك المنافسة خشية جعلتهم يوقعون بكل من يظهر عليه الميل الى تفضيل العلويين . فخشى هؤلاء من الظهور وجعلوا يحاولون الوصول الى غرضهم سرا ومن ثم نشأت الدعوة العلوية السرية التى كانت فى أول امرها دعوة سياسية محضة ثم داخلتها أغراض وحاول الدعاة العلويون أن يزيدوا من التأثير على العامة ليميلوهم إلى دعايتهم فأدخلوا فى ثنايا دعوتهم السياسية بعض العقائد الغريبة فنما على توالى الزمن حزب علوى قائم على دعوة سياسية دينية فى آن واحد ويسمى بحزب الشيعة وقد اختار دعاة الشيعة العلويون الأطراف البعيدة لبث دعوتهم وكانت افريقيا بطبيعة الحال من أفضل الميادين لتلك الدعوة . وهناك قامت دولة علوية فى القرن التاسع وهى الدولة الادريسية التى ينتسب رؤساؤها إلى الحسن بن على ثم بدأت دعوة علوية جديدة فى اوائل القرن العاشر انشأت دولة وهى الدولة

الفاطمية وسميت بذلك انتسابا إلى السيدة فاطمة بنت سيدنا الرسول وأصل دعاة تلك الدولة من شعبة من الشعب العلوية الكثيرة واسمها الاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل الامام السابع من الأئمة العلويين المتناسلين من الحسين بن على — فأن الأحزاب العلوية تتجاهل الدول التى قامت فى الاسلام ولا تعتد بعد الرسول إلا بأن عليا هو الحاكم الشرعى الذى كان يجب أن يحكم ويعدونه الامام وبعد وفاته لايعتدون إلا بابنائه متجاهلين كل الحكام الذين توالو على الدولة الاسلامية . وقد كانت للفرق الشيعية العلوية عقائد عجيبة من بينها عقيدة ( المهدى ) وقد استغلوا الحوادث تمهيدا لهذه الفكرة ومن ذلك ان الامام اسماعيل اختفى ولعله قتل فقال الشيعة أنه اختفى من العالم لكى يظهر فيما بعد إذا حان وقته ليطهر الارض ويملأها عدلا بعد أن تكون قد ملئت جوراً وقد استغلت فكرة ( المهدى ) مراراً وكان ممن استغلها الدعاة العلويون الفاطميون فى شمال افريقيا . وكان أكبر هؤلاء الدعاة أبوعبد الله الشيعى الذى ذهب إلى هناك فى زى تاجر فى أواخر القرن التاسع ونزل فى قبيلة كتامه من قبائل البربر ومازال يؤثر فيهم بمهارة حتى صار له منهم ومن سواهم نحو مائتى الف تابع قادر على الحرب ومن ذلك الوقت بدأ أبو عبد الله يؤسس دولة على أساس دعوته . وكان فى شمال أفريقيا إذ ذاك دولتان دولة الادارسة فى مراكش ودولة بنى الأغلب فى مكان تونس الحالية . فبدأ بالقضاء على دولة بنى الأغلب سنة ٩٠٨ وعقب ذلك أعلن أن الامام هو عبيد الله المهدى الفاطمى وبدأت من ذلك العهد دولة الفاطميين .

على أن كثيرين من المؤرخين يطعنون فى أبى عبد الله الشيعى وفى اغراضه من الدعوة كما أنهم يطعنون فى صحة نسب عبيد الله المهدى إلى على وفاطمة ومهما يكن من الأمر فان الدعوة نجحت نجاحا عظيما وما أتت سنة ٩١٠

حتى كان اسم عبيد الله المهدى يذكر على منابر القيروان ويطلق عليه لقب الخليفة أمير المؤمنين .

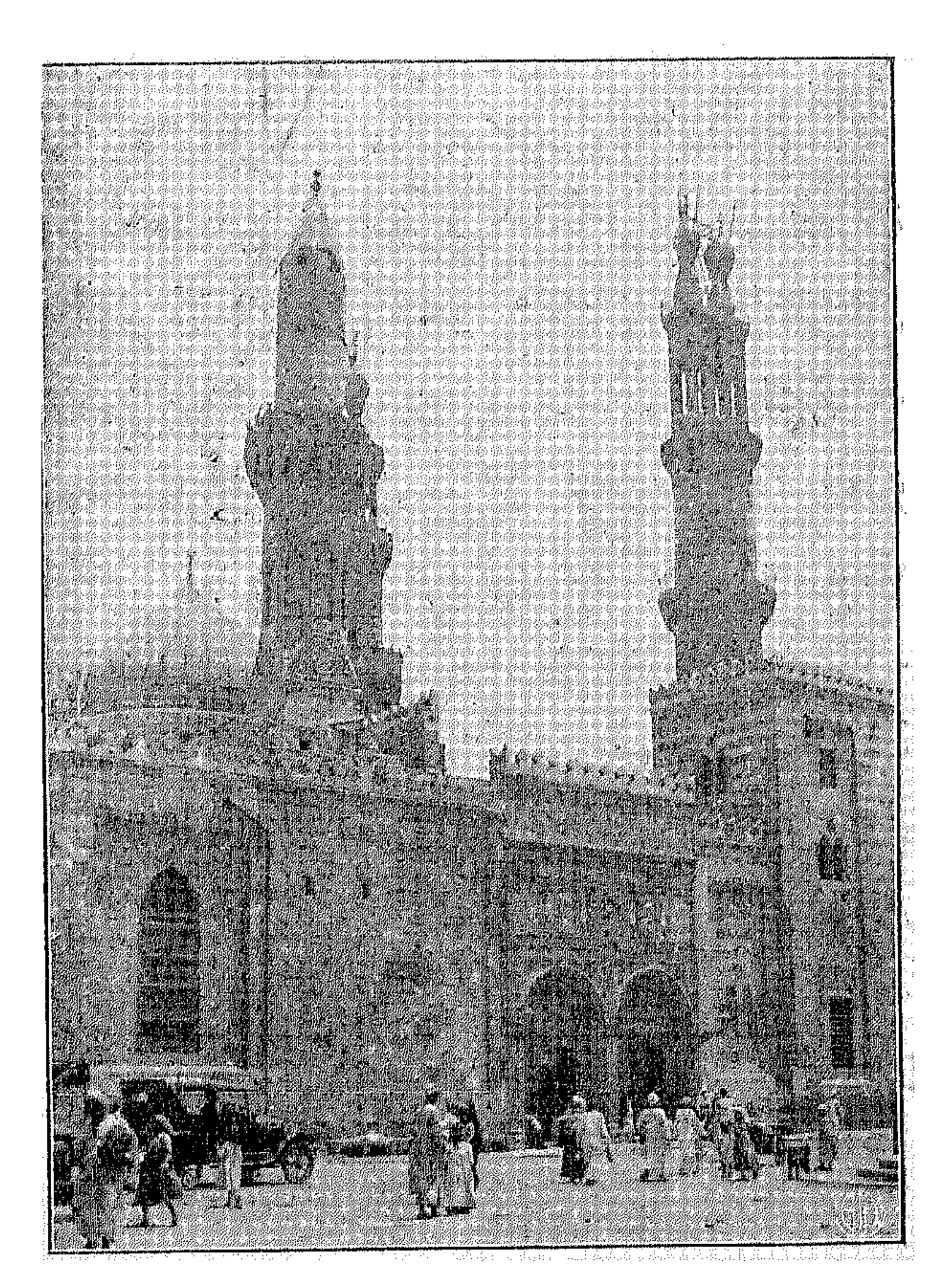
ومنذ قامت هذه الدولة جعلت تمتد شرقا وغربا حتى بلغت حدود مصر كما قدمنا ولم يقتصر غزوها على بلاد شمال أفريقيا بل أخذت تجهز أسطولا لغزو بلاد البحر الأبيض المتوسط ولا سيما المسيحيين .

ويتفق قيام هذه الدولة مع الاضطراب الذى أعقب دولة الطولونيين بمصر كما قدمنا كما أنه يتفق وأيام الاضطراب الكبير فى بغداد الذى كان فى عصر استبداد جنود الأتراك أولا ثم عصر تسلط الديالمة (بنى بويه) ثانيا وقد أصبح فى العالم عند ذلك خلافات ثلاث كما مر احداها العباسية ببغداد والثانية هذه الخلافة الناشئة والثالثة خلافة عبد الرحمن الناصر ( الثالث ) الأموى الذى كان إذ ذاك يحكم بلاد الأندلس .

وقد طال حكم عبيد الله المهدى ( ٩١٠ — ٩٣٤ ) وتمكن فى مدته من تأسيس حكومة قوية ومن العجيب أنه قتل أكبر دعاته كما قتل العباسيون اكبر دعاتهم ( أبا مسلم الخراسانى ) خوفا من نفوذه المتزايد . ولم يكن فى العصر الأول من دولة الفواطم أثر كبير لقيام مدنية عظيمة بل كان كل هم الدولة منصرفا الى التأسيس والتوسع الحربى وذلك يشغل مدة الخليفة الثانى القائم بأمر الله وقد حدثت فى أيامه ثورة هددت وجود الدولة وكانت موجهة ضد الدعوة الشيعية ومذهبها ولم يخب ثارها الا فى أيام الخليفة الثالث ( المنصور ) . فلم يبدأ استقرار الأمر الا فى مدة الخليفة الرابع ( المعز لدين الله ) العظيم الذى حكم مابين ( سنة ٩٥٣ — ٩٧٥ ) وكان معاصرا لدولة الناصر ومن خلفه بالأندلس وشهد اضطراب مصر بعد موت الأخشيد ثم كافور الاخشيدى وشهد قيام دولة البويهيين فى بغداد ففى مدته كانت الاحزاب الشيعية هي السائدة على العالم الاسلامى من المحيط

الاطلسى الى بغداد ذاتها ولم يكن المعز مثل من سبقه مشتغلا بتأسيس الدولة أو الدفاع عن حياتها بل وجد دولة مستقرة وكان عظيما فى خلقه عالما أديبا يكتب الشعر والنثر الجيدين ويعرف كثيرا من اللغات المتداولة فى وقته وكان خطيبا مؤثرا كما كان سياسيا ماهرا يعرف متى يشتد ومتى يلين فى المعاملة وكان أكبر اعمال حياته فتح مصر وقد لاحت له الفرصة منذ سنة ٩٦٨ فاخذ يستعد بجميع المال والرجال وحفر الآبار فى طريق مصر وأخيرا أرسل حملته العظيمة بقيادة جوهر الصقلى ( وأصله مملوك من جزيرة صقليه ) وكانت عدتها نحو مائة الف رجل وبدأت سيرها من القيروان فى أوائل سنة ٩٦٩. ولم تلق تلك الحملة مقاومة تذكر لاضطراب أمور مصر وخلوها من حاكم يقدر على الوقوف فى وجه ذلك الجيش وكان جوهر رجلا ماهرا فى القيادة والسياسة فسهل عليه ذلك عمله فى الفتح وما أتى شهر أغسطس من نفس العام حتى كانت جنوده تمر فى الفسطاط عاصمة مصر ولم يكد يحدث اصطدام فى كل ذلك بين الجيش الغازى وبين الحكومة فى مصر .

ولم يضع جوهر وقتا بل أخذ يقر الأمور ويعيد الأمن والاستقرار الى البلاد وبدأ منذ دخوله مصر يختط عاصمة جديدة وهى مدينة القاهرة المعزية وبنى بها قصرا لاستقبال سيده الذى عزم على ترك افريقية وجعل مصر مقرا له وبنى بها الجامع الأزهر الذى يمكن اعتباره رمز هذه الدولة وأكبر آثارها الباقية للآن.



( شكل ٧ ) الجامع الأزهر

ولم يبق جوهر بعد فتح مصر ساكنا زمنا طويلا بل استمر فى الفتح فى بلاد الشام لينزع عن الدولة العباسية أكبر ما يستطيع من بلادها ولكنه صدم صدمة عنيفة وتألب عليه كثير من أعدائه أمراء بنى بوية وأمراء بنى حمدان وسواهم من حكام بلاد الشام والعراق . وهزموه حتى كادوا يهددونه فى مصر ذاتها . وقد كان لهذه الهزيمة اثر فى اسراع المعز بالمجىء الى مصر فبلغها سنة ٩٧٣ . ومما يؤثر عنه انه اظهر لاعيان المصريين وعلمائها انه صار سيد البلاد بحق الفتح وذلك انهم اجتمعوا لكى يثبت لهم المعز نسبه فجرد سيفه وقال « هذا نسبى » ثم نثر ذهبه بينهم وقال « وهذا دليلى »

## مركز الفاطميين بمصر

لم يغير الفاطميون شيئا يستحق الذكر فى مصر ولم يزعجوا المصريين بارغامهم على شىء فى عباداتهم أو عقائدهم والحقيقة أن الشىء الوحيد الذى كان الفاطميون يصرون على الظهور به هو تقديس آل بيت على ولم يكن هذا مما يغضب مسلمى مصر وكل المسلمين يكرمون عليا وبيته .

وقد أقام الخلفاء الفاطميون فى مصر مستقلين كل الاستقلال عن الدولة العباسية طبعا بل كانوا منافسين لها وكانت كفة الفاطميين هى الراجحة عند ذلك لأن الدولة العباسية كانت عند ذلك تحت سلطان البويهيين وكانت فى أسوأ حالات الاضطراب والضعف كما تقدم فصارت مصر تحت حكم خلفاء الفواطم أكبر دولة اسلامية ولا سيما بعد ان مات عبد الرحمن الناصر وشعرت دولة الأندلس بشدة ضغط المسيحيين الاسبانيين وسواهم من جيرانها . وقد استمرت مصر عظيمه تحت حكم الفواطم نحو قرن بلغت فيه ذروة المجد وصارت دولة الاسلام الكبرى . ولكن ذلك الحال تغير بعد ذلك منذ تسلط السلاجقة على بغداد ومنذ ذهب الجيل الاول من خلفاء الفاطميين العظام .

## حكم المعز بمصر

لم يطل حكمه بمصر أكثر من سنتين اذ مات سنة ٩٧٥ ولكنه فى هذه المدة القصيرة أتم اعمالا عظيمة بين حربية وسلمية فاما الحربية فان جيوشه استطاعت بعد الهزيمة التى لحقت بجوهر أن تسترجع جنوب الشام وبلغت عظمته مكة والمدينة حتى كان من أثرها الأدبى أن دعى له هنالك .

وأما اعماله السلمية التى امتاز حكمه بها فقد كانت فى كل ميادين العمل من اصلاح لأمور الزراعة والصناعة والتجارة حتى لقد صارت مصر فى أيامه من أكبر مراكز الانتاج الصناعى بين حرير الاسكندرية وصوف أسيوط وتيل تنيس هذا عدا صناعات العاج والخزف وسوى ذلك مما اشتهرت

به مصر منذ ذلك الحين وقد شجع الآداب والفنون تشجيعا عظيما ويشهد على ذلك ما تخلف عن عصره من آثار الشعراء وما تخلف من مبانيها ولم يلق فن التصوير فى عصر من العصور الاسلامية ما لقيه فى عصر المعز من التشجيع فيمكن أن يقال ان المعز ابتدأ فى مصر دولة حقيقية لها حكومتها المستقلة ومدنيتها النامية وقد استمرت عظمة المدنية المصرية بعد ان ضعفت قوة الدولة الفاطمية الحربية فلما استولت على مصر جيوش صلاح الدين فيما بعد وجدت بلادا تبهرها بعظمة مدنيتها وان كانت قد فقدت القوة الحربية منذ زمن طويل .

# دول أوربا فى القرنين الثامن والتاسع

بينما كان العالم الاسلامى يتطور من دولة الخلافة الأموية الى دولة الخلافة العباسية ويصحب تطوره هذا تغير فى جميع وجوه حياته الاجتماعية كانت أوربا كذلك تتطور ولكن فى طريق آخر ، وقد تتبعنا فيما مضى سير دولها التى أنشأها الهمج منذ القرن الخامس ورأينا ان تلك الدول لم يبق منها فى القرن الثامن الا دولتان كبريان وهما دولتا الفرنج واللمبرد .

وكانت دولة الروم الشرقية لا تزال فى شرق أوربا تواجه الدولة الاسلامية وتدافع عن وجودها محتفظة بشىء كثير مما تخلف من المدنية الرومانية الاغريقية القديمة . وانا هنا واصفون ذلك التغير الكبير الذى طرأ على أوربا فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع على يد شرلمان بن پپين ابن شارل مارتل الفرنجى :

دولة شرلمان

كانت دولة الفرنج هى الدولة الهمجية[1] الوحيدة التى لم تتعرض لكراهة

(١) نقصد بالدولة الهمجية الدولة التى أنشأها شعب من الهمج الذين اقتسموا أرض الدولة الرومانية الغربية القديمة.

الشعب الأصلى وذلك لاتخاذ ملوكها المذهب الكاثوليكى وليس الآرى .
وقد كان أباطرة الشرق منذ نشأتها ينظرون اليها نظرة ميل وصداقة بعكس نظرتهم للدول الهمجية الأخرى . وكان رئيس الديانة المسيحية ( البابا ) ينظر الى تلك الدولة أيضا انها حامية المذهب الكاثوليكى من اعتداء المذاهب المسيحية الأخرى ورأينا انه استعان بها ضد اللمبرديين ولم يستعن بالدولة الرومانية الشرقية اذ كان الشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية قد زاد واستفحل منذ حركة ( تكسير التماثيل ) فليس عجيبا اذن ان تتجدد الظروف التى تجعل البابا يعيد طلب المساعدة من ملك الفرنج ضد الملوك اللمبرديين الذين كانوا فى نظره ونظر شعب ايطاليا ملوكا أجانب لهم مذهب دينى مخالف وعوائد منكرة ومدنية دون مدنيتهم القديمة . وهكذا استدعى شرلمان الذى خلف أباه ببين على عرش دولة الفرنج الى غزو ايطاليا انتصارا للبابا . وكان هذا فاتحة عهد جديد وهو عهد احياء الدولة الرومانية الغربية كما سيأتى :

على ان شرلمان لم يكن همه مقصورا على ذلك الميدان الضيق فى ايطاليا فقد اتجه منذ تولى الملك الى السير على خطة أبيه وجده فى الفتح والحكم فكانت جيوشه فى الجنوب توغل وراء الحدود وتفتح فتوحا جديدة فى أرض المسلمين بالأندلس غير انه لم يوفق فى ذلك توفيقا كبيرا لقوة الأندلس اذ ذاك فى حكم عبد الرحمن الأوسط ( الثانى ) وكانت جيوشه الشمالية توغل فيما وراء الرين ، وقد اتسعت دائرة الغزو هناك بين شعوب الجرمان وأكبرهم السكسونيون فقضى على استقلالهم بعد حرب طويلة متقطعة استمرت نحو ثلاثين سنة وكانت نهايتها سنة ٨٠٥ وكان يتبع خطة أسلافه فى نشر المسيحية بين تلك الشعوب أثناء فتح بلادها وكان له بذلك الفضل فى إدخالها فى حوزة المسيحية لأول مرة وأعدادها لتكون جزءا من

العالم المتمدين فى المستقبل . وقد بلغ فى حربه فى تلك الميادين حداً بعيدا حتى اصطدم بدولة الآفار فى سهول المجر بشرق اوربا .

## احياء الدولة الرومانية الغربية

نجح شرلمان عند غزو ايطاليا انتصارا للبابا وقبض على آخر ملك من ملوك اللمبرديين وهو ( ديسيديريوس ) سنة ٧٧٤ وبذلك قضى على تلك الدولة وصار هو ملك الفرنج واللمبردمعا ، ولما ان اتسع ملكه وصار سلطانه ممتدا من شمال اسبانيا الى شرق أوربا أصبح أكبر ملوك المسيحية وتطلع اليه البابا ليعز المذهب الكاثوليكى بأن يتخذ لقب (الامبراطور) ويعيد بذلك مجد غرب اوربا الذى هوى منذ القرن الخامس ، وما كان البابا ليقنع بوجود زعامة المسيحية فى يد الامبراطور الشرقى الذى يخالفه فى المذهب ، والذى قد نما الخلاف معه حتى اوشك أن يكون عداء ظاهرا فى اثناء القرن الثامن ، وقد ساعدت الظروف على اتخاذ هذه الخطوة لأن امبراطورية الشرق كانت فى يد امرأة عند ذلك وهى ( ايرينى ) وكانت من أسوأ النساء خلقا ونفساً فكانت كل الظروف تشير الى استحسان جعل شرلمان الملك العظيم امبراطورا وتم هذا فعلا فى آخر عام سنة ٨٠٠ اذ ألبسه البابا تاج الامبراطورية ومن ذلك الوقت صارت أوربا الغربية جميعها دولة واحدة قوية ، ولكن يجب أن نذكر ان تلك الدولة لم تكن فى الحقيقة دولة رومانية الا بالاسم فانها كانت دولة رئاستها فى يد الفرنج وأصلهم من الهمج كما انها لم تكن تشمل كل بلاد الدولة الرومانية القديمة ولم تكن شعوبها غير أجناس مختلفة من الجرمان ما عدا ايطاليا التى كانت محتفظة بشىء من تراث الرومان

## ادارة شرلمان وحالة عصره الفكرية

كان شرلمان فى خلقه فرنجياً بسيط العادات وظل كذلك الى آخر حياته

مع عظم مكانته اذ بلغ المحل الأول بين ملوك العالم ، وكان ولا شك أكبر ملك فى أوربا — وكان محبا للرياضة ولا سيما الصيد والسباحة ولم يكن متكلفاً فى معاملته لرجال دولته بل كان يتبسط معهم فى حديثه ومجالسته. ولكنه لم يكن على شيء كثير من العلم ولم يكن ذلك بمستغرب فى ذلك العصر الذى سادت فيه الجهالة على أوربا منذ القرن الخامس حتى لم يبق قبس من العلم أو الأدب إلا فى بعض الاديرة والكنائس ولكنه مع ذلك كان يدرك قيمة العلم فعمل على انشاء المدارس العامة وجعل يلتمس لها المعلمين من جميع أنحاء العالم المسيحى وجعل فى كل دير أو كنيسة قسما (خارجيا) لتعليم العامة. ولكن كانت تلك المدارس لا تعلم الا بعض أمور دينية. وكان يقرب رجال العلم فى بلاطه وكانت مجالسه معهم شبيهة بأن تكون ناديا أدبيا . ولكن يجب أن نذكر دائما أن الحالة الفكرية فى أوربا اذ ذاك لم تكن عالية يدل على ذلك أن هرون الرشيد عندما أهدى الى شارلمان ساعة من صنع العرب ظنها رجال الحاشية من الفرنج آلة سحرية تسكنها الشياطين .

ولكن شارلمان كان إداريا قادراً بطبيعته فأنه أشرف على أمور دولته الواسعة بهمة جعلت كل انحائها تشعر بوجوده وكان أكبر همه أن يجعل دولته دولة مركزية قوية متماسكة الاطراف . فكان يرسل من رجاله رسلا يجوبون الاقطار ويرسلون اليه تقاريرهم عنها ويراقبون حكام الأقاليم فى السير على قوانين الدولة والقرارات التى كان يصدرها وجعل أبناءه الثلاثة مساعدين له فى إدارة تلك الاقطار الواسعة ولكنه تحاشى أن يشعرهم بأن لأحدهم قسما خاصاً بل أن جميع الدولة وحدة لا تتجزأ ومركزها فى عاصمتها (آخن) وهى مدينة (أكس لا شابل)

والحق أنه ترك عند موته سنة ٨١٤ دولة من الدول الفذة التى لم يظهر كثير مثلها فى التاريخ . وخلفه ابنه (لويس) المعروف بالتقى والذى نستطيع أن نسميه بالضعيف فلم يلبث أن شعر بثقل حمله وعجزه عن القيام به .

## الدولة الرومانية الغربية بعد شارلمان

كان من المحتوم على دولة شارلمان أن تتفكك لأنها كسائر أمثالها من الدول التي تتكون من عناصر مختلفة لا يمكن تماسكها الا مادامت الحكومة المركزية قادرة على حفظها بالقوة وقد خلف شارلمان ابنة لويس الذى بقى بعد موت سائر أبناء ذلك الملك العظيم وكان لويس على عكس خلق أبيه ومن أدل الأمور على عجزه أن كل عصره مضطرب بالفتن والثورات ولم يكن الثوار إلا أولاده أنفسهم وسبب ثوراتهم عدم رضاهم عن أبيهم فى تقسيمه الدولة بينهم تقسيما اعتقدوا أنه غير عادل وانه يحابى فيه أخاهم الاصغر. فلنمر سريعا على عهده مكتفين بأن نذكر أنه مات ولم يزل فى نضال مع أولاده . وكان لهذا النضال المستمر تأثير كبير فى الدولة من وجوه مختلفة أهمها .

(١) تقسمت الدولة أحزابا وزاد نفوذ الامراء الذين كانوا بطبيعة الحال اكبر العوامل فى الحرب الداخلية . وهذا مهد السبيل الى عهد حكم الامراء وهو ما يسمى بالعهد الاقطاعى .

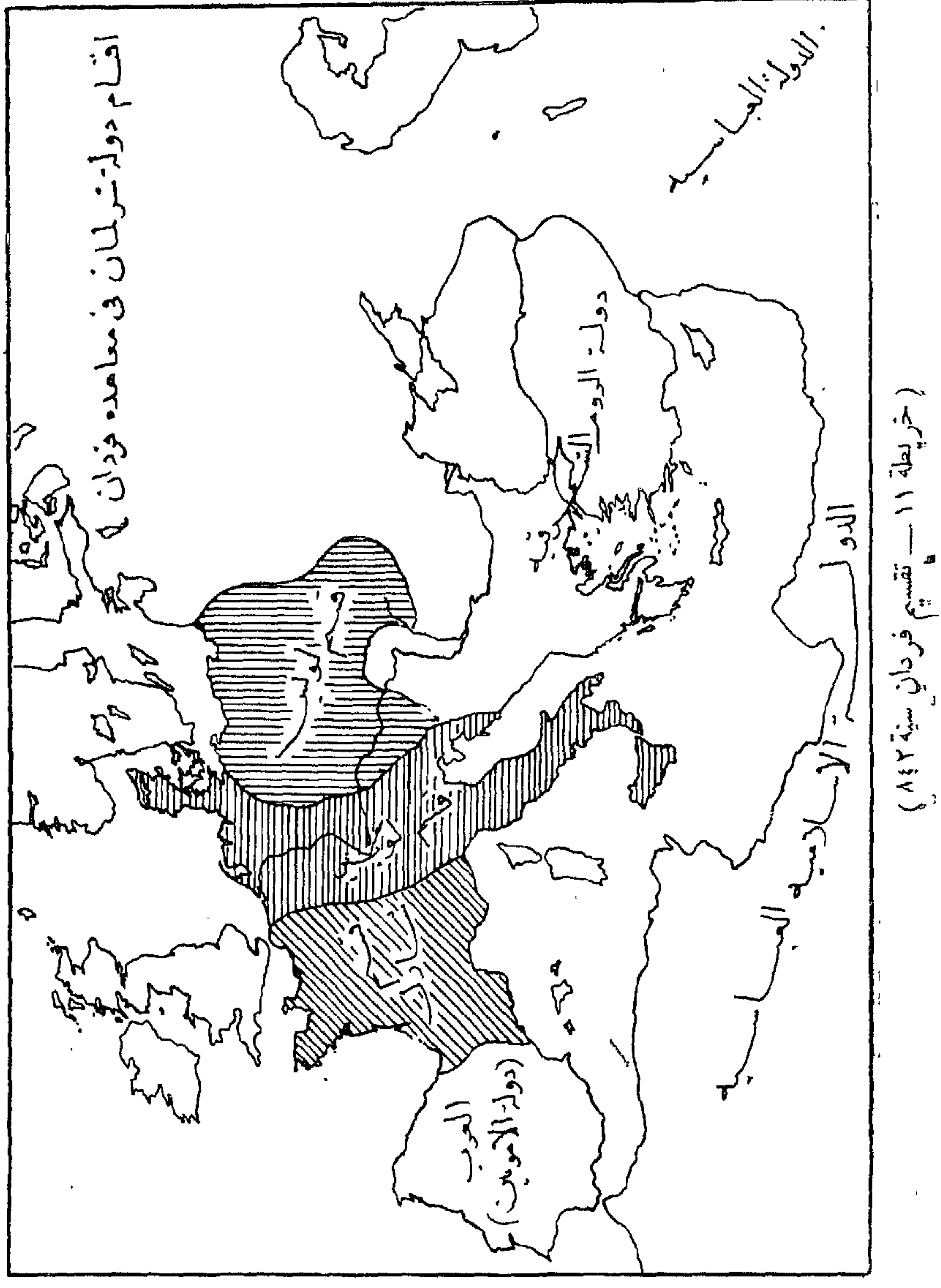
(٢) ظهر ضعف الحكومة المركزية وطمعت فيها الشعوب الهمجية المجاورة وأهمها المجر والنرمانديون . كما طمع فيها العرب فى الأندلس وشمال افريقيا

(٣) كانت الحرب الداخلية ظرفا ملائما للأقاليم المختلفة أن تميل للانفصال. وهذا ما حدث بعد موت لويس كما سيأتى

## تقسيم الدولة بعد موت لويس

لم تقف رحى الحرب الداخلية بعد موت لويس بل استمرت على يد أبنائه لوتير ولويس وشارل الى أن انتهى النضال بينهم على صلح بعد مجزرة هائلة قتل فيها آلاف من الفرنج حتى قيل أن تلك المجزرة مهدت السبيل

الى سلب السيادة الحربية من الفرنج وكانت تلك الموقعة الهائلة عند (فونتناى) فى برغنديا سنة ٨٤١ وقد عقد الصلح بعد ذلك فى مدينة ( ڤردان ) سنة ٨٤٣




(خريطة ١١ — تقسيم فردان سنة ٨٤٣)

وفيه تقسمت الدولة إلى أقسام ثلاثة القسم الشرقى ويشمل جرمانيا على

الأكثر والقسم الغربى ويشمل بلاد الفرنج على الأكثر وأما الأوسط فكان رقعة مستطيلة من الارض تمتد من بحر الشمال الى إيطاليا وتشمل حوض الرين وجزءا من برغنديا وكل إيطاليا ·

فكان القسم الشرقى وحدة طبيعية أصبحت أساسا لجرمانيا الحالية وكان القسم الغربى وحدة كذلك وأصبح أساس فرنسا الحالية ·

وأما القسم الاوسط فكان خليطا مركبا من وحدات مختلفة ولن ينمو نموا بسيطا كالقسمين الآخرين بل يسير تاريخه سيرا مضطربا كما سيأتى ·

## تجدد هجوم الهمج ( النرمانديين والمجر ) وآثاره

قبل أن يموت شرلمان العظيم نفسه شوهدت آثار اغارات عند السواحل الشمالية من قوم من البرابرة يطلق عليهم اسم النرمانديين أو (أهل الشمال)[1] ولكن قوة الدولة عندئذ لم تجعل لظهورهم أثرا ظاهرا غير أن هجومهم العنيف تجدد فى أيام لويس وبعده . واتخذ شكلا مفزعا نظرا لضعف الدولة الذى بدأ منذ الحرب الداخلية التى ثارت منذ أيام لويس · ولم يكون هجوم النرمنديين مقصورا على مكان دون مكان بل كانوا يهددون جميع البلاد الساحلية ولا سيما السواحل التى بها مصاب الأنهار العظيمة لأنهم كانوا يغيرون فى سفن مسطحة القاع خفيفة فيهبطون من مصاب الأنهار الى المدن الكبرى الواقعة عليها فى الداخل ويسلبون ما استطاعوا ان يسلبوا ثم يعودون سراعا قبل ان يستطيع أحد الوقوف فى وجوههم ، فاغاراتهم كانت للسلب والنهب وليست للغلبة والحلول ، فكانوا يغيرون على شمال المانيا ويدخلون مصاب الرين ويغيرون على فرنسا من مصبات أنهارها الشمالية والغربية ويحلون على

(١) هم قوم من الجرمان كانوا يسكنون اسكندناوه وشواطىء بلاد الدانمارك وكان البحر ميدانهم الفسيح لهم جرأة عجيبة على خوضه وكانوا وثنيين فاذا ما نزلوا ببلاد مسيحية أو اسلامية بالغوا فى أذى أهلها حتى أصبح اسمهم مرادفا للقسوة والفظاعة.

ارض بريطانيا من الشرق والجنوب ولم تنج الأندلس الاسلامية من اغاراتهم على غربها وجنوبها وكان العرب يسمونهم ( بالمجوس ) ودخلوا اقليم البحر الأبيض واغاروا على ايطاليا وجزائرها .

وبينما كان النرمانديون دائبين على اغاراتهم هـذه كان فرسان المجر يدخلون الى الدولة الرومانية الغربية من حدودها الشرقية فيخربون ويسلبون ويعودون على خيولهم سراعا قبل ان تستطيع الحكومة المركزية ان تتحرك بجيوشها للدفاع .

واستمرت اغارات المجر والنرمان منذ أواسط القرن التاسع تفتك فى انحاء العالم الغربى غير انها لم تخل من آثار دائمة فى أوربا أهمها ما يأتى :

(١) بدأ أمراء أوربا يرون أن تلك الأغارات لا يستطاع ردها بالحكومات المركزية وجيوشها التى لا تتحرك الا ببطء وجعل أمير كل جهـة يفكر فى اتخاذ وسائل الدفاع السريعة عن جهته وبدأ بناء الحصون العديدة فى انحاء الدولة الرومانية الغربية كما اتبع الأمراء سنة اعداد جماعات مسلحة من الفرسان ليكونوا على استعداد سريع حتى اذا أغار هؤلاء المدمرون اغاراتهم السريعة المخربة كان مع أمير الجهة كتيبة من فرسان شجعان يسرعون الى الدفاع فى حين ان غير المحاربين يسرعون الى الحصين الواسع الذى بناه الامير ليلجأوا اليه بأولادهم وأموالهم حتى يرد الفرسان عنهم خطر الاغارة ويصدوا البرابرة المخيفين ، وكان لذلك أثر كبير فى نمو الاقطاع كما سيأتى :

(٢) نبغ جماعة من الأمراء فى الدفاع ضد هؤلاء المغيرين مثل البرنس ( روبير القوى ) الذى ظهر فى الدفاع عن باريس وهؤلاء الأمراء لعبوا دوراً هاما فى تاريخ بلادهم اذ صارت لهـم مكانة كبرى جعلت الناس ينظرون اليهم والى نسلهم نظرة اجلال وتعظيم وقد صار من نسلهم من

أصبحوا ملوكا مثل أسرة ( كاپيـه ) التى نبغت من سلالة ( روبير ) المذكور .

(٣) حل بعض النرمان فى بعض الجهات وصرح لهم بالبقاء فيها ومثل ذلك حلولهم فى شمال فرنسا سنة ٩١١ على أثر اتفاق رئيسهم ( رولف ) مع ملك فرنسا وحلولهم فى انجلتره بعد نضال طويل مع الملك ( الفريد الـكبير ) .

# اوربا الاقطاعية

## ( العصر الأول منذ أواخر القرن التاسع الى أواخر القرن الحادى عشر )

تقسمت الدولة بعد معاهدة ڤردان الى ثلاثة أقسام كما رأينا وكان ذلك عقب حرب داخلية طويلة كان الأمراء أكبر العاملين فيها فحدث فى وقت واحد أمران الأول ان الأمراء صار لهم صوت مسموع فى أمور الدولة والثانى ان الحـكومة المركزية ضعفت وزال الهيكل الهـائل الذى أقامه شرلمـان .

وكان هؤلاء الأمراء من الفرنج أو الجرمان ينتمون الى الأسرات النابهة التى كانت فيها زعامة القبائل الجرمانية المختلفة من قبل فلما ان صار لهم ذلك النفوذ الكبير منذ أيام لويس التقى جعلوا يتوارثون الامارة كابرا عن كابر فما مضى نصف قرن على معاهدة ڤردان حتى كان فى جميع أنحاء اوربا الغربية سرات كثيرة تحكم فى الجهات المختلفة ويتوارثون الحكم فيها .

فلما تجددت اغارات الهمج ( النرمان والمجر ) فى القرن التاسع وكان العرب يهبطون من شمال أفريقية والأندلس على الدولة المسيحية بفرسانهم براً وسفنهم بحراً واضطر الأمراء الى اتخاذ الحصون لحمـاية الناس وكتائب الفرسان للدفاع السريع عن الاقاليم قل شأن الحكومة المركزية وصار

الأمراء هم كل شيء في الدولة وأصبح في استطاعتهم أن يثبتوا وجودهم على رغم الحكومة المركزية بما لديهم من وسائل القوة ونشأ من ذلك نظام جديد له حالة اجتماعية جديدة من جميع وجوهها وهو :

## نظام الاقطاع

كانت دولة شرلمان في مدة حياته دولة مركزية قوية وكان كل حكامها يأتمرون بأمر الامبراطور لا يستطيعون مخالفته وكانت القوانين والأوامر لا تصدر الا عنه . فكانت سيادة الحكومة تامة على جميع الداخلين في حدود الدولة .

فلما ان تغير ذلك الحال في أثناء القرن التاسع كامر صار كل أمير مستقلا بجهة يحكمها وكان عليه واجب الدفاع عنها بفرسانه ونفسه وحماية أهلها في حصنه كما أصبحت له على مرور الزمن حقوق على الناس في اقليمه كأن يؤدوا له الأموال ويخضعوا لقضائه ويقوموا له بخدمات معينة فكان هذا النظام أشبه بتعاقد بين الحاكم والمحكوم يتعهد فيه كل منهما بعمل معين نظير عمل مقابل له من الآخر

ولم يكن في الدولة طبقة واحدة من الأمراء بل كان هناك الأمراء الكبار ويليهم أصغر منهم الى طبقة السادة والفرسان الصغار وكانت كل طبقة مرتبطة بما يليها برباط تعاقدى كما وصفنا فكان النظام في عصر الاقطاع اشبه شيء بالهرم وقمته الملك الأعلى وقاعدته السادة والفرسان ثم الشعب

## رسوم الاقطاع

كانت نظرية الاقطاع ان الأمير يستمد سلطته على اقطاعته من الملك أو من الأمير الذى فوقه مرتبة فالأمير يستمد اقطاعته من تقليد مولاه وليس من انه وراث لها عن الحاكم السابق وقد نشأت على توالى الزمن عادات وقواعد معينة اتخذت لها أساسا راسيا وأصبحت عرفا لا يستطاع الحيد عنه ومن أكبر مظاهر هذا العرف ما كان يتبع من الرسوم في المعاملات

بين الملك والأمراء أو بين الأمراء بعضهم وبعض ولا سيما عند تولية أمير جديد فكان الأمير عند أول استيلائه على اقطاعته يحتفل بيمين الولاء لسيده الذى فوقه الذى له الحق القانونى فى اعطائه الاقطاعة وذلك السيد اما أن يكون أميرا كبيرا واما أن يكون الملك ذاته وكان يمين الولاء عبارة عن قسم يتعهد فيه الأمير بأن يقدم لسيده خدماته بسيفه عند الحاجة وأن يقدم له ما يلزم من مساعدات أخرى . وكان تحف بتلك الحفلة مظاهر تجعل لها جلالا ومهابة

## الأمير الاقطاعى وشعبه

كان الأمير الاقطاعى فيما عدا تعهده لمولاه بالولاء حرا فى اقليمه وكان يعيش فى قصره مع أهله وفرسانه عيشة عزلة تامة فى انتظار ما قد يكون من الاغارات وكان القصر عبارة عن حصن فسيح يبنى فى أغلب الأوقات على تل ويكفى لسكنى الفرسان وإيواء الفلاحين أنفسهم عند الاغارات . وكان للحصن فى الغالب ثلاثة أسوار حول كل منها خندق تملأ بالماء عند الحاجة للدفاع وعلى الخندق قنطرة متحركة ترفع ليلا اذا أريد عزل الداخل عن الخارج وكان عند أبواب الأسوار ابراج لحمايتها ومثلها ابراج أخرى موزعة ليقف بها الجنود وقت الدفاع . وفى وسط القلعة أماكن لخزن الماء والاكل وبناء قوى تودع فيه الأشياء الثمينة والوثائق الهامة وكان حوله خندق خاص ولا موصل اليه الا على قنطرة متحركة كانت دائما ترفع الا عند ارادة الدخول اليه

وأما الشعب فكان قسمين شعب الريف وشعب المدن فاما أهل المدن الذين يشتغلون بالصناعات المختلفة والتجارة فكانوا أحرارا يقيمون حيث شاءوا ولكنهم كانوا ملزمين بالخضوع للأمير ما داموا على أرضه واما أهل الريف فكانوا يعيشون على ( أرض الأمير ) وكان على الأمير حمايتهم فى نظير خضوعهم المطلق لسلطانه وقضائه وكانوا لا يستطيعون أن ينتقلوا

الى ارض سواه من الأمراء وكان عليهم أداء الضرائب اليه وتأدية خدمات معينة بأنفسهم كفلاحة أرضه وتمهيد الطرق وحفر الخنادق الخ .

دول أوربا فى العصر الاقطاعى

حكم الاخوة الثلاث ابناء لويس التقى فى الأقاليم الثلاثة التى نشأت من معاهدة ڤردان وحكم بعدهم نسلهم جيلا بعد جيل وهم من يسمون ( بالكارليين ) أو ( الكارلوڤنجيين ) لانهم من نسل كارل ( شارل )

ولكن هذه الفروع الثلاثة الكارلية لم تلبث أن اصبحت ظلا لا حقيقة له فى أواخر القرن التاسع وما هل القرن العاشر حتى كان أحد هذه الفروع قد انقرض وهو فرع جرمانيا

جرمانيا أو القسم الشرقى

واختار الأمراء الإقطاعيون فى جرمانيا ( القسم الشرقى ) ملكا من السكسون وهو ( هنرى ) المعروف ( بالصياد ) وبذلك يبدأ عهد جديد فى جرمانيا تحت حكم ملوك من الجرمان أنفسهم وكان نظام دولتهم هو النظام الذى ساد جميع أوربا إذ ذاك يعنى نظام الاقطاع .

القسم الأوسط

بينما كانت جرمانيا سائرة تحت حكم ملوكها الوطنيين حدث انقلاب آخر فان ملوك جرمانيا بعد حين رأوا اضطراب أمور القسم الأوسط حتى دعت الظروف الى تدخلهم فيها وما أتت أواسط القرن حتى كانت جيوش ملك جرمانيا تفتتح إيطاليا وكان ذلك الملك هو ( أتو الأول ) العظيم . ولما تم له فتحها اتخذ لنفسه لقب الامبراطورية الذى كان منذ معاهدة ڤردان من نصيب القسم الأوسط وذلك سنة ٩٦٢ وأصبح بعد ذلك لقب امبراطور الدولة الرومانية الغربية خاصا بملوك جرمانيا ولكن تلك الدولة الجديدة التى أنشأها ( أتو ) تعرف فى التاريخ باسم ( الدولة الرومانية المقدسة ) .

### فرنسا القسم الغربى

بينما كانت هذه الحوادث تجرى فى القسمين الشرقى والأوسط كان القسم الغربى ( فرنسا ) يتحول تحولا مماثلا . فان الفرع الكارلى الذى كان يحكمها تقلص نفوذه وتسرب الى الأمراء تدريجا وآل الأمر أخيرا الى استيلاء أسرة من هؤلاء الأمراء على الملك وهى أسرة (كابيه ) التى تنتسب الى(روبير القوى ) الذى ذكرنا من قبل انه كان صاحب الفضل فى الدفاع عن باريس ضد النرمانديين . وكان استيلاء ( الكابيتيين ) على عرش فرنسا سنة ٩٨٧ .

فما أتى آخر القرن العاشر حتى كانت جميع أوربا خاضعة لنظام الاقطاع وعلى رأسها أسرتان جديدتان وهما الأسرة الجرمانية السكسونية أسرة هنرى الصياد واتو الكبير والأسرة الفرنسية ( أسرة كابيه )

### بعض مميزات العصر الاقطاعى

الفروسية : كان من اظهر مميزات ذلك العصر ان الحرب صارت الوسيلة الوحيدة لحفظ اوربا من الاغارات المستمرة واصبح المحاربون لهم المحل الأول فى المجتمع الذى يدافعون عنه . وقد نمت على توالى الزمن قواعد يجب على المحارب ان يتبعها فى سلوكه وكلها ترمى الى جعل الشرف وأداء الواجب أول ما يسعى اليه وكان أداء الواجب يقصد به الدفاع عن الدين وعن الضعفاء من النساء والأيتام وسواهم ونصرة الحق فى أية صورة من صوره ولم يكن مباحا لكل فرد أن يكون فارسا بل كانت الفروسية امتيازا للأمراء وكان لدخول الشاب الى طائفة الفرسان احتفال مهيب يرأسه رجل كبير وكان يرأسه أحيانا أسقف من رجال الدين . وبعد اداء الرسوم الخاصة بالاحتفال كان الرئيس يخاطب الفارس قائلا « كن محاربا مسالما شجاعا مخلصا لله » ثم يسلمه سيفه . ويركب الفارس بعد هذا بسلاحه كاملا ويظهر براعته

فى استعمال السلاح ومهارته فى ركوب جواده بين استحسان النظارة وإعجابهم».
وكان الفرسان فى أوقات كثيرة يتسابقون فى حفلات «المراحة» ليظهر كل منهم براعته وقوته . وكان لكل منهم علامة خاصة على درعه يعرف بها وهى إما صورة حيوان وإما رمز مخصوص



( شكل ٨ ) فارس

نفوذ الكنيسة وظهور البابوية

اذا كانت أوربا فى نظامها السياسى قد صارت اقطاعية كما سبق فان الكنيسة فى تلك العصور كانت على عكس ذلك فانها كانت مركزية تامة . وكانت السلطة الدينية فى يد البابا فى رومة تصدر عنه كل الأمور المتعلقة بالدين

وقد كان البابا فى رومة رئيسا دينيا كبيرا منذ أيام المسيحية الأولى. ولكن كان الى جانبه رؤساء آخرون فى القسطنطينية وفى الاسكندرية. غير أن مدينة رومة كانت مقر كرسى بطرس الرسول وهى بهذه الصفة لها اعتبار أسمى من كل الأماكن الأخرى وقد زاد سلطان البابا الدينى

منذ سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية القديمة فان وجود البابا وحده في رومه بغير رئاسة مبجلة أخرى بجانبه جعلت له المكانة الأولى في غرب أوربا وجعلت عليه عبء نشر المسيحية ورعاية اتباعها . وقد زاد نفوذ البابا زيادة مضطردة من أيام اتيودوريك القوطى الى أيام اللمبرديين كما مر وزادت قوته عند ما صار حاكما دنيويا يحكم رومة منذ أواخر القرن السادس

وقد زادت الأرض التى يحكمها اتساعا عندما أعانه پپن الفرنجى في أواسط القرن الثامن وزادت مرة أخرى عندما فتح شارلمان إيطاليا ولما صار شارلمان امبراطورا على غرب أوربا سنة ٨٠٠ صار البابا الى جانبه رئيسا للدين .

فلما اضمحلت دولة الكارليين ظل البابا رئيسا دينيا معترفا به من الجميع في العالم المسيحى الغربى فلما أن دخل أتو الاول إيطاليا فاتحا وضمها لدولته ( جرمانيا ) وكون الدولة الرومانية المقدسة صار البابا الى جانب الامبراطور يتعاونان على حكم أوربا الغربية على أن نفوذ البابا كان أعم وأشمل اذ كانت كل أوربا الكاثوليكية خاضعة له وليس فقط الدولة الرومانية المقدسة . ولم تتأثر الكنيسة بالنظام الاقطاعى فكانت سلطة البابا تشمل كل أوربا الغربية في حين أن الحكام السياسيين من ملوك أو أمراء كانوا في ذلك العصر الاقطاعى لا تتعدى سلطتهم حدود اقطاعاتهم وكانت الحكومات المركزية لا سلطة لها الا سلطة اسمية على امرائها الذين صارت في يدهم القوة الفعلية في اقطاعاتهم .

وكانت الكنيسة تؤدى في ذلك العصر خدمات جعلت لها سلطانا أدبيا كبيراً على الامراء والعامة معا فان الأمراء كانوا في شغل مستمر من الحروب وكانوا إذا لم يجدوا إغارات خارجية يدفعونها يغير بعضهم على بعض وتنشأ من ذلك مضار كبرى للناس فكانت الكنيسة تتداخل دائما لتداوى هذه الجروح الداخلية وكانت تضع للناس حدودا في حروبهم لتقلل من ألمها

كما كانت تضع لهم أوقاتا لايحاربون فيها وتجعلها حراما . وكانت مطاعة في أوامرها لا يكاد أحد يستطيع مخالفتها حتى الأمراء والملوك فاذا عصاها أحد استعملت ضده سلاحها وهو الطرد أو الحرمان وأخرجته من دائرة المسيحية فلا يعامله أحد ولا يدخل أماكن العبادة ولا يصلى على جثته بعد الموت الخ . وكان هذا العقاب يخيف أكبر الرؤوس والامبراطورين أنفسهم .

وإذا كان الحرمان ضد أمير قوطع أقليمه فتغلق كنائسه وتمنع شعائر الدين عن أهله حتى يضج الشعب ويرغمه على الخضوع والتوبة ولأجل أن تتوب الكنيسة عليه كان لابد من تأدية رسوم الندم كأن يبقى أياما على باب كنيسة ملقى على الأرض يبكى معترفا بذنبه ويلبس ملابس خشنة سوداء ويسير حافى الاقدام أو يصوم فلا يأكل الا الخبز والملح والماء الخ .

الرهبنة والأديرة .

---

الرهبنة معناها أن يجعل الانسان نفسه للدين وحده ويعيش بعيدا عن المجتمعات عيشة خشونة وزهد وأساسها ألا يتزوج ثم يأخذ نفسه بجميع الصفات التى تكون المثل الأعلى للدين . وأول مثل من الرهبان فى المسيحية كان على ما يظهر القديس ( أنطونيوس ) بالقطر المصرى فى مدة دقلديانوس إذ اعتزل حينا الى الصحراء الغربية ثم أوى بعد ذلك الى الصحراء الشرقية فى المكان الذى أقيم فيه الدير المعروف باسمه الآن على جبال البحر الاحمر جنوب السويس . وقد بنى الدير على مقربة من المغارة التى كان يأوى اليها ذلك القديس ويعيش فيها . وقد انتقلت الرهبنة بعد ذلك الى أنحاء أوربا وكان سيرها فى المبدأ بطيئا حتى سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية وتقسمت أوربا بين الهمج وبدأت العصور الوسطى وعند ذلك بدأت تسير سيرا منتظما وأصبح لها أصول ورسوم وأول من وضع لها نظاما معلوما القديس بندكت ويتلخص نظامه فى أنه يحتم على الراهب الحياة فى الأديرة المنعزلة ليعيش

عيشة فقر وخشونة وعمل . وان يكون كل الرهبان فى دير واحد متضامنين متساوين .

وقامت عقب ذلك أديرة كثيرة على نمط نظام بندكت حتى صار منها كثير فى كل بلاد أوربا . وكان الناس منذ رأوا فكرة الأديرة والرهبنه يحاولون مساعدتها بالهبات حتى تكدست الثروة فيها وعند ذلك دب الفساد فى رهبانها ونسوا فكرة الرهبنة الأولى . فقامت حركة اصلاحية فى فرنسا قام بها أحد أمراء برغنديا وذلك بتأسيس دير آخر يكون على نمط جديد وهو دير (كلونى) سنة ٩١٠ وأنشئت له فروع في جميع أنحاء أوربا حتى صار من متخرجيه جماعة من أكبر رجال الدين والبابوات .

وجعلت فكرة الرهبنة بعد ذلك تتحور فاتخذت شكلا جديدا يلائم حالة العصور الجديدة فكما أن فكرة الفرسان فى العصور الوسطى كانت العمل على نصرة الضعيف والدين كذلك نشأت طائفة الفرنسسكان بايطاليا نسبة الى مؤسسها فرنسيس فى أوائل القرن الثالث عشر وكانوا يقصدون أن يجعلوا حياتهم وقفا على خدمة الدين فبدلا من الاقامة فى الاديرة كان نظامهم التجرد عن الوطن والاقامة وقضاء الحياة فى التنقل لنشر الدين وخدمة الانسانية ولكنهم كانوا يقبلون الهبات والصدقات أحيانا حتى صار يطلق عليهم لقب الشحاذين والفقراء وفى نفس الوقت أنشئت جماعة مثلها فى اسبانيا أسسها دومنيك لاغراض مشابهة لطائفة الفرنسسكان وزادوا عليها محاربة الالحاد الذى دب فى أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وكانت الرهبنه بأنواعها والأديرة التى تنشأ معاقل لنصرة الكنيسة الكاثوليكية ولم يكن للبابا أنصار أشد منهم اخلاصا وأكثر حماسة فى تلك العصور وقد كانوا سببا فى تجميع الرأى العام المسيحى فى جانب البابوات فى النضال الذى حدث بينهم وبين الامبراطورية كما سيأتى .

وقد كان للرهبان والأديرة أثر كبير فى حياة أوربا فان العلم بقى هنالك

على شيء من الحياة فى حين انعدامه فى انحاء أوربا بين الناس فى تلك العصور المظلمة كما ان الأديرة كانت تستخدم فى كثير من الاغراض . فكانت أحيانا تستخدم كالملاجىء والمستشفيات وأحيانا كانت تستخدم معاقل يحتمى فيها المسيحيون من أخطار الاغارات الهمجية .

الرهبان المحاربون

سيأتى ذكر هؤلاء عند الكلام على الحروب الصليبية .

## اضمحلال النظام الاقطاعى

الحكومات تقوم في الدول لضرورات الحياة وكل حكومة لابد أن تكون ملائمة لروح عصرها وحالة المجتمع الذى هى فيه فاذا كانت غير ملائمة لذلك ظهر فسادها ولم تلبث أن تزول ويحل محلها نظام جديد أوفى بالغرض منها وهكذا كان الحال فى النظام الاقطاعى بأوربا فانه نشأ من ضرورات العصر وحوادثه كما سبق وقد استمر ذلك النظام منذ أواخر القرن التاسع قرونا عديدة كانت الأحوال فيها قد تغيرت من كل الوجوه السياسية والاجتماعية وبذلك صارت الحكومات القائمة على النظام الاقطاعى غير ملائمة للعصر الجديد فظهر فسادها تدريجا ووقعت أوربا من جراء ذلك فى اضطراب شديد انجلى أخيرا عن نظام حكومة جديدة ملائمة للعصر الجديد

فساد النظام الاقطاعى

استقرت الأمور بعد القرن العاشر فان النرمان استقروا فى شمال فرنسا وانجلتره وخبت نيرانهم ..واستقر المجر كذلك فى دولتهم فى شرق أوربا ودخلت تدريجا فى حوزة دول أوربا وامتنعت اغاراتهم . واضمحلت قوة الدول الاسلامية فى الأندلس وشمال افريقيا بعد القرن العاشر فزالت اخطار هجماتهم أوقات قلة كبرى وبذلك صارت الظروف لا تستدعي وجود الامراء

الاقطاعيين للدفاع ولكن الأمراء الاقطاعيين استمروا يحكمون أوربا على أسلوبهم واستمرت لهم قلاعهم وفرسانهم مع عدم وجود الداعي لبقائها فصاروا يوجهون جهودهم فيما بينهم وجعل كل منهم يلتمس ميادين للحرب داخل اوربا وهكذا تحولت أوربا الى ميادين للحرب الداخلية بين الأمراء ونتج عن ذلك ما نتج من التخريب والتدمير وسفك الدماء فالاقطاع حفظ أوربا من غارات المغيرين ولكنه سلبها اطمئنانها بعد القرن العاشر وحولها الى بؤرة حروب داخلية مستعرة ٠

ومنذ تم ذلك التحول أصبح لامعنى لوجود الواجبات التى يؤديها الشعب للأمراء فقد كانوا من قبل يؤدون للأمراء ثمن حمايتهم من الاغارات الأجنبية فأما وقد صارت الحروب داخلية لا مبرر لها الا نزغات الأمراء وميولهم الخاصة للحرب والمنافسات التى بينهم فقد صار الشعب يؤدى خدماته وضرائبه بغير مقابل وبدأ يظهر له انه فريسة لأمرائه المعتدين بعد أن كانوا حماته المدافعين عنه وصار النظام الاقطاعى منذ حدث هذا التغير نظاما جائرا لا مبرر له وكان من المحتوم أن يتغير ليحل محله نظام آخر يليق بالمجتمع الجديد ولما بدأت حركة جديدة ترمى الى تكوين حكومات مركزية وهدم النظام الاقطاعى كان الشعب معضدا للملوك المركزيين على الأمراء وما زال الملوك فى سعيهم حتى قضوا تدريجا على ذلك النظام ونمت على إنقاضه دول أوربا الحديثة كما سيأتى فيما يلى

وقد ساعدت عدة ظروف على القضاء على ذلك النظام الاقطاعى كان اهمها ما يأتى :

(١) مناصرة أهل المدن الاحرار للملوك ضد الأمراء الاقطاعيين

(٢) ميل الفلاحين بعواطفهم الى تكوين حكومات مركزية على يد الملوك فكانوا يساعدون ضد الأمراء بما استطاعوا ٠

(٣) اختراع البارود فقد ساعد ذلك على هدم الحصون الاقطاعية التى

كان الأمراء يتحدون قوة الحكومة المركزية بمناعتها .

(٤) موت كثير من أكابر الأمراء فى الحروب الكثيرة التى ثارت منذ أواخر القرن الحادى عشر كالحروب الصليبية وحروب المائة عام وحروب الوردتين وسيأتى ذكرها فيما بعد .

# نبذة قصيرة عن النضال

## ( بين البابوية والامبراطورية )

بعد معاهدة ڤردان تقسمت دولة شرلمان العظيمة وحكمت على اقسامها الثلاثة الفروع الثلاثة للأسرة ( الكارلية ) كما مر ثم تطور الحال ونما النظام الاقطاعى وقضى على فروع الأسرة الكارلية فأولا قضى عليها فى جرمانيا وحكم بدلها ملوك الأسرة السكسونية الجرمانيون سنة ٩١٨ ثم قضى عليها فى فرنسا وحكمت بدلها أسرة ( كابيه ) سنة ٩٨٧ وأما الفرع الثالث فى القسم الأوسط فان أموره اضطربت حتى تداخل ( أتو ) الأول ملك جرمانيا وضم إيطاليا الى دولته واتخذ لقب الامبراطور سنة ٩٦٢ وسميت دولته منذ ذلك الحين بالدولة الرومانية المقدسة وتختلف الدولة الرومانية المقدسة عن الدولة الرومانية الغربية التى كونها شرلمان فى وجوه كثيرة أهمها ما يأتى :

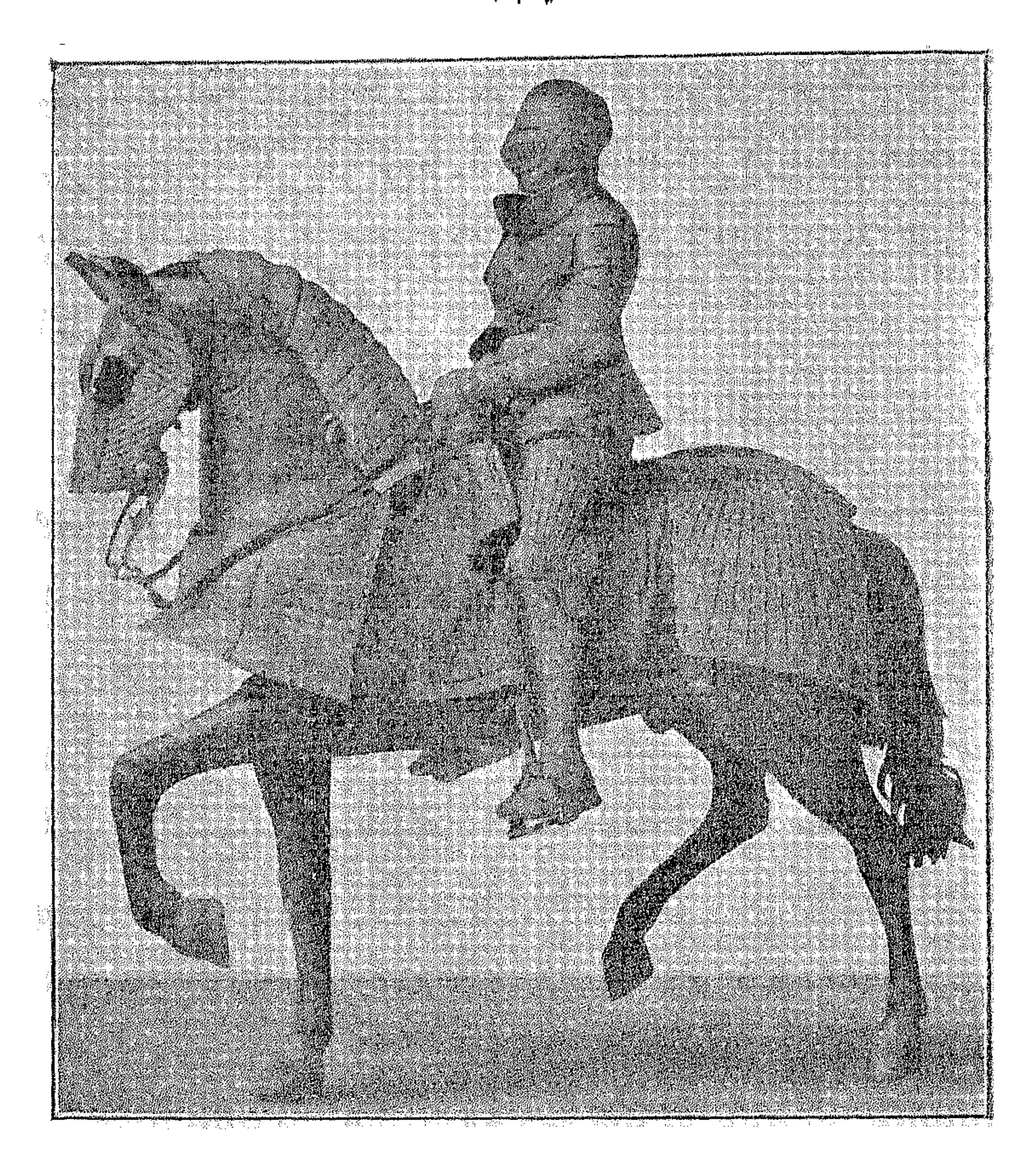
(١) انها كانت مكونة من جرمانيا وإيطاليا فقط فى حين أن دولة شرلمان كانت تضم فرنسا أيضا

(٢) انها كانت تحت سيادة الجرمان فى حين أن دولة شرلمان كانت تحت سيادة الفرنج

(٣) انها كانت دولة اقطاعية بالمعنى الصحيح فى حين كانت دولة شرلمان مركزية.

(٤) ان مركز البابا في دولة ( أتو ) كان له اهمية كبرى لأن ( أتو ) كان من أغراضه فى الاستيلاء على إيطاليا أن يستفيد بسلطة البابا لكى يخضع الأمراء الاقطاعيين الدينيين فان الأمراء كان بعضهم من رجال الدين وكانوا لا يخضعون للحكومة بحجة انهم رجال دين لا يخضعون الا للبابا وقد نجح ( أتو ) فانه جعل البابوات تحت سلطانه واستفاد بنفوذهم الدينى لتقوية سلطانه على جميع أمرائه الداخلين فى دولته .

ومن هذا يمكن أن ندرك أن دولة أتو كانت منذ تأسيسها ذات مسائل صعبة وأمور معقدة وقد حاول أتو أن يقابل هذه المسائل ويقوى مركز حكومته ويخضع الأمراء الاقطاعيين بمساعدة البابا ونال فى سعيه نجاحا كبيرا غير أن خضوع البابوات لسيادة الامبراطورين ومساعدتهم لهم على سياستهم لم يستمر طويلا ففى أواسط القرن الحادى عشر وجد فى البابوات جماعة من خريجى دير كلونى وكانوا شاعرين بأهمية مركزهم الدينى وبخطورة نفوذهم فى العالم المسيحى وبدأوا يحاولون التخلص من مراقبة الامبراطورية وسيادتهم وكان أول سعى فى ذلك السبيل محاولة عظيم من البابوات وهو ( جريجوار السابع ) الذى بدأ النضال مع الامبراطور ( هنرى الرابع ) على مسألة تعيين رجال الدين والتصرف فى أملاك الكنيسة وأعلن ان الواجب استقلال الكنيسة بأمورها والا يكون للحكام الدنيويين سلطان عليها وكان هذا فاتحة عصر بقتال طويل بين البابوات والامبراطورية تقلب فى ادوار مختلفة لا مجال هنا لوصفها غير انا نذكر هنا أن البابوات نالوا نجاحا كبيرا فى ذلك النضال ولا سيما فى أول الأمر حتى خلصوا الكنيسة من رقابة الامبراطورين وصار البابا مطلق النفوذ فى رجال الدين وممتلكات الكنيسة



( شكل ٩ ) فارس اقطاعي

وقد حدث في أثناء ذلك النضال أن البابا اصدار قرار الحرمان ضد الامبراطور هنري الرابع وأحل المسيحيين من الخضوع له فلم يسع الامبراطور ازاء هذا الا أن يخضع ويطلب الغفران وأذل نفسه للبابا عند قرية في إيطاليا ( كانوسا ) حيث بقي على باب المكان الذى فيه البابا فى أشد أيام الشتاء بردا وهو حافي القدمين عاري الرأس حتى تاب البابا عليه سنة ١٠٧٦ . ومنذ ذلك الحين صار للبابا نفوذ لا يسامى فى أنحاء أوربا غير ان النضال استمر بعد ذلك بين البابوات والامبراطورين ولكن ما زال ذلك النفوذ يزيد

وتقويه حوادث النضال المستمر حتى اذا ما أتى القرنان الثانى عشر والثالث عشر صار البابا أكبر رأس فى جميع أوربا الاقطاعية التى كان حكامها الدنيويون لا يتعدى سلطانهم دائرة صغيرة فى حين أن سلطان البابا كان يشمل جميع أنحاء العالم المسيحى الغربى .

# مصر بعد المعز لدين الله

ولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز وقد كان عظيما من جميع الوجوه إذ جمع بين الشجاعة وسعة العقل والاعتدال وفى مدته استمرت الاعمال الاصلاحية التى بدأها المعز كحفر الترع وبناء القناطر الخ حتى بلغت فى آخر حكمه شأنا عظيما وزادت الثروة العامة من جميع الوجوه وقد عرف العزيز بالتسامح مع جميع المذاهب الدينية واتخذ زوجة مسيحية وكان أكبر وزرائه مسيحيين أو اسرائيليين كما أن بلاطه كان يتسع لكبار رجال الدين المسيحيين والمسلمين على السواء

ومع هذه الحكمة فى السياسة الداخلية كانت جيوش مصر وأساطيلها مهيبة فى جميع سواحل البحرين الابيض والاحمر

وكانت مبانى العزيز دالة على ما تكدس فى خزائنه من المال فقد أكثر من بناء القصور وبنى مسجدا ولكنه لم يتم الا فى مدة ابنه فعرف باسم (جامع الحاكم) ولكن كان من الطبيعى له أن يكثر من الجنود للمحافظة على الدولة الواسعة الممتدة من المحيط الاطلسى الى الفرات فاتبع سياسة تجنيد الاتراك وبذلك مهد السبيل الى حوادث مثل الحوادث التى أصابت بغداد بعد المعتصم والاندلس بعد عبد الرحمن الناصر والمنصور بن عامر

وقد كان من أثر حكم العزيز واصلاحه أن صارت الدولة قائمة على أساس راس حتى أن سوء حكم من توالى على الدولة بعده لم يزعزع سعادتها العامة الا بعد نحو نصف قرن فانه منذ مات سنة ٩٩٦ ترك البلاد عظيمة

فتولى عليها الحاكم بعنفه وغرابة أعماله ثم آل الامر الى نسل من الضعفاء أهملوا وجوه الاصلاح والمحافظة على ماخلفه المصلحون الماضون ولكن لم يظهر أثر هذا الا بعد أواسط القرن الحادى عشر .

عهد الانتقال

لم يكن للعزيز الا ابن صغير وهو الحاكم بأمر الله ولى الخلافة وهو صبى . وكانت الدولة لا تزال مدفوعة بقوة حكم العزيز فأخذ الوزراء الكبار ورجال الدولة الامر فى يدهم حتى شب الحاكم وكان أول ما دل على بلوغه الرشد بعض أعمال بلغت من القسوة أشدها فقتل رجال دولته مثل ( برجوان ) ومنذ أخذ الحكم فى يده قضى فى حكم مصر نحو عشرين سنة ظهرت فى خلالها غرابة أعماله حتى أن التاريخ لايسعه الا أن يتهمه بنوع من الجنون وتمتاز كل أعماله بالتطرف فبينما يشتد فى معاملة المسيحيين حتى يقفل كنائسهم ويرغمهم على تحمل أنواع كثيرة من الأذى والاذلال إذا هو ينقلب على المسلمين فيوقع بهم ويسلط عليهم جنوده السود أحيانا أو البربر أحيانا فيرتكبون فى الفسطاط وسواها أشد أنواع القسوة والفظاعة

وكانت أوامره الادارية ذاتها مما يدل على اختلاط عقله فقد كان يفضل أن تكون الاعمال ليلا وكان يأمر أن لا تخرج النساء من منازلهن وألا يعمل صناع الاحذية لهن أحذية يخرجن بها وحرم العسل و (الملوخيه ) كما أنه اشتد فى تحريم الخمور الى حد أن أمر بقطع الكروم ذاتها . وقد تعددت اعماله الدالة على عدم سلامة عقله حتى لايمكن أن يعد مثلا لحكام دولة الفواطم فى مصر وقد بلغ من سوء أعماله أن أشعر المصريين بوجود فرق فى المذهب الدينى بينهم وبين الفاطميين مع أن أكبر ما تمتاز به الدولة الفاطمية انها تركت للمصريين مذهبهم ولم تتظاهر بما ينفرهم منها . وقد بلغ فى هذا السبيل حدا بعيدا حتى أنه جمع لديه من الدعاة كثيرين من نواحى فارس وسواها ليدعوا

الى ألوهيته وقد أثار ذلك كره المصريين وحدثت اضطرابات دموية من أجله . ولايزال اسم ( الدرازى ) أحد هؤلاء الدعاء محفوظا فانه عند ما ثار الناس عليه من أجل دعوته هرب للشام وهناك بث دعوته بامامة الحاكم وقدسيته وانه سيعود فى آخر الزمان ليطهر الارض من ادرانها وذلك مذهب ( الدروز ) بالشام . وقد أنشأ الحاكم للغرض ذاته — غرض الدعاية الشيعية — دار الحكمة وجعلها مكانا للبحث الشيعى حتى يقال أن ذلك البحث خرج بها عن دائرة الاسلام وقد أقفلت تلك الدار فى أوائل القرن الثانى عشر احتراما لعواطف المصريين السنيين .

وكان من غرابة خلق الحاكم أنه بنى لنفسه مرصدا فى المقطم يخرج اليه وحده ليلا راكبا على حماره مع خادم أو اثنين وأحيانا بغير خدم وكان هناك يرصد النجوم ويقضى فى السير مدة أثناء الليل المظلم الذى يحبه . وقد قتل فى احدى هذه الجولات وكان قتله نتيجة مؤامرة اشتركت فيها أخته ( سيدة الملك ) عند ما ظهر فساده الذى لا يداوى . وذلك سنة ١٠٢١

ولم يكن حكم ابنه الظاهر خيرا من حكم أبيه بل زاد عليه أن الاضطراب فى مدة الحاكم أحدث أثره فى مدته وانخفض النيل فزاد البلاء وبدات سلسلة من المجاعات المخربة وكان الظاهر منصرفا الى اللهو زيادة على ما كان فى طبعه من القسوة الشبيهة بقسوة أبيه وتلا حكمه حكم ابنه الطفل (المستنصر

وقد طال هذا الحكم طولا لا مثيل له فى التاريخ الا قليلا إذ حكم من ( سنة ١٠٣٦ — ١٠٩٤ ) أى نحو ستين سنة وحكم المستنصر هو آخر عهد الانتقال الذى انتقل فيه الحكم من أيدى الخلفاء الى أيدى رجال الدولة والوزراء وقد ظهرت فى أيام المستنصر الاولى نتائج فساد حكمى الحاكم والظاهر ونتائج ضعفه هو فان تلك الحوادث لم تكن لتمر بغير أن يكون لها صدى فى ممتلكات الفاطميين خارج مصر وهذا ما حدث فان شمال افريقيا بدأ يخلع عنه حكمهم حتى تم انفصاله عنهم فى أواسط القرن الحادى

عشر واستولى النرماندیون على صقلیه التی كانت خاضعة لهم اسمیا الى سنة ١٠٧١ وبدأت تقوم فی شمال افریقیا دول جدیدة مثل دولة المرابطین التی سبق ذكرها وكذلك كان الحال فی الشام فان سلطة الفاطمیین قلت هناك ولا سیما منذ أواسط القرن الحادی عشر عند ما دخل السلاجقة بغداد واعادوا الى الدولة العباسیة قوتها الحربیة

وفی حین كان سلطان مصر الخارجی یتقاص عن بلادها فی الخارج فی تلك الاثناء كان حكمها الداخلی یضمحل وتظهر فیه آثار الفساد وكان من أكبر عوامل ذلك الفساد تسلط الجنود وانتهازهم فرص هذه الاضطرابات لیزید نفوذهم ومما زاد الامر شدة أن الجنود كانوا ثلاث فرق البربر والاتراك والسودان وكانت المشاحنة بین هذه الفرق مدعاة لثورات متعددة انتهت أخیرا فی وسط حكم المستنصر الى أن الاتراك یخرجون على الدولة خروجا عاما ویستمرون على خروجهم نحو سبعة أعوام أوقعوا فیها البلاد فی أشد حالات الضنك وضاعت فی تلك الثورة أشیاء كثیرة من مخلفات الفواطم الاولى وأهمها بعض المخلفات الفنیة والمكتبة الكبرى التی كانت فی القاهرة [1] ولم ینج البلاد من هذه الفوضى الا أن استدعى الخلیفة حاكم عكا وهو (بدر الجمالی) سنة ١٠٧٣ وكان له الفضل فی اعادة النظام للبلاد بعد اخضاع الثوار والقضاء على عوامل الاضطراب ومنذ ذلك العهد یمكن أن یقال أن عصر حكم الخلفاء انتهى وابتدأ عصر جدید كان المتصرف فیه فی أمور مصر رجال دولة یكادون یستقلون عن ارادة الخلیفة ویحكمون باسمه. ومما یشهد لبدر الجمالی بالقدرة أن حال مصر عادت الى سیرتها الاولى من النجاح فی أیام العزیز بعد أن قضى على ادارتها عشرین سنة فلما مات سنة ١٠٩٤ ترك البلاد مستقرة موفورة الثروة • وقد مات الخلیفة فی نفس السنة بعد حكمه الطویل -

---

(١) ولكن فی العصر الاخیر من حكم الفاطمیین تجددت هذه المكتبة حتى أن صلاح الدین عند فتح مصر وجد بها نحو ١٢٠٠٠٠ كتاب

ولا يزال الى اليوم فى القاهرة آثار مادية ثلاثة باقية من حكم بدر الجمالى وهى الأبواب الثلاثة فى سور القاهرة الجديد الذى بناه وهى باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة ولعل فى مظهرها ما يدل على شيء من اقتدار بانيها . وبانتهاء ذلك العصر تدخل مصر فى دور جديد سنذكره فيما بعد عند استئناف ذكر تاريخ مصر فى القرن الثاني عشر .

# المدنية الاسلاميه وأثرها فى أوربا

بدأت الدولة الاسلامية منذ عصر الأمويين تستقر وبدأ الشعب العربي البدوى يلتمس الحياة من وجوهها السلمية بينما كانت الجيوش العربية لا تزال تهوى على وديان الأندلس وآسيا الصغرى وسهول غالة . وقد كان الشعب العربى الذكى على استعداد كبير للعمل والنجاح فى الحياة السلمية وكانت قوته قوة شعب فتى بدوى لم يضعفها شيء من آثار الخمول أو الاجهاد الذى يوجد عادة فى المجتمعات العريقة القدم فى المدنية فاشترك بذلك الاستعداد الكبير وهذه القوة الكامنة مع الشعوب التى فتح بلادها وحل بين ظهرانيها وجعل يتعلم منها ما كان يجهله بطبيعة ظروف حياته الأولى ومنذ بدأ يحذق فنونها واعمالها اندفع يخترع ويبتكر وكان اندفاعه هذا شاحذا لعزيمة جيرانه من الشعوب الأصلية فحدثت من مجموع ذلك نهضة عجيبة لم يشهد التاريخ مثلها الا قليلا فى تاريخ نهضات الشعوب

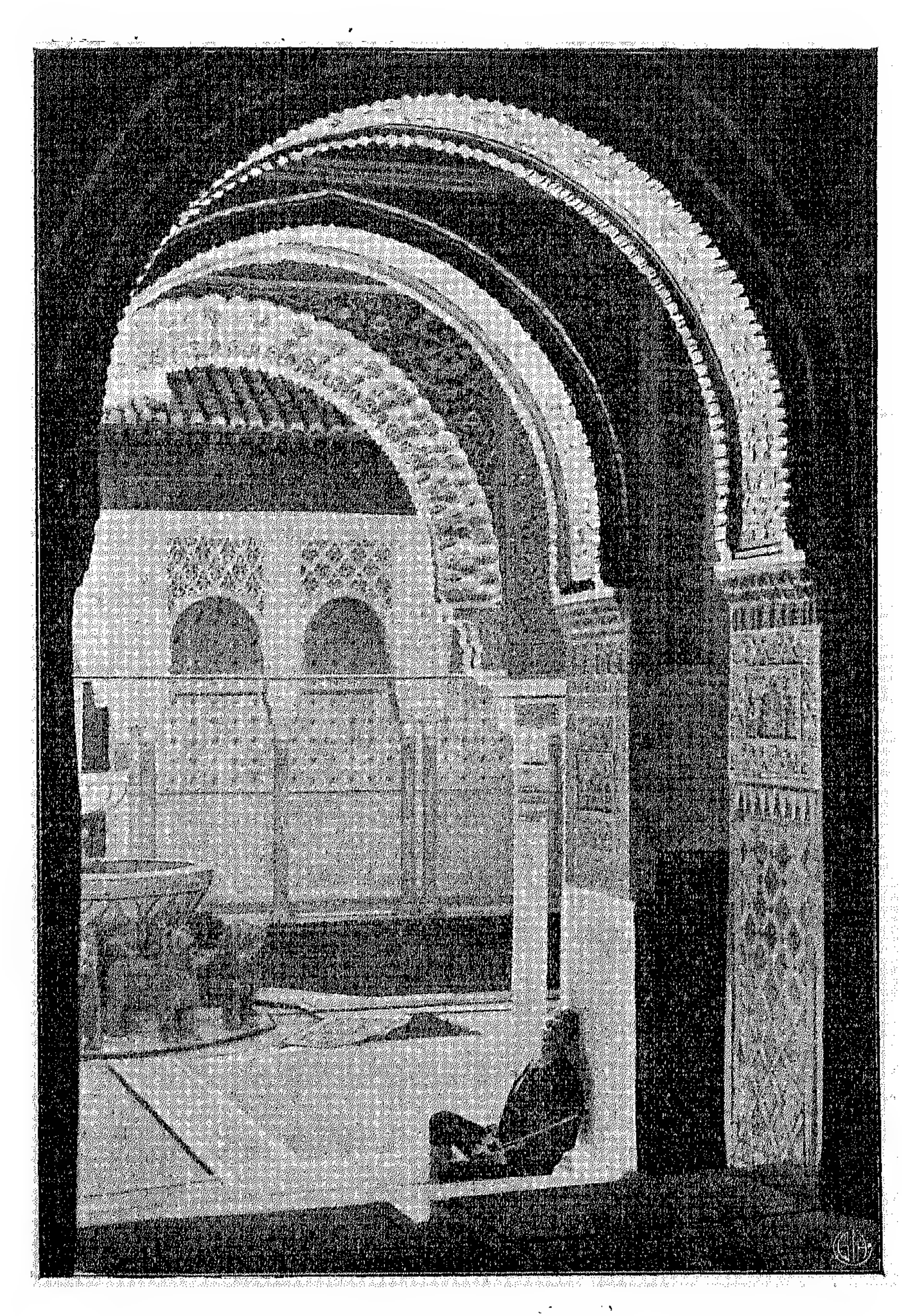
وقد كانت الدولة العباسية بطبيعة الحال هى الدولة التى شهدت إيناع تلك المدنية إذ فى أيامها كان تيار الفتح قد هدأ وانصرف الشعب بكليته الى المجهود السلمى وكانت بغداد أولا هى مركز ذلك المجهود العظيم . ولكن باستمرار العمل وتراكم آثار ذلك المجهود جعلت المدنية تفيض حتى صارت كل بلاد الدولة العباسية مراكز عظيمة لها فبخارى وسمرقند وخوقند ومرو واصبهان وشيراز وبغداد والموصل ودمشق كل هذه صارت مراكز

تضم فخر مدنيتها الى فخر مدنية بغداد ولكن زادت مدنية العالم الاسلامى غنى بوجود قطر آخر استقل بنفسه وأخذ يعمل من جانبه عملا مستقلا على إعلاء المدنيــة من جميع وجوهها وذلك دولة الأمويين بالأندلس فكانت قرطبة مركزا لاعلاء الفنون والآداب والعلوم وسائر أنواع المجهودات الانسانية يضارع بغداد وينافسها ويضم الى نورها نورا آخر يزيد المدنية الاسلامية سطوعا ثم نشأت مدنية ثالثة فيما بعد وهى المدنية المصرية وقد بلغت أول فيضها أيام الفاطميين منذ أواسط القرن العاشر فأصبح فى العالم الاسلامى ثلاثة مراكز كبرى تكاد لا تستطيع التفريق بين عظمة الواحدة والأخرى وهى مركز مدنية العباسيين بغداد ومركز مدنية الاندلسيين قرطبة ومركز مدنية المصريين القاهرة

وقد كان نمو هذه المدنية من جميع الانحاء متعادلا وعظيما ويجب أن تقسمها الى ناحيتين فى كلامنا الاولى الناحية المادية والثانية الناحية الفكرية

## المدنية المادية فى الاسلام

منذ عنيت الدول الاسلامية بوجوه الاصلاح بدأت الاعمال العامة تتكاثر فمنها الاعمال الزراعية ومنها ما يرمى الى تشجيع التجارة أو الصناعة . فان الدولة العباسية أعادت فى العراق نظام الرى الذى كان أيام عظمة الدولة الساسانية المنقرضة وزادت عليها ترعا جديدة ولم يقف مجهودهم عند اصلاح العراق ذاتها بل انهم حاولوا ما يمكن اعتباره كماليا مثل توصيل مياه الفرات الى مكة وهو العمل الذى قامت به السيدة زبيدة زوج الرشيد . والى جانب نظام الرى كان نظام الجسور والقناطر ، واذا ذكرنا الدولة العباسية فما لنا أن نهمل الأعمال العظيمة التى قام بها الأمويون بالأندلس والدول المستقلة بمصر . ولا أدل على هذه المجهودات من أن نذكر أن المياه بالأندلس كان يؤتى بها الى قصر الناصر من تلول مجاورة وان احمد ابن طولون جر



( شكل ١٠ ) قصر الحمراء بالاندلس

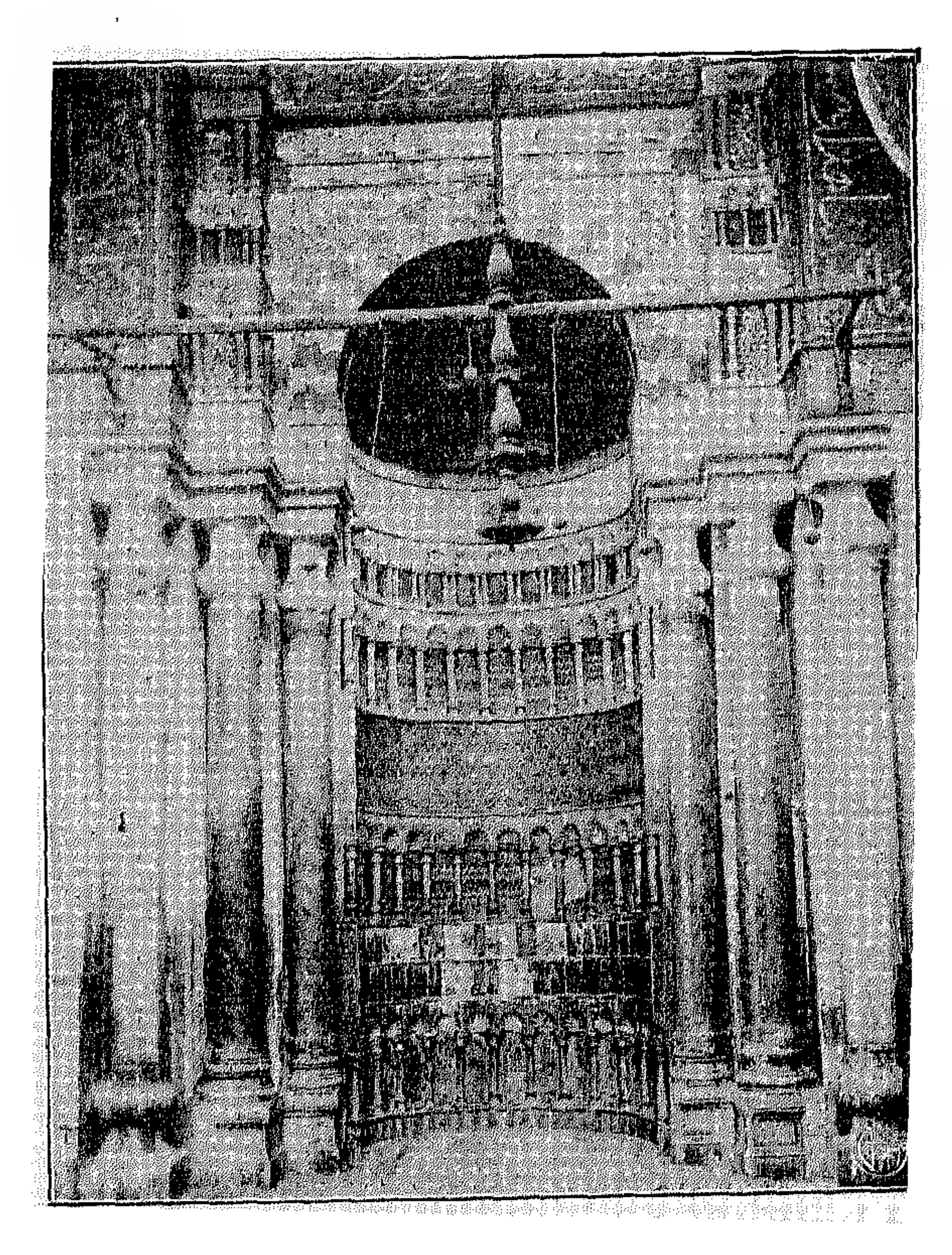
الماء الى قصره من عين فى الصحراء الجنوبية فى عيون وأنابيب من صنع مهندسيه (وكان مهندسه الأكبر قبطيا) وكانت اعمال الرى والجسور بمصر بطبيعة الحال أعظم منها فى أى قطر آخر لتوقف حياة البلاد على الزراعة ولهذا كان اهتمام الدول المصرية بها عظيما وكانت نتائج مجهوداتهم فى تلك الناحية مدهشة من حيث الاتقان

ولم تكن بلاد العالم فى عصر من العصور الماضية أكثر أمنا واتصالا مما كانت عليه فى عصر عظمة الدولة الاسلامية فان الطرق التجارية البرية كانت متصلة من الصين الى المحيط الاطلسى أى ان العالم المتمدين إذ ذاك كان كله متصل الاجزاء وكان الأمن مستتبا على طول هذه الطرق حتى أن المسافر المفرد كان يستطيع اختراق الصحارى المخيفة بغير حادث وكان يعزز الأمن فى تلك الربوع نظام البريد المتصل والمحطات الكثيرة فى الطريق ولم تبخل الدول المختلفة بأى مقدار من المال تصرفه على حفر الآبار فى الصحراء تشجيعا للاسفار والتجارة وقد درت التجارة ثروتها للدول والافراد مكافأة لهذه المجهودات حتى صار تجار المسلمين القابضين على أزمتها فى جميع العالم المعروف . وكانت منتجات الهند والصين تأتى بلا تكلف الى اسواق بغداد ودمشق ومصر بل الى اسواق قرطبة ذاتها مع بعد المسافة .

واما الصناعة فقد بلغت فى تلك الأيام مبلغا لا يقارن بما بلغته فى أى عصر من العصور القديمة من جهة الدقة وان لم يكن من جهة العظمة والحجم فالمنسوجات المختلفة ولا سيما الثمين منها والصناعات المعدنية وصياغة الذهب والحلى وسائر أنواع الاعمال الدقيقة كل ذلك نما فى أسواق العواصم الكبرى وكان غنى الافراد وحياتهم المنعمة الناشئة مما حصلوا عليه من الثروة من وجوه الانتاج المختلفة كان ذلك باعثا على تشجيع الصناعات ولا سيما الدقيق الجميل منها .

وقد بلغت الصناعة فى الأندلس مبلغا أكبر من كل هذا فقد توصل النبوغ الأندلسى فى علم الحيل ( الميكانيكا ) الى أن ابتكر صناعها آلات معقدة تتحرك بواسطة لوالب من نوع ( نظام عمل الساعات ) وكان البندول الذى يحرك الساعة الدقاقة من ابتكار صناع الدولة الاسلامية كذلك .

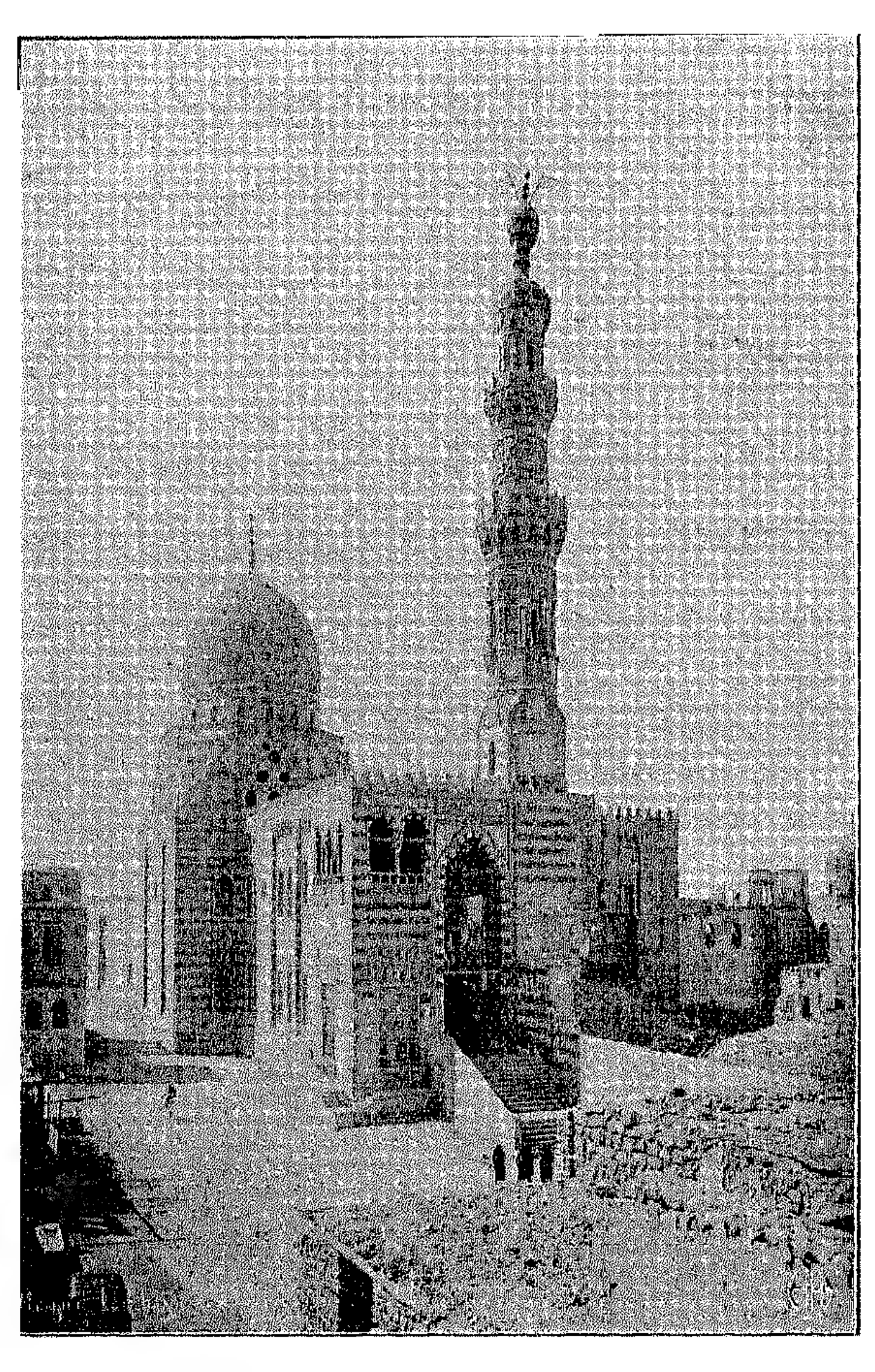
وأكبر مخلفات تلك العصور الباقية الى الآن هى المبانى الفخمة التى سلمت على مر الدهر وأكثرها من المساجد والمباني العامة التى لقيت عناية فى العصور المختلفة فقد أتى وقت على بغداد والعواصم الأخرى كانت تزهو بمبانيها الفخمة وحدائقها الغناء وكانت آثار دقة الصنعة بها مدهشة ولكن الحوادث لم تبق الا على قليل من تلك المبانى ويمكن أن نلمح عظمة



( شكل ١١ ) مثل من بناء عصر المماليك بمصر

تلك الصناعة من القليل الباقى ويطلق عادة على الطراز الذى كان سائدا فى تلك العصور اسم الطراز العربى وأكبر مميزاته دقة الاجزاء سواء اكانت تلك الاجزاء أعمدة أم القطع الخشبية الصغيرة ( الخرط ) وكذلك زيادة نسبة الطول على العرض فى هندسة الاجزاء وذلك ما يعطى المآذن والأبواب شكلها الرشيق .

وليس لنا أن ننسى ذكر المبانى العظيمة الباقية التى أصبحت شهرتها عالمية مثل قصر الحمراء بالأندلس الذى بنته آخر أسرات الحكام المسلمين فى غرناطة . ومثل مساجد الازهر وبرقوق وقلاون بالقاهرة .



( شكل ١٢ ) مسجد قايتباى بالصحراء

المدنية الفكرية فى الاسلام

كان هذا ميدان العرب بنوع خاص فانهم باستعدادهم كانوا ميالين الى حدة التفكير ودقته وقد اختلطوا بشعوب من أدق الشعوب فكرا وأعرقها مدنية فكان من هذا الاختلاط شعب قادر على أرقى أنواع المنطق والفكر وكانت الميادين الفكرية مختلفة ومتشعبة ومن أشق الأمور حصرها ولكنا سنحاول شيئا من ذلك فيما يلى

القانون والدين .

كان القرآن أساس المجتمع الاسلامى وكان موضع تقديس كل الدول الاسلامية وشعوبها مع اختلاف اجناسها فكانت الحاجة ماسة الى فهمه ودرسه وتحليله وكذلك كان الحال فى أحاديث سيدنا الرسول وقد كان الدين الاسلامى فى كل العصور شاملا لقواعد الاخلاق والقانون معا ولذلك كانت دراسته لازمة للمتأدب العام كما كانت لازمة للحاكم والقاضى والمشترع وقد انصرف الى دراسة الدين والقانون جماعة من أكابر المفكرين وكانت مذاهبهم المختلفة ميادين فسيحة لمناقشة أسمى مبادىء الأخلاق والفلسفة والعدالة ولنذكر الائمة الاربعة ابن مالك والشافعى وأبو حنيفة وابن حنبل وحسبنا منهم ما يدل على مقدار تعمق التفكير فى العالم الاسلامى ولا تزال الشريعة الاسلامية ينبوعا سليما فياضا لأهل الشرائع .

الأدب :

هذا باب واسع جدا لا يمكن أن يحصر ما انتجه العرب فيه فى مثل هذا المجال الضيق ويكفى أن نقول أن الشعر فى العالم الاسلامى بلغ مبلغا لا يزال الى الآن يعتبر فى بعض أنحائه فائقا على آداب جميع اللغات ففى الشعر يكفى أن نذكر أسماء أمثال المتنبى الحكيم أو المفكر العميق أبى العلاء المعرى أو الفيلسوف العبقرى عمر الخيام لكى ندل على ما بلغه الشعر الاسلامى

من العظمة وقد كانت الأندلس بنوع خاص ميدانا للشعر الخفيف شعر العواطف ووصف الطبيعة البديع ومن أمثلة شعرائهم الكبار ابن هانىء وابن خفاجة وابن زيدون(١). ولا يزال هؤلاء الشعراء جديرين الى عصرنا هذا بكل اجلال لما فى شعرهم من الرقة والعاطفة والجمال ·

واذا كان للمسلمين ذلك القدر فى الشعر فان مؤلفاتهم فى سائر أبواب الأدب كانت جديرة بالاعجاب أيضا · وهناك أسماء كثيرة لا بد أن ينحنى أمامها أكبر كتاب العصر الحديث اجلالا مثل ابن المقفع وابن حزم والجاحظ . هذا الى ما ظهر فى العربية من المؤلفات الفنية مثل الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى ومثل كتاب العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسى · وقد وجد فى المؤلفين جماعة من النقاد الأدبين والرواة ولا يزال تفكيرهم الى اليوم مثلا طيبا للتأليف والبحث ·

غيران شيئا واحدا لم يعن به العرب فى الأدب وذلك انهم لم ينقلوا عن اللغتين اليونانية واللاتينية ما تخلف من آدابها الكبرى بل كان كل همهم فى الترجمة من هاتين اللغتين منصرفا الى نقل المؤلفات الفلسفية والعلمية وبذلك لم تستفد اللغة العربية شيئا من الياذة هومر وأمثالها من الدرر الأدبية القديمة ولم يوجد لهذا عند المسلمين أمثلة تحتذى فى الفن الشعرى القصصى ولا فى القصص فكانت اللغة العربية الى العصور الحديثة خالية من هذين البابين تقريبا اللهم الا بعض محاولات قليلة فى ذلك الباب مثل كتاب الف ليلة وليلة أو قصة سيف بن ذى يزن وأمثالها ·

---

(١) يمكن الطالب أن يطلع على أمثلة من هذا الشعر مثل القصيدة النونية المشهورة لابن زيدون التى مطلعها

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

التاريخ :

ويمكن اعتباره بابا من أبواب الأدب وقد ظهر فيه فى اللغة العربية كتب كثيرة قيمة كانت كلها بمثابة دواوين للحوادث مثل تاريخ الطبرى وابن الأثير وأبى الفداء وابن خلدون وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهى أن المسلمين لم يعاملوا التاريخ معاملة علمية اللهم الا ابن خلدون فقد كتب مقدمته لتكون نواة لكتاب علمى فى التاريخ ولكن تاريخه لم يكن الا مثل سائر المؤلفات التاريخية الأخرى . ولكن بعض كتب الأدب كانت تحتوى على كثير من الوصف التاريخى الذى هو فى الحقيقة روح التاريخ الاجتماعى مثل كتاب ( نفح الطيب ) الذى يصف أحوال الأندلس وأدابها وتاريخها وصفا مسهبا جديرا بالاعجاب .

العلم :

وهذا فروعه مختلفة ولكن يضم الجميع معنى واحد وهو البحث فان المسلمين صرفوا جزءا كبيرا من ذكائهم فى البحث فى جميع أنحاء التفكير فانصرفوا الى البحث فى المادة وخواصها وكشفوا أسرارا كثيرة وأنشأوا قواعد علم الكمياء الحديث ولنذكر أسماء جابر بن حيان والرازى رمزين على المجهود الذى بذله العرب فى ذلك السبيل وقد بحثوا أيضا فى أسرار الطبيعة فعرفوا بعض قوانين الضوء وكثيرا مما يتعلق بالسوائل الخ وأما فى الهندسة والميكانيكا فقد كان لهم شأن عظيم ولا سيما فى الأندلس حيث بلغ التفكير الهندسى ولا سيما فى علم الحيل شأوا بعيدا . إذ اخترعت آلات تتحرك حركة لولبية فى غاية التعقيد والدقة .

وقد كانت النجوم وعلمها ذات خطر خاص عند العرب وقد بحثوا فى ذلك لغرضين الاول علمى وهو الفلك الصحيح والثانى غير علمى وهو التنجيم لمعرفة علاقة الكواكب بالانسان ومصيره وقد وصلوا فى درسهم

الى كشف قوانين فلكية كثيرة ويكفى أن نقول ان أسماء النجوم تحتفظ فى كل لغات العالم المختلفة اليوم بأسماء أطلقها العرب عليها وقد ترجم العرب كتاب المجسطى لبطليموس الجغرافى وكانوا يحققون بأنفسهم ما جاء فيه ويزيدون على ابحاثه ويتعمقون فيها .

ولم يقصر العرب فى علم الطب والمادة الطبية فترجموا كثيراً من مؤلفات اليونان وسواهم فيه وزادوا من عندهم ابحاثا وكشفوا أسرارا . وقد كان الطب مثل سائر العلوم يعتبر جزءا من علم الفلسفة ومباحث الفلاسفة وهذا ما جعل أكثر الباحثين فيه من المعروفين بالفلاسفة مثل ابن سينا وإن نظرة إلى كتاب مثل تذكرة داود لتدل على مقدار الثروة التى تكدست عند العرب من وصف المادة الطبية ومعالجة الامراض إذ لا يكاد يوجد مرض من الأمراض المعروفة لم يبحثوا أوصافه ويصفوا له علاجا وكانت صفات أدويتهم فى كثير من الاوقات ناجحة

وقد اندفع كثيرون من العرب في بحثهم حتى جابوا البلاد وعرفوا اصقاعها ووصفوا شعوبها والأسماء المجهولة من هؤلاء الجوابين أكثر بكثير من الاسماء المعروفة ولكن يكفى أن نضرب لهم مثلا بالرحالة ابن بطوطة. وقد اخترع المسلمون البوصلة أو نقلوها من أهل الصين وأثبتوا معلوماتهم فى خرائط أو كرات أرضية وكان من بين الجغرافيين المعروفين الادريسى .

## الفنون

كان المسلمون لا يجيزون لأنفسهم التصوير بأنواعه لأنهم كانوا يخشون أن يقلدوا أصحاب الديانات الأخرى فى تقديسهم للتماثيل فقد كانوا يعدون ذلك نوعا من عبادة الأوثان ومن جهة أخرى كانوا ينزهون صنع الله أن يقلده البشر . ولهذا قل ان نجد فى فنون العرب شيأ من هذا التصوير ( إلا فى مدة الدولة الفاطمية بمصر فقد وجدت أمثلة قليلة من الصور البشرية ) ولهذا انصرف الفن إلى الزخرفة العربية التى امتازت بشكلها المعروف وهى زخرفة هندسية

لا تمثل خلقة الله من بشر أو سواه ولكن تلك الزخرفة بلغت مع ذلك حدا عظيما من الجمال والاتقان . وأكبر أمثلتها الباقية زخرفة قصر الحمراء وزخرفة المساجد ولا سيما مساجد عصر المماليك بمصر.

ولكن الفن الذى فاق فيه العرب هو الموسيقى وقد برز فيه جماعة من المؤلفين والملحنين أمثال (معبد) . و( اسحق الموصلى ) وسواهم ولا تزال الموسيقى العربية الى اليوم أكثر دقة فى تقسيمها من الموسيقى الاوربية ولولا فقر التأليف والتلحين لكانت الموسيقى العربية تتسع بنغماتها المتعددة إلى صنوف من الغناء لاتتسع لها موسيقى الغربيين .

## مكانة المدنية الاسلامية فى التطور الانسانى

لقد بدأت الشعوب المجيدة القديمة أول خطوات الانسان نحو المثل الأعلى من الحياة وكانت مصر القديمة والصين وبابل وسواها من هؤلاء الرواد الأوائل ثم جاء بعد هؤلاء عصر آخر أخذ فيه عبء القيام بالمدنية أمم أخرى حتى ظهر اليونانيون العظماء وهؤلاء دفعوا العالم بعبقريتهم دفعا لا مثيل له فى كل الجهات ولا سيما الجهة الفكرية حيث برز الفلاسفة اليونانيون على جميع من سبقهم وكثيرين ممن لحقهم . أليس سقراط إلى اليوم عظيما ؟ وهل انقص توالى السنين من عظمة ارسطو ؟ ولقد نال اليونانيون حظا فائقا من التقدم في الآداب والفنون ولا تزال آدابهم وفنونهم إلى اليوم من الآثار العالمية التى تنحنى أمامها الرؤوس

ولقد ساد الرومانيون العالم بعد ذلك ولكن انشغالهم بسيادتهم السياسية وحاجتهم إلى نظام إدارى وقانونى شامل محكم جعلهم ينصرفون إلى الأمور العملية تاركين لليونانيين الذين اندمجوا فى دولتهم الاستمرار على الدرس وإنماء الآداب والفنون والعلوم .

وجاء العرب بعد ذلك فسادوا العالم كما رأينا وكان من المحتوم عليهم ان

يتحملوا عبء النهوض بالمدنية الانسانية فحملوا ذلك العبء وقاموا به قياما لا ينكره عليهم أحد فبدأوا ببطء يفحصون ما تخلف من المدنيات القديمة التى كانت لهم بها علاقة من الهند وفارس الى مصر الى اليونانيين بل الى الرومانيين أنفسهم وأخذوا ينقلون ما يرون فى نقله فائدة وأخذوا بعد ذلك يبنون حتى بلغوا ببنائهم علوا شاهقا بارعا فى جميع تفاصيله

فالعرب اذن كانوا الخلفاء على المدنية الانسانية بعد اليونانيين وكان عليهم بطبيعة الأشياء ان يسلموا هذه المدنية إلى من يتصدى لسيادة العالم بعد أن تبلغ دولتهم أجلها وجعلت شعوب أوربا منذ القرن الحادى عشر تفتح أعينها إلى الأفق البعيد وتلمح الضوء المنبعث من مدنية العرب ومازال الاوربيون حتى استطاعوا أن يقربوا من مصدر الضوء ويعرفوا أسراره ومنذ عرفوا ذلك جعلوا يبنون وعندما حان الوقت تحملوا عبء المدنية التى أسلمها لهم المسلمون فان كانت دولة المسلمين الأولى قد مضت فقد أدت واجبها نحو الانسانية . والعالم مازال أمواجا تلى واحدة منها الأخرى وليس ببعيد أن تقوم من اطلال الدولة الاسلامية الأولى دول جديدة تنتظر ان يحين وقتها فتتصدى لسيادة العالم مرة أخرى وتتحمل عبء المدنية مرة أخرى ولكن لابد أن يكون ذلك فى شكل جديد ونظام جديد حسب التطور الطبيعى للانسان

أثر المدنية الاسلامية فى أوربا

مما سبق ذكره يمكن أن ندرك أن شعوب أوربا قضت منذ القرن الخامس دهرا طويلا فى جهالة وشبه فوضى . وقد سمى ذلك العصر بالعصر المظلم إذ كانت تلك الشعوب تجهل لغة اليونانيين والرومانيين التى كانت بها المؤلفات القديمة وكانت لا تستطيع وحدها أن تصل إلى بناء مدنية جديدة عظيمة فليس هذا من طبيعة الأمور وقد زاد العهد الاقطاعى من ظلمة

تلك العصور فان الحروب المستمرة التى اشتعلت بأوربا فى هذا العهد شغلت الناس عن أى انصراف إلى الأمور المدنية قديمة كانت أو طريفة . ولكن لم تستطع هذه الشعوب أن تبقى فى عزلة عن المدنية طويلا . حقا انها تجهل مفاتيح العلوم القديمة الميتة وهى اللغات القديمة ولكن وجدت إلى جانبها مدنية حية وهى المدنية الاسلامية وقد كانت البلاد الاسلامية تلامس بلاد أوربا من جهات ثلاث الأولى عند حدود دولة الروم الشرقية والثانية عند جنوب إيطاليا والثالثة عند حدود الاندلس

وقد زادت العلاقات بين اوربا والمسلمين منذ القرن العاشر ولكن ذلك كان بواسطة الحروب المستمرة التى كانت فى جنوب ايطاليا واسبانيا . فان تلك الحروب وان كانت مظهرا عدائيا تعقب تعارفا واتصالا فبدأت أوربا تعرف ما عند جيرانها المسلمين من العظمة والمدنية وبدأت تتلقى عنهم أول دروسها .

وقد كانت بالأندلس وجنوب ايطاليا معاهد للعلم عظيمة وكان المسيحيون ( أهل أوربا ) يقصدونها كما نقصد نحن اليوم بلاد أوربا للتعلم وقد زاد الاتصال بعد ذلك فى القرن الثانى عشر فان الحرب الصليبية دفعت الأوربيين أن يوغلوا فى الدولة الاسلامية وهنالك اشتد اتصالهم بالمدنية الاسلامية فجعلوا ينقلون عنها ويتعلمون منها واعدتهم المدنية الاسلامية برغمهم بحكم التفاعل المستمر الذى أعقب حلول الصليبيين بالشرق

ولما خبت نيران تلك الحروب وأخرج المسيحيون أخيرا من الشام استمرت حركة تجارية سلمية كبرى بين العالمين وكانت تلك الحركة باعثا كبيرا على نقل ما عند المسلمين من خيرات المدنية وثمارها الى أوربا سواء كانت تلك الخيرات من آثار الصناعة والتجارة أم من آثار الفكر والعلم .

إذن فالمسلمون كانوا معلمى أوربا وإذا كانت أوربا قد نهضت نهضتها الأولى منذ القرن الثالث عشر فقد كان ذلك من أثر العرب فلما زادت حركة النهضة بعد ذلك فى القرون التالية عرف الأوربيون سر المدنيات

القديمة وأخذوا يدرسون اللغتين اللاتينين والاغريقية وساعدهم على ذلك معلمون هاجروا من القسطنطينية فى القرن الخامس عشر عند سقوطها فى يد الاتراك وكتب قديمة فاضت على أوربا مما كان مكدسا فى تلك العاصمة العظيمة ومنذ عرف الاوربيون سر المدنية القديمة زادت الحركة الفكرية حياة وقوة واجتمع عندهم أثر العرب وأثر المخلفات اليونانية والرومانية وكانت نتيجة كل ذلك تلك النهضة الكبرى التى سادت اوربا فى القرن الخامس عشر وما بعده



( شكل ١٣ ) بناء لانرمانيين بايطاليا الجنوبية ( على الطراز العربى )

# عصر الحروب الصليبية

## (العصر الأول سنة ١٠٩٧ - ١١٩٣)

قد كان الاسلام منذ ظهوره يمتد على الأراضى المجاورة وكان العرب شعبا قويا ذكيا فاستطاع أن يفتح البلاد ويبنيا فيها على مر الزمن مدنية راقية وكانت أكثر الاراضى التى نزعها إما من بلاد الفرس وإما من بلاد الرومان وهما الدولتان الكبريان اللتان كانتا تحكمان العالم .

وفيما كان العرب يمدون سلطانهم على تلك البلاد ويقيمون فيها مدنيتهم الجديدة كانت أوربا فى يد شعوبها البربرية المختلفة تتطور فى العصور المختلفة تطورا خاصا بها الى أن آل الأمر أخيرا إلى حكم الاقطاع بها

وقد أجرى الحكم الاقطاعى فى أوربا الدماء فما كانت الحروب الداخلية تقف إلا قليلا بين الأمراء المتنازعين . ولم يكن عند ذلك فى أوربا حكم مركزى يحفظ بينهم السلم أو يحكم بينهم القانون .

وكان فى أوربا عند ذلك سلطان آخر عظيم وهو سلطان البابا والكنيسة ولم يكن له حدود اقطاعية بل كان البابا سيد رجال الدين فى كل البلاد الغربية وكان رجال الدين عند ذاك ذوى نفوذ أدبى عظيم على الناس سواء عامتهم وخاصتهم وأمراؤهم كما مر

وكانت أوربا إذ ذاك فى حالة من الجهالة جعلت التاريخ يطلق على ذلك العهد لقب العصر المظلم وكانت تلك الاوقات ( القرنان العاشر والحادى عشر ) من أشد العصور المظلمة حلوكة وكان نفوذ رجال الدين بطبيعة هذه الحال على أشده إذ كانوا قادة أدبيين لقوم لا يقدرون على تفكير مستقل . وقد حدث منذ القرن الحادى عشر نضال بين البابا والامبراطور وكان البابا هو

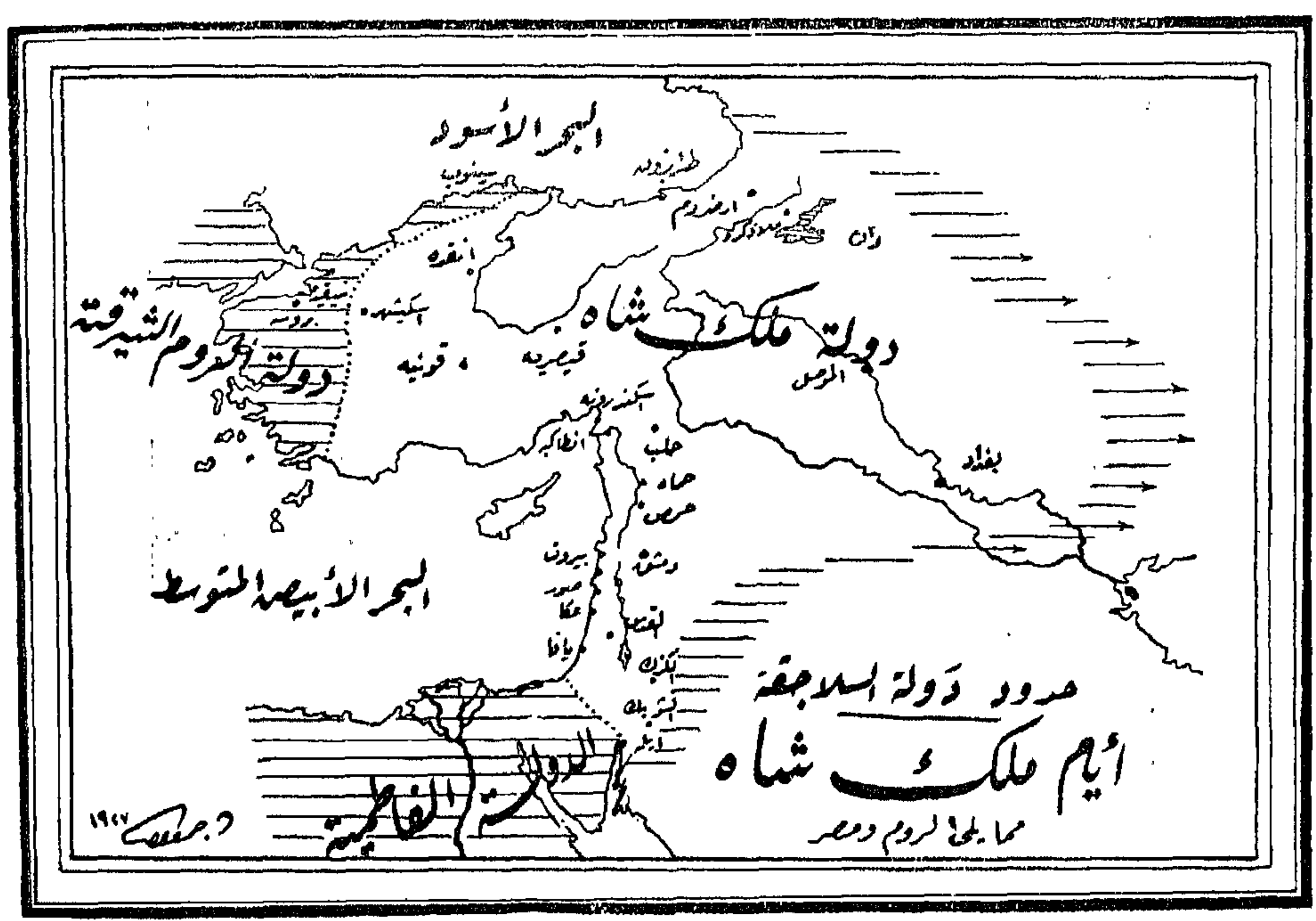


( شكل ١٤ ) قلعة اقطاعية مشرفة من تل عال

الفائز فى أكثر المواقف وبلغ نفوذ الكنيسة على ذلك أشده منذ ظهرت قوة رئيسها الأكبر .

فى هذا الوقت كانت الدولة العباسية قد تجدد شبابها الحربى على يد السلاجقة وجعلت جيوشها مرة أخرى تغير على حدود الدولة الرومانية من

جهة وعلى الشام الذى كان الى ذلك الوقت تابعا للدولة الفاطمية من جهة أخرى وقد نجح السلاجقة فى كل من الميدانين فاصبحوا أصحاب آسيا الصغرى وصار يدعى للخليفة العباسى فيها إلى شواطىء بحر مرمرة بعد أن هزموا الرومانيين فى موقعة ملاذكرد الشهيرة سنة ١٠٧٢ كما أنهم أخذوا بيت المقدس وأكثر بلاد الشام سنة ١٠٧١ وأصبحوا عند حدود مصر تقريبا .




( خريطة ١٢ ) حدود دولة السلاجقة

عند ذلك حدث أن النصر الحديث الذى أحرزه الاتراك جعلهم يظهرون أمام أهل البلاد التى تم فتحها حديثا بمظهر الشدة والبأس وذلك ما جعل الدولة الرومانية تخشى أن يمتد الفتح حتى يبلغ قسطنطينية وخشى الاباطرة ان يفتح المسلمون تلك العاصمة التى قاومت هجماتهم غير مرة فيما مضى

وقد كان من آثار سيادة الكنيسة ورجال الدين فى أوربا فى القرن الحادى عشر ان وجدت حركة دينية كبرى وكانت احدى نواحى هذه الحركة

الدينية كثرة الحجاج الذين كانوا يفدون كل عام من كل البلاد إلى بيت المقدس لزيارة قبر السيد المسيح — وقد رأى هؤلاء الحجاج الكثيرون كيف فتح السلاجقة بيت المقدس وكيف ظهروا أمامهم حكاما ذوى بأس وشدة وسطوة فجعلوا يتألمون من ذلك وينقلون أخباره لبلادهم. وأى بلاد ؟ هي بلاد تكثر بها الفرسان ذوو الانفة والجراءة وعليها سلطان عظيم لرجال الدين كما ذكرنا

وكان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية عند ذلك هو الكسيوس وكان واقفا على كل ما حوله من الظروف وكان رجلا داهية. فاحب أن يستفيد بتلك الظروف ليرد عن دولته التيار الجارف الذى كان يهددها من ناحية المسلمين.

فأرسل الى البابا وهو عالم بأنه أعلى الناس كلمة فى أوربا لكى يساعده على استنقاذ بيت المقدس من المسلمين وما كان البابا ورجال الدين ليجهلوا ما كان الحجاج ينقلونه من الأخبار وهم ينعون بيت المقدس وتسلط الاتراك الجفاة عليه وقد أراد الكسيوس أن ينتهز الفرصة سنة ١٠٩٥ فان ملك شاه أكبر سلاطين السلاجقة كان قد مات سنة ١٠٩٢ وتحطمت الدولة بعده وتجزأت. فأراد أن يصدم إذا استطاع ذلك البناء الهائل المجاور له حتى يصدعه قبل أن يتماسك ويستقر بعد ما اعتراه من الضعف بموت ملك شاه العظيم

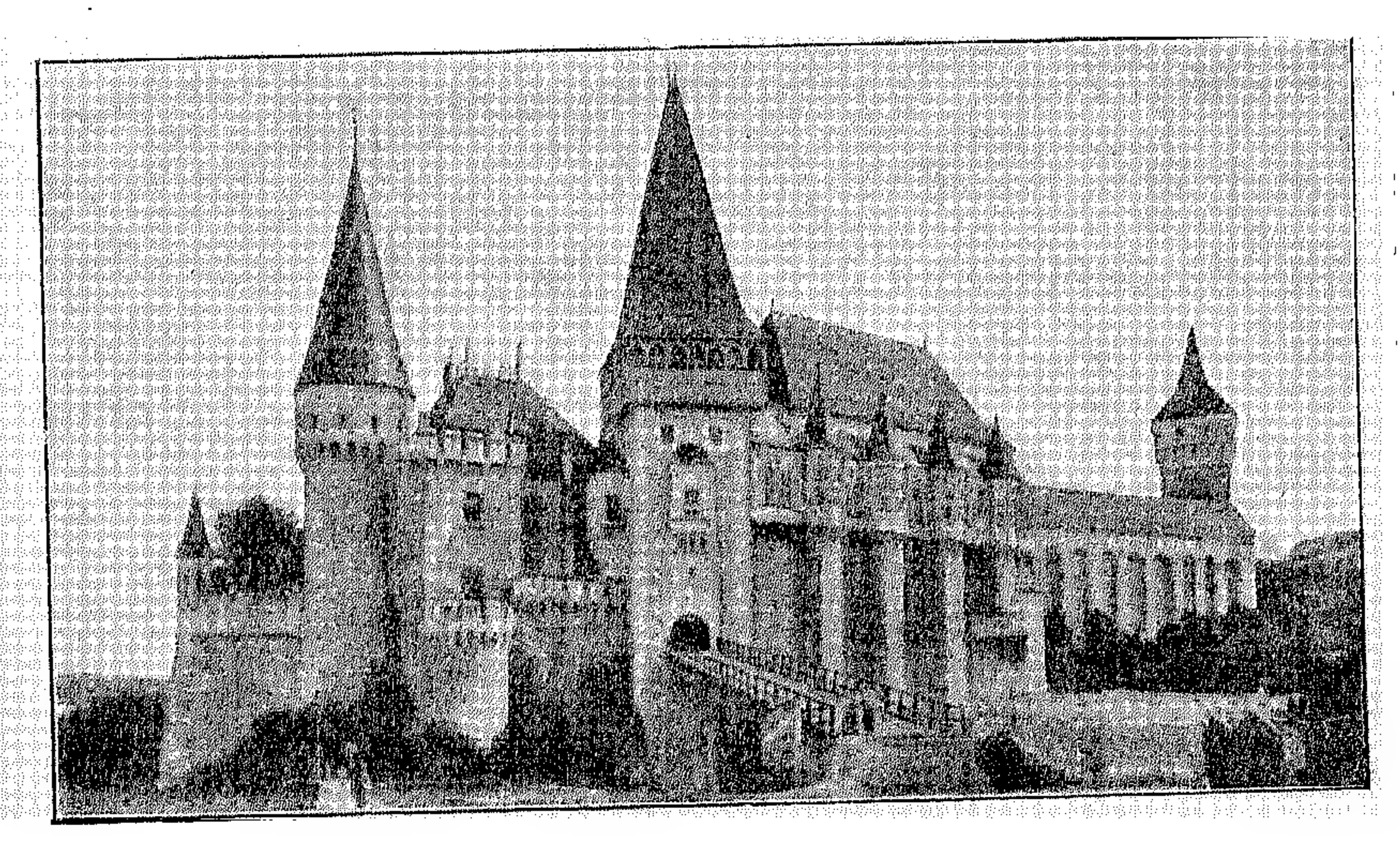
ولم تكد الدعوة تبلغ البابا وهو فى مؤتمر دينى ( مجلس كليرمون ) حتى أعلن الحرب باسم الصليب لاستنقاذ بيت المقدس ووجه دعوة الى أوربا لمساعدة الدولة الرومانية الشرقية على ذلك الغرض

ولقد كان بين الدولة الرومانية الشرقية وبين البابا من قبل شقاق وشبه عداء ويمكن ان نعرف ذلك من الحوادث الماضية ولكن حماسة الوقت أنست الجميع ذلك الشقاق فما كان هنالك الاصيحة واحدة فى فم الشعب والأمراء وفى فم الدعاة من رجال الدين وسواهم الذى أخذوا يجوبون البلاد

ليزيدوا من ايقاد الحماسة وتلك الصيحة هى حرب المسلمين وانقاذ بيت المقدس . وكانت علامة اشتراك المحارب فى تلك الحركة أن يستلم صليبا يكون له رمزا وحاميا واشترك الشرق المسيحى مع الغرب المسيحى فى حركة واحدة لنصرة الصليب ومن ثم تعرف الحركة بالحركة الصليبية .

أجاب ألوف من الأمراء ومئات الألوف من العامة تلك الحركة وكانت هناك دوافع كثيرة لنجاحها نكتفى بأن نذكر منها ما يأتى

(١) وجهت الدعوة فى العصر الاقطاعى الذى كان فيه الفرسان ونظام الفروسية فى الاوج فما كاد يفتح ميدان للحرب حتى تنافس الجميع على الظهور فيه



( شكل ١٥ ) قلعة اقطاعية وحولها الخندق وفوقه القنطرة المتحركة

(٢) لم يكن أمام هؤلاء الفرسان ميادين للحرب الا المنازعات الداخلية لأن الاغارات الأجنبية كانت عند ذلك قد هدأت وخبت فلما وجد ميدان جديد أسرع اليه المحاربون الذين لا يحبون شيئا مثل الكفاح .

(٣) وجهت الدعوة الى العامة من الكنيسة والبابا وكانت كلمة رجال

الدين عند ذلك وعدا لا يكذب . وأى وعد أشهى الى النفوس من أن تنال جزاء عملها الجنة وغفران الذنوب ؟ فقام الشعب لاجابة هذه الدعوة رغبة فيما وعده به رجال الدين من الثواب .

(٤) كان البابا أعظم رأس فى اوربا وقد تسارع الرؤساء الى اجابة دعوته إما طلبا للثواب وإما رغبة فى ارضائه والتقرب اليه .

ولم يكن رئيس ليتخلف عن حركة انخرط فيها أقرانه فسرت العدوى الحماسية بين الجميع وتلقى الصليب منهم عدد عظيم بينهم جماعة من أكبر الأمراء وقادتهم

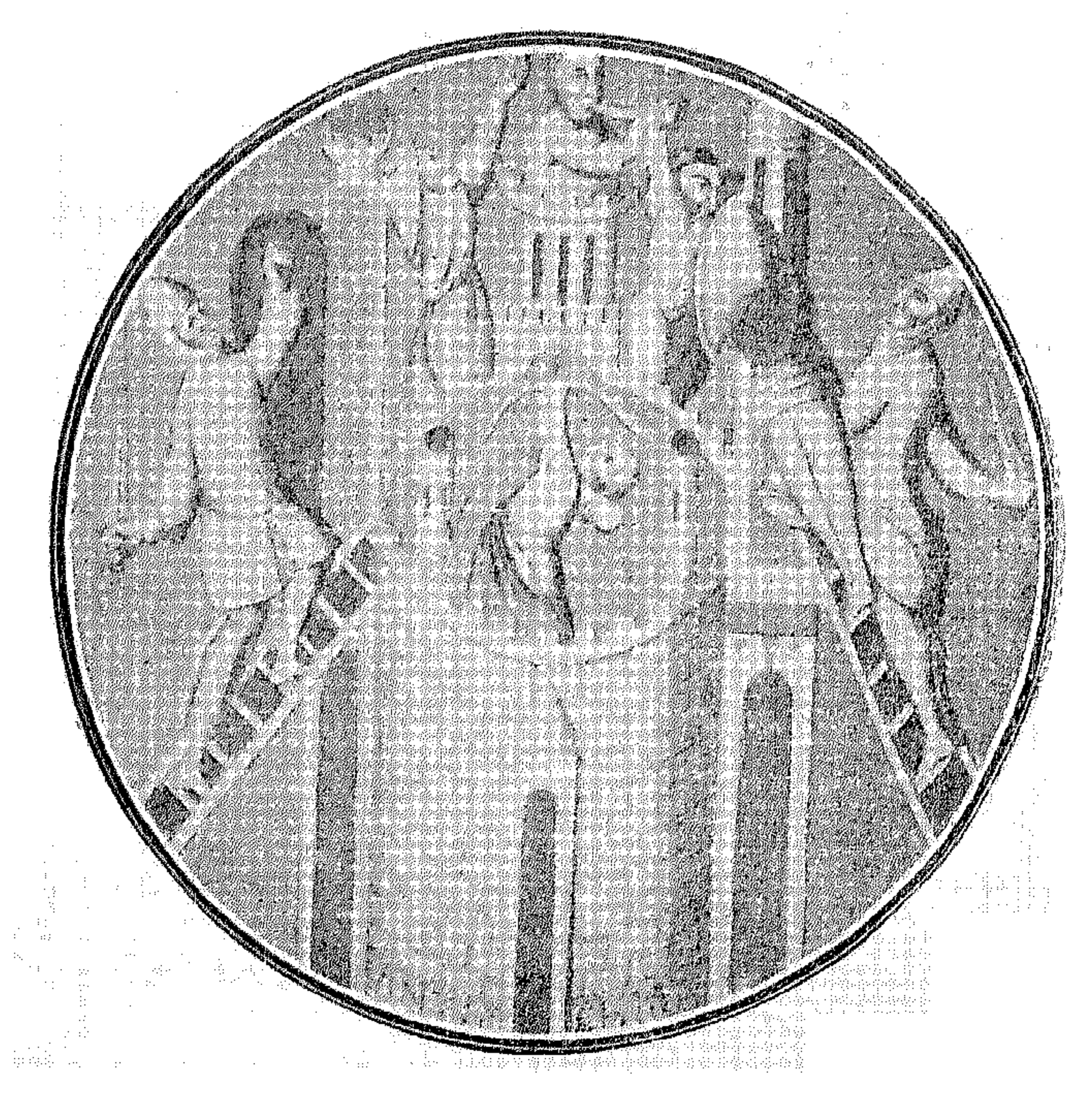
(٥) ساعد على اذكاء الحماسة الخطباء الكثيرون الذين كانوا يتنقلون فى ربوع أوربا يلقون الخطب لاثارة الناس مثل ( بطرس الراهب ) و ( والتر المفلس )

(٦) بذل البابا مجهودا عظيما فى اثارة الحماسة لتكون له قيادة أوربا في عصر كان يريد أن يعلى بكل وسيلة نفوذه فيه لأنه كان إذ ذاك فى نضال مع الامبراطور ويريد أن تكون له دائما المكانة الأولى فوقه فى أوربا . كما أن البابا كان لا يترك فرصة تزيد من البلاد التى تخضع لسلطانه فاذا فتح بيت المقدس والشام كان فى ذلك زيادة لنفوذه على بلاد جديدة .

(٧) ولا ننسى أن كثيراً من الناس بين أمراء وفرسان وعامة ذهبوا الى ميدان الحرب ولا يقصدون شيئا سوى وجود فرصة جديدة للغنى كالحصول على امارة أو تحصيل غنيمة كما أن بعض العامة كان يقصد أن يخرج من أرض رقه ويذهب إلى ميدان يكون فيه محاربا حرا .

# الحرب الصليبية

قامت الجموع المتحمسة يقودها دعاتها ومحمسوها كبطرس الراهب نحو الشرق مثل عاصفة هوجاء نظامها فوضى ولكن هذه لم يتح لها بلوغ بيت المقدس بل تشتتت قبل وصولها الى القسطنطينية وليس لهذه الجموع ذكر فى الحرب الصليبية فأول حملة يذكرها التاريخ باسم الحملة الأولى هى التى نظمها أمراء أوربا الكبار وكان على رأسهم أربعة منهم ( جود فرى ) و(رايمون) الفرنسيان و (بلدوين) الالمانى و(بوهمند) النرمندى ابن الأمير النرمندى الذى استولى على صقلية من المسلمين وأقام بها دولة مسيحية. وكانت الحملة مكونة من مئات الالوف من مختلف شعوب أوربا . وقد بلغت قسطنطينية أخيرا سنة ١٠٩٧ ولكن الامبراطور الكسيوس لم يسمح لها بالمرور فى بلاده والدخول الى العاصمة الا بعد أن استوثق من الامراء بمعاهدة لكى يأمن كيدهم له ولكى يضمن فائدة من الاشتراك معهم وقد نصت المعاهدة على أمور منها أن ترجع اليه أملاك الدولة الرومانية التى جردها منها السلاجقة فى آسيا الصغرى وبعد ذلك سارت الجيوش مخترقة آسيا الصغرى وكانت الدولة الاسلامية عندذلك مفككة مقسمة بين الامراء بعد موت زعمائها الكبار فلم يقو الأمراء المتفرقون على صد هذا السيل الجارف وهزموا فى موقعة ( دوريليوم ) أو اسكيشهر فى نفس السنة ، وكانت مقاوماتهم بعد ذلك ضئيلة فبلغ الجيش الصليبى الشام واخذ كل جانب منه يحل فى اقليم ويستقل به أميره وفرسانه فكانت أول امارة تأسست هى اذاسا أو الرها فى حوض الفرات الاعلى واستقل بها بلدوين سنة ١٠٩٨ ثم فتح سائر اقليم الشام سنة ١٠٩٩ وتكونت امارتا انطاكيه وبيت المقدس وانتخب جودفرى ملكا على بيت

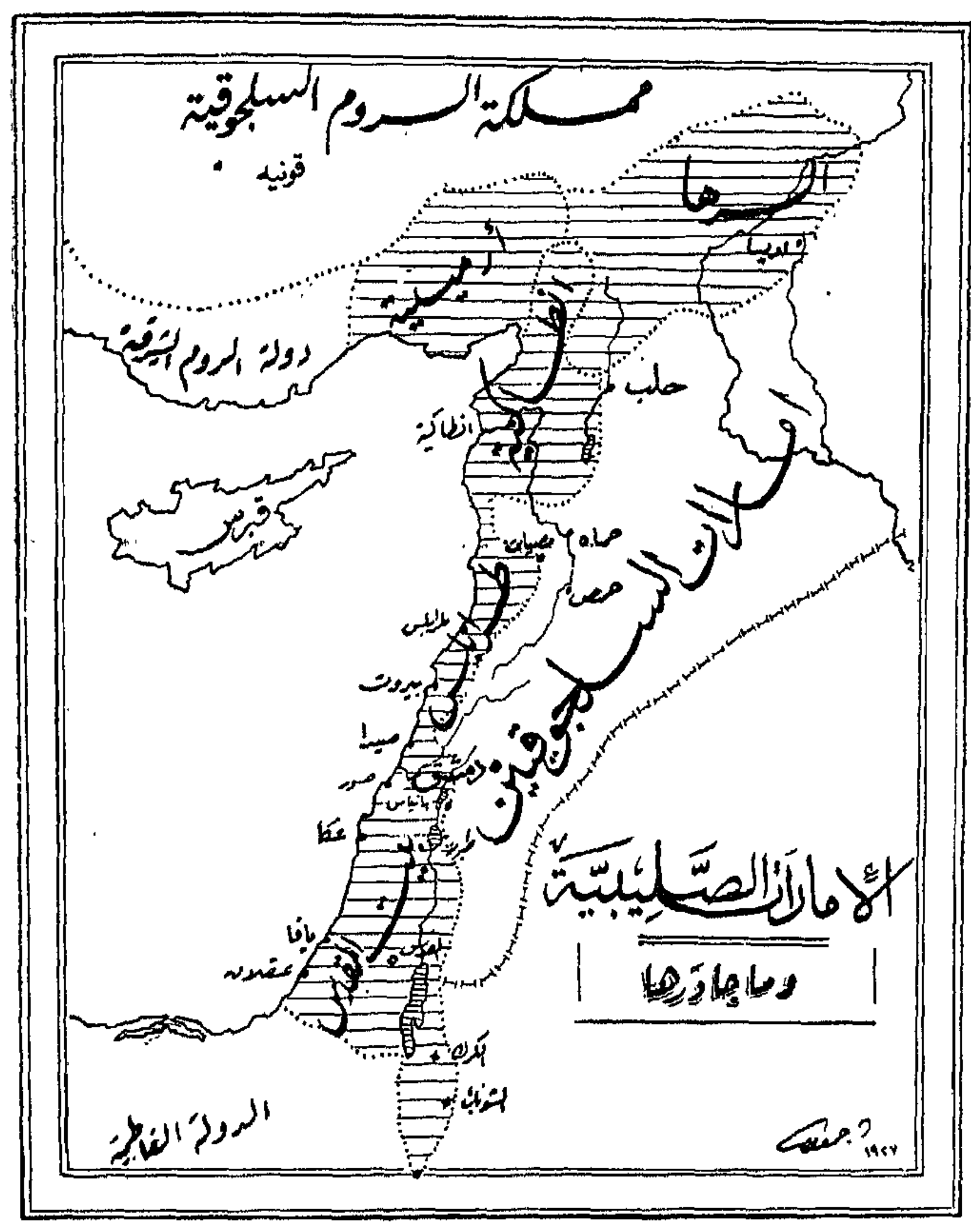


( شكل ١٦ ) منظر خيالى لفتح انطاكيه

المقدس يخضع له الامراء الاخرون واقيم نظام اقطاعى هناك على الاصول المعروفة اذ ذاك .

وقد ارتكب الصليبيون فظائع كبرى فى فتحهم تلك البلاد ولا سيما عند الاستيلاء على بيت المقدس ولم يكن هذا عجيبا من قوم لايزالون فى هذه الجهالة التى عرفنا وقد ذهبوا الى الشرق محفوزين بحماستهم المتأججة وحنقهم العظيم على المسلمين .

وبعد مدة اخرى فتحت مدن الساحل وتكونت إمارة طرابلس الساحلية وصارت بذلك الامارات الصليبية اربعا




(خريطة ١٣) الامارات الصليبية

وقد أوفى الصليبيون بمعاهدتهم مع الرومانيين فارجعوا اليهم ما فتحوه من آسيا الصغرى .

وبعد أن استقر الامر على ذلك صار بالشام موقف محدود فالصليبيون في الغرب على السواحل ومايليها فى الداخل الى بيت المقدس واداسا ثم الى جوارهم امراء المسلمين المفرقون وهم السلاجقة الى الشرق فى العراق وفارس والفاطميون فى مصر ولكن الفاطميين كانوا عند ذلك قد دخلوا فى عهد أضمحلالهم السياسى فكان أكبر مما يعتد به الصليبيون امراءالسلاجقة بل ان الفواطم كانوا أميل للاتفاق مع المسيحيين لكى يقضوا على الخلافة العباسية المنافسة لهم المكروهة منهم .

## الموقف بعد انتهاء الحرب

جرت عادة المؤرخين أن يسموا تلك الحرب بالحرب الصليبية الاولى ويسمون ماجاء بعدها من الحملات بالحروب الصليبية الثانية والثالثة والرابعة وهلم جرا . ولكن الحقيقة أنه منذ تكونت الامارات المسيحية بالشام لم يكد ينقطع تيار الوفود عاما واحدا بل كان يأتى فى كل عام الوف كثيرة بين حجاج ومحاربين ليساعدوا الصليبيين على الحرب مع أعدائهم المرابطين بجوارهم .

غير ان أوربا كانت تتحرك حركات شديدة حماسية عند ما يحدث بالشام حادث كبير فترسل الجنود من شعوبها اعدادا كبيرة للنجدة وهذه التى يعتد بها التاريخ ويعدها فيجب اذن أن نذكر أن الحرب الصليبية بالمعنى الصحيح كانت الأولى وأما سواها فلم يكن الا حملات تأتى لنجدة الصليبيين بعضها صغير لايذكر وبعضها كبير عند حدوث الحوادث الكبرى وهذه هى التى يسميها التاريخ . وانا سائرون على خطة المؤرخين السابقين فى تسمية هذه الحروب.

## الحرب الصليبية الثانية

لم يلبث أمراء المسلمين أن استجمعوا قواهم بعد الصدمة العنيفة التى صدموها وجعلوا يهاجمون المسيحيين من جميع الأنحاء وكان أكبر الأمراء الذين نبغوا إذ ذاك هو عماد الدين زنجى اتابك الموصل أو حاكمها وقد بدأ هذا الأمير يغير على ما يليه من بلاد الصليبيين حتى تمكن أخيرا من فتح ( الرها ) أو اذاسا سنة ١١٤٤ وهى الولاية الصليبية التى تكونت فى أول الحرب الأولى . فكان هذا حادثا عظيما أثار أوربا وجعلها تجهز الحملة الكبرى التى تعرف بالحرب الصليبية الثانية .

## تكوين فرق الرهبان المحاربين بالشام

وجدت الامارات الصليبية بالشام أن عدد من يفد كل عام اليها لا يسد

النقص المستمر فى محاربيها كما ان الجديد الذى يأتى لا يقوم مقام القديم الذى تدرب فى الحروب أمام السلاجقة الشجعان ولهذا انشئت فرق حربية لسد النقص ولكنها بطبيعة روح العصر والظروف لم تكن فرقا من جنود بل من جماعة متدينة من الرهبان . فكان الفرد من هؤلاء رجلا زاهدا متدينا « كأنه الحمل الوديع مع المسيحيين» ولكنه كان يتدرب على الفروسية والحروب حتى يكون « كأنه أسد فى لقاء الاعداء » وكانت الفرقتان الكبريان فرقتى الداوية والاسبتارية . والداوية هى المعروفة عند الأوربيين بفرقة ( الهيكل ) أو ( المعبد ) أو ( التمبلار ) نسبة الى معبد سيدنا سليمان التى قامت الفرقة بجواره وأما الاسبتارية فهى المعروفة عند الاوربيين باسم ( الهسبتاليين ) أو فرقة ( المستشفى ) نسبة الى قيامها فى مكان مستشفى قديم كان بناه جماعة من التجار الايطاليين ليداووا فيه المرضى منهم ومن الحجاج وتعرف هذه الفرقة أيضا باسم فرقة ( القديس يوحنا ) الذى كان المستشفى مسمى باسمه تبركا .

وكان لهاتين الفرقتين أثر عظيم فى الدفاع عن امارات المسيحيين واليهما يرجع الفضل فى استمرارها نحو قرن ونصف بعد ذلك فى الشام . وقد عرف أفرادهما عند المسلمين بكل الصفات الحميدة وليس أدل على ذلك من أن صلاح الدين الأيوبى الكبير كان يطلب دائما أن يمضى رؤساء هؤلاء الفرسان المعاهدات التى يبرمها مع المسيحيين علما منه بأنهم إذا تعهدوا عهدا أوفوا به

حالة أوربا فى ذلك الوقت

قامت فى أثناء هذا حركة فى أوربا ترمى إلى إيجاد حكومات مركزية تمنع الفوضى التى كانت سائدة على القارة من النظام الاقطاعى — وقد كانت هذه الحركة ظاهرة فى فرنسا وفى ألمانيا ولعل ابعاد عدد كبير من أمراء أوربا الاقطاعيين فى الشام وموت كثير منهم فى الحرب

الصليبية الأولى — لعل ذلك ساعد على وجود تلك الحركة . وقد نجح امبراطور ألمانيا إذ ذاك وهو كنراد الثالث فى حركته نجاحا يذكر كما أن ملك فرنسا إذ ذاك وهو لويس السابع كان أول حلقة من سلسلة الملوك الذى قاموا بتكوين حكومة مركزية قوية فى فرنسا وقد شعر هذان الملكان بأنها نجحا في داخل بلادهما نجاحا يستطيعان معه أن يرأسا الحملة الصليبية لاسترجاع إذاسا . وهكذا تبدأ الحملات تكون برئاسة الملوك والاباطرة وليس الأمراء الاقطاعيين .

وقد وصلت هذه الحملة إلى الشام سنة ١١٤٧ بعد مصاعب جمة ولكنها لم توفق ففشلت فى محاولتها الأولى وهى أخذ دمشق وكان هذا الخذلان بعد ما لقيته الجيوش من قبل من المصاعب فى طريقها إلى الشام باعثا على عودة الملكين إلى أوربا ولم يكملا شيئا مما قصداه .

نمو دولة نور الدين محمود

---

لم يلبث عماد الدين زنكى بعد أخذ الرها طويلا حتى قتل على يد طائفة الحشاشين بالشام [(١)]

وولى الامارة بعده ابنه ( نورالدين محمود ) وقد كان مثلا عاليا للاخلاق الفاضلة والوداعة والعدالة وجعل قصد حياته أن يوحد الدولة الاسلامية وأن يصدم بهاالصليبيين صدمات متوالية تخرجهم من الشام . وكانت خطواته الأولى بطيئة نظرا لمقاومة المسيحيين وخصوصاً على يد فرقتى الداوية والاسبتارية

ولكنه نجح نجاحا عظيما بالاستيلاء على دمشق وكانت لذلك الحين فى

---

(١) هى طائفة من الشيعة الاسماعيلية اتخذت لنفسها طريق القتل السياسى للوصول الى اغراضها وكان رؤساؤها يخدعون اتباعهم باعطائهم مادة مخدرة ( الحشيش ) حتى يكونوا مطيعين لهم فى انفاذ أوامرهم الدموية ومن اسم هذه الطائفة اشتق الاسم الأول للقاتل غدرا ( assassin )

يد أمير من أمراء الاتراك — وبعد أن جعلها عاصمة دولته الناشئة بدأ ينازع الصليبيين وكان هناك قطر ينظر اليه المتنازعان كل منهما يريد أن يقوى نفسه بضمه إلى دولته وذلك هو القطر المصرى الذى كان إذ ذاك تحت حكم الفواطم المتأخرين . فبدأ نضال سياسى حزبى بشأن ذلك القطر وكان استيلاء نور الدين على مصر من أكبر العوامل فى فوز المسلمين النهائى فى النضال

## النزاع على مصر

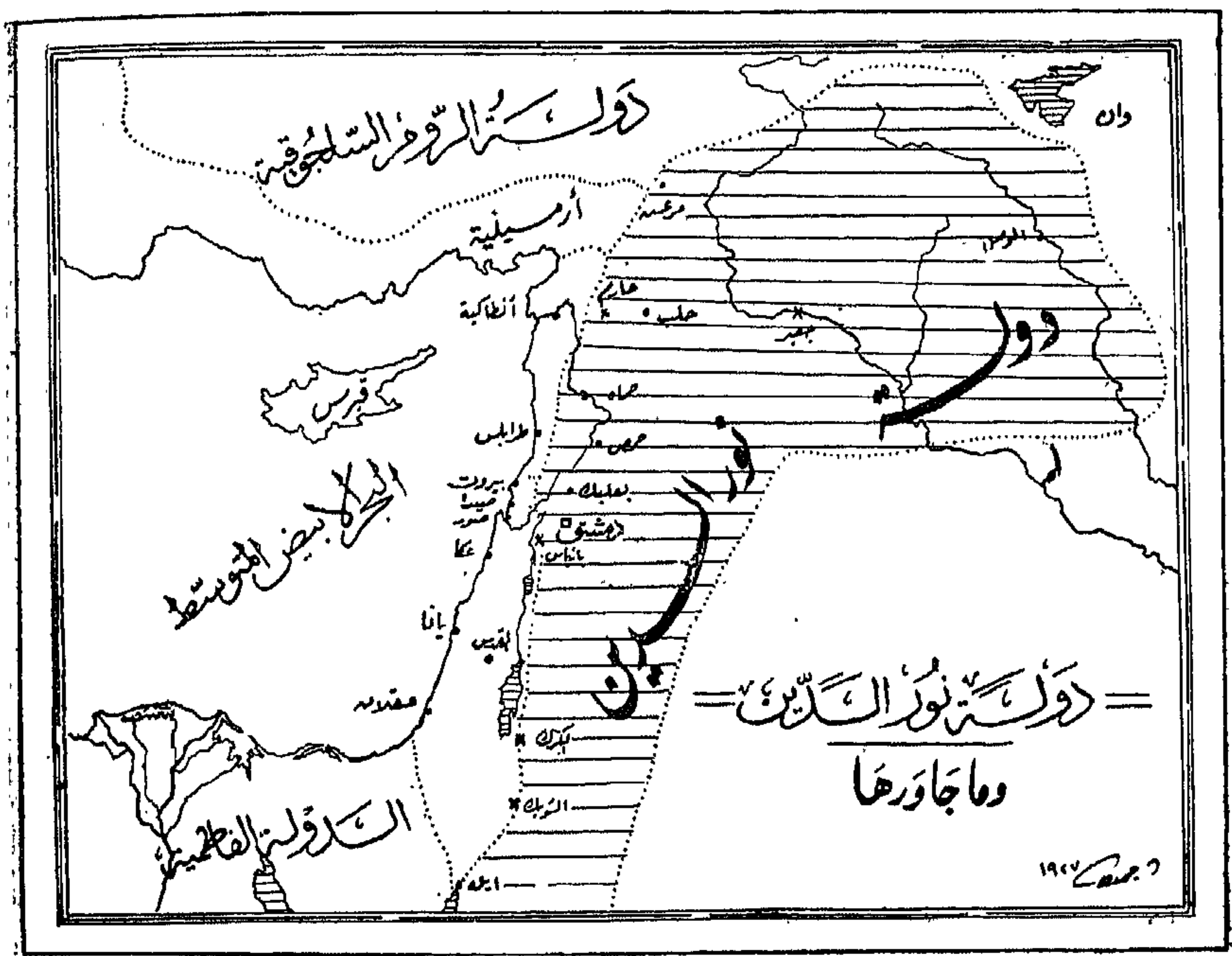
### حالة مصر فى القرن الثانى عشر

ترك بدر الجمالى مصر بعد موته وموت الخليفة المستنصر فى حالة طيبة من الأمن والرخاء بعد أن وقعت فى الفوضى فى وسط عصر المستنصر . وقد ولى الوزارة شاهنشاه بن الجمالى ولقب بالافضل واختار للخلافة أصغر أبناء المستنصر ( المستعلى ) ومن ذلك الوقت صارت سنة فى مصر أن يولى اصاغر الأسرة الفاطمية حتى يكونوا أسلس قيادا فى يد وزرائهم وابتدأ عند ذلك عصر السلطان الكلى للوزراء الذين لم يلبثوا أن تنازعوا وكان لتشاحن المستوزرين أثر كبير فى مصير مصر أخيرا . وقد حكم شاهنشاه الأفضل إلى سنة ١١٢١ وكان حكمه فى أكثر هذه المدة مطلقا لاقيد على إرادته لاسيما بعد موت المستعلى وتولية الآمر ( ١٠١١ ) الذى لم يكن عند توليته أكبر من طفل سنه خمس سنوات — وعلى كل حال فقد استمر الأمن والنجاح المادى فى مصر طول مدة الافضل ولم يهدد ذلك الأمن الا اشتداد الخطر من جهة الشرق على مصر وكان الخطر متوقعا من احدى جهتين الأولى من أمراء السلاجقة والثانية من المسيحيين الذين أقاموا اماراتهم بالشام منذ سنة ١٠٩٨ كما مر وأخذوا بقايا ممتلكات الفواطم هناك

وقد زاد الخطر على مصر بعد ذلك حتى أن المسيحيين غزوا مصر ذاتها وبلغوا مدينة الفرماسنة ١١١٧

وقد اتفق موت الافضل بعد قليل (سنة ١١٢١) فخلت مصر من شخصه القوى وزادت الاخطار الخارجية اشتدادا وزادها شدة ما حدث من الاضطراب الداخلى فى الادارة عقب خلو البلاد من شخص يذعن الجميع له . وأكبر من نستطيع تمييزهم فى وسط ذلك الاضطراب بعض الخلفاء والوزراء الذين لم يمتازوا بسوى سفكهم للدماء وعسفهم مثل الخليفة الحافظ ( ١١٣١ — ١١٤٩ ) ومثل الوزير ابن السلار التركى . وليس فى كل المدة الباقية رجل يستحق أن يذكر بشيء من الاعجاب الا ( طلائع بن رزيك ) الذى كان حاكما على الوجه القبلى فدعى عند اشتداد الفوضى لحكم مصر ولقب باسم ( الملك الصالح ) سنه ١١٥٤ وقد كانت تلك الفوضى سببا فى طمع الصليبيين فى مصر ولولا اشتغالهم بحرب نور الدين محمود السلجوقى لغزوا مصر فى ذلك الحين .

وكان حكم الملك الصالح فى مصر شبيها بحكم ( بدر الجمالى ) فاجتهد فى اصلاح الأمور فى الداخل والخارج وكان أكبر ما ظهر فى سياسته محاولة الاتفاق مع نور الدين ضد خطر الصليبيين غير أنه لم يمهل ليتم سياسته الحكيمة بل قتل ولم يلبث ابنه أن قتل بعده على يد الطامع فى الوزارة ( شاور ) سنة ١١٦٣ ومن ذلك الوقت صارت سياسة مصر لعبة فى يد اثنين من طلاب الحكم أولهما شاور هذا والثانى قائد عربى شجاع وهو ضرغام. وكان تنافس هذين الاثنين ختام المأساة إذ انتهت دولة الفاطميين على أيديهما .




( خريطة ١٤ ) دولة نور الدين وما جاورها

## تنازع نور الدين والصليبيين على مصر

أدت منافسة شاور وضرغام إلى حوادث كبرى فى القاهرة فهرب شاور خوفا من منافسه الى الشام ولجأ الى نور الدين محمود طالبا منه المعونة على عدوه وعرض نظير ذلك أن يؤدى لنور الدين ثلث خراج مصر وكل نفقات الجيش الذى يرسل لمساعدته — وقد تردد نور الدين طويلا قبل أن يجيب ذلك الطلب وكان مما ساعد على إجابته أنه رأى ملك بيت المقدس ( املريك ) يتحرك نحو مصر طامعا أن يملكها — وبذلك أصبح جيشان يقصدان مصر سنة ١١٦٤ جيش الصليبيين وجيش نور الدين . وكان الجيش الأخير هو السابق إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب .

هزم جيش ضرغام عند أول لقاء ثم توالت الهزائم عليه وقتل قائده الباسل ضرغام فى أحد طرق القاهرة ونال شاور أربه من الرجوع إلى السلطة

بمصر ولكنه ما كاد يشعر بأنه عاد إلى السلطة حتى بدأ يريد التخلص من جيش نور الدين . وكان جيش الصليبيين عند ذلك لا يزال خارج الحدود المصرية فأرسل شاور الى ملك بيت المقدس يطلب وده ويسأله المساعدة على طرد جيش الاتراك . فأسرع يلبي ذلك النداء لأن وجود جيوش نور الدين بمصر ضربة قاضية على وجود الصليبيين بالشام وحدث اللقاء بين الجيشين عند بلبيس وكان النصر متنازعا بينهما حتى اتفقا أخيرا على الانسحاب من مصر جميعا .

ولم يكن هذا آخر النزاع فان شيركوه بعد خروجه جعل يملأ قلب نور الدين بالرغبة فى فتح مصر ذاكرا ما يمكن أن تستفيده دولته منها فى نضالها مع المسيحيين حتى رضى نور الدين أخيرا أن يرسل حملة ثانية لفتحها سنة ١١٦٧ بقيادة شيركوه ومعه ابن أخيه أيضا . وسارت الحملة حتى بلغت النيل عند اطفيح ثم عبرت الى الضفة الغربية وكان شاور عند ما رأى تحرك ذلك الجيش الى مصر أرسل الى ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ثانيا فأسرع هذا حتى صار مع جيشه في القاهرة وهناك عقد معاهدة مع الخليفة الفاطمى ( العاضد ) وبعد ذلك عبر النهر وسار جنوبا للقاء شيركوه الذى كان ينسحب بجيوشه الى الصعيد وأخيرا وقف شيركوه عند البابين بقرب المنيا ولقى الجيش المكون من الصليبيين والمصريين وهزمهم هزيمة عظيمة حطمت جيش المصريين وجعلت الصليبيين يتقهقرون الى الشمال . فتبع شيركوه المنهزمين الى الشمال ثم سار الى الاسكندرية واستولى عليها وترك بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد هو الى الصعيد ليجبى أمواله .

ولما استجمع المسيحيون قوتهم ذهبوا الى الاسكندرية من البر والبحر ليسترجعوها وهناك دافع عنها صلاح الدين دفاعا مجيدا وهذا أول موقف حربى ظهرت فيه مواهب ذلك الرجل العظيم . وقد أدى ثبات

صلاح الدين فى الدفاع الى طلب الملك ( املريك ) للصلح ولما رأى شيركوه ألا أمل فى الاستيلاء على مصر مع كل تلك الصعاب رضى بالاتفاق على أن يخرج الجيشان كلاهما من مصر بشرط أن يحتفظ هو بكل ما جمعه من الأموال من مصر وأن يتبادل الجانبان اسراهما ·

غير ان الصليبيين لم ينفذوا المعاهدة بل ابقوا حامية بمصر والزموا شاور ان يؤدى لهم جزية سنوية وما لبث ملكهم أن فكر فى الاستيلاء على مصر وأعد حمله لذلك الغرض ووصل الى مصر سنة ١١٦٨ · فأرسل العاضد الخليفة الفاطمى هذه المرة الى نور الدين يستنجد به فاسرع هذا بانفاذ حملته الثالثة وكان شيركوه هو القائد ومعه ابن أخيه للمرة الثالثة ·

وقد دافع شاور عن مصر دفاعا عظيما أمام المغيرين المسيحيين وفى هذا الدفاع أحرق الفسطاط العاصمة القديمة احراقا كان قاضيا عليها · ثم ما لبث جيش نور الدين ان جاء فراى ( املريك ) انه صار بين نارين وانسحب الى الشام سنة ١١٦٩ وصار شيركوه بجيشه القابض على أمور مصر . وقد أراد شاور أن يعيد الكرة مع شيركوه بخداعه ويتخلص منه ولو غدرا ولكنه عوجل فقبض عليه وقتل بأمر الخليفة العاضد · وعين بدله شيركوه وزيراً على مصر يعززه جيش احتلال من شجعان الاتراك · غير أن المنية عاجلته فمات بعد شهرين وعين بدله فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين ·

انتهاء الدولة الفاطمية

كانت الحكومة فى مصر بعد ذلك فى موقف عجيب فقد كانت فى الحقيقة خاضعة لارادة جيش نور الدين ونائب نور الدين قائده · غير انها كانت اسميا خاضعة لارادة الخليفة الفاطمى · وقد اتفق أن مرض الخليفة بعد ذلك واحتجب فى قصره فصار كل شىء فى يد الوزير صلاح الدين يصدر به عن أمر سيده نور الدين ثم مات العاضد سنة ١١٧١ وعند ذلك انفذ

صلاح الدين ما كان نور الدين يريده من قبل ويطلبه مرارا وهو إزالة الخلافة الفاطمية ومنذ ذلك الوقت صار يدعى على منابر مصر باسم الخليفة العباسي واسم نور الدين ·وقد تم هذا الانقلاب بغير حادث يذكر الا ثورة صغيرة من اتباع قصر الفاطميين وجنودهم نجح صلاح الدين فى اطفائها قبل تفاقم أمرها ولم تحدث هذه الثورة الا سنة ١١٧٤

## تأسيس الدولة الأيوبية

أقام صلاح الدين فى مصر سنتين وهو حاكم بالنيابة عن سيده نور الدين وقد تم لنور الدين ما أراد من فتح مصر وصار له بذلك الرجحان على اعدائه الصليبيين بالشام فأخذ يهوى بقوته المتزايدة على قلاعهم وكان فى حروبه يعتمد على جيوش صلاح الدين وموارد مصر الغنية

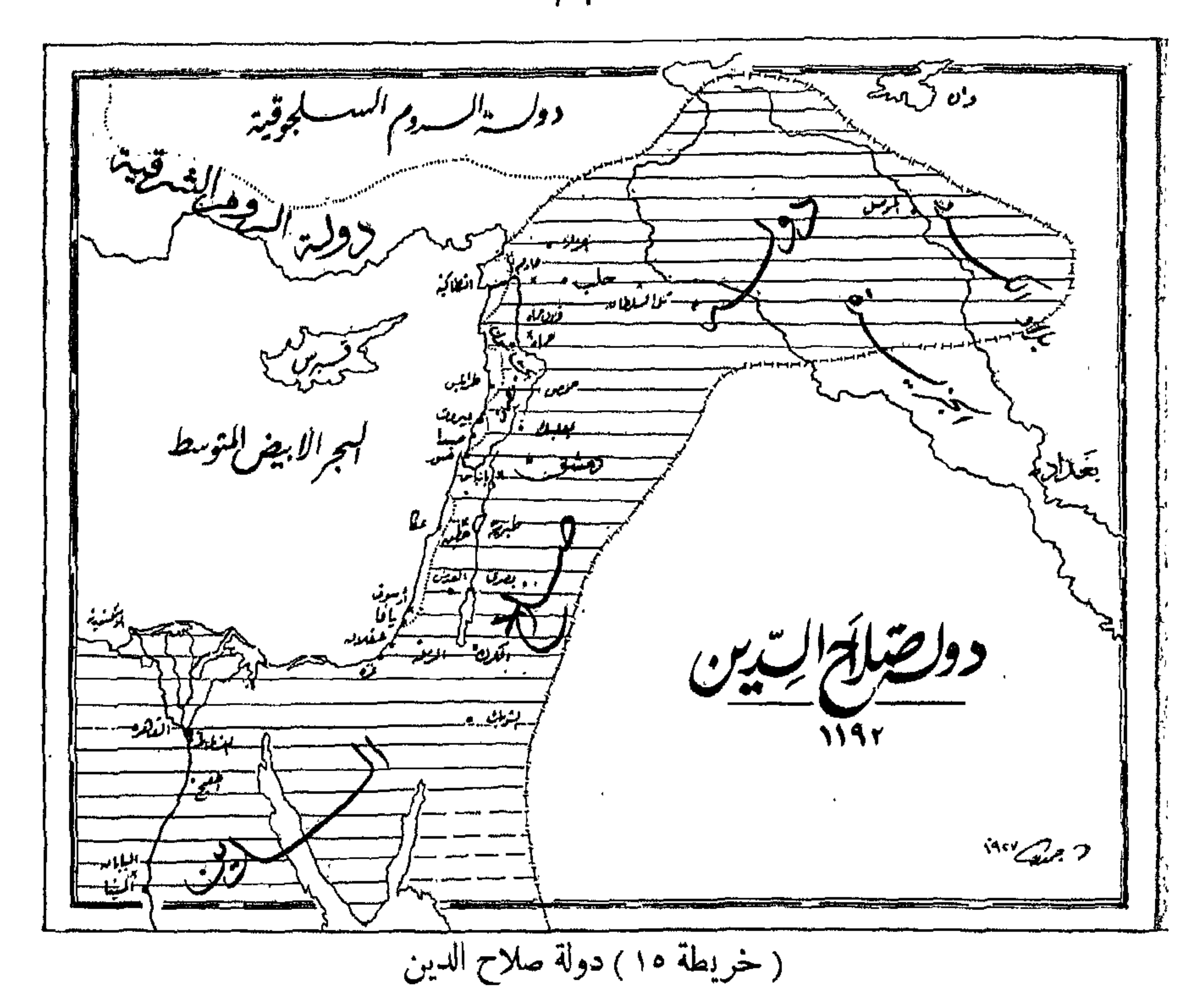
وكان صلاح الدين فى تلك المدة يصلح من شأن مصر وهى مستعدة لأن تكافىء كل مجهود فى ذلك السبيل بزيادة فى الثروة ولا سيما وقد كانت الدول السابقة منذ أيام الطولونيين تعمل في وجوه الاصلاح المختلفة فكان تيار الاصلاح مستمراً ولو انه كان يتعرض بين حين وآخر لعصر من الاضطراب يوقفه حينا قصيراً حتى يتاح له مصلح جديد يدفعه فى سبيله مرة أخرى وكان صلاح الدين مصلحا جديداً بعد عصر الاضطراب الذى ساد مصر فى أكثر سني نصف القرن الأخير من حكم الفاطميين ؛ على أنه وجد فى تلك البلاد آثارا تليدة من المدنية فلم ينس أن يبنى عليها . وقد مات نور الدين بعد هتين السنتين وولى بعده ابنان صغيران فانتهز الفرصة جماعة من القواد والحكام وحاولوا حكم الدولة الكبيرة التى أسسها نور الدين باسم الابنين الصغيرين غير ان صلاح الدين بقى فى مصر شبه مستقل حتى اتيحت له الفرصة بعد قليل بأن يستقل حقيقة وذلك ان هؤلاء الحكام حاولوا مهاجمته وتنافسوا فيما بينهم تنافسا جعل الدولة التى بنيت بدماء

أبطال نور الدين فى خطر من السقوط وطمع فيها الصليبيون وجعلوا يستولون على ما فقدوه من بلاد الشام . فرأى صلاح الدين أن يأخذ الأمر فى يده وأن يجمع قوى الدولة مرة أخرى حتى يتم عمل سيده نور الدين وهكذا بدأ منذ سنة ١١٧٤ يجاهد ليبلغ تلك الغاية

وقد كان فى تلك الأثناء يحارب الصليبيين حروبا متقطعة أحرز فيها انتصارات موضعية كثيرة . وقد نجح أخيراً فى أكثر من عشر سنوات فى جمع الدولة فى يده بعد حروب طويلة مع القواد المنافسين الذين كانوا يستخدمون اسم أبناء نور الدين ليثيروا العالم الاسلامى عليه فلما تم له ذلك بدأ يصدم دولة الصليبيين الصدمة الكبرى التى كان نور الدين يتطلع اليها ، فحاربهم فى موقعة حطين الفاصلة سنة ١١٨٧ وكان سببها خرق الصليبيين لمعاهدتهم معه واعتداءهم على قافلة للمسلمين فى مدة الهدنة المنصوص عليها فى تلك المعاهدة ، وكان ذلك الانتصار أول حلقة من سلسلة انتصارات أخرى فى فلسطين الى أن استولى على المرمى الذى كان المسلمون والمسيحيون يتنافسون على احرازه وهو بيت المقدس وقد أظهر صلاح الدين فى كل حروبه ولا سيما عند فتح بيت المقدس من العدل والرافة والكرم ما يمكن أن يعد عجيبا نظرا لما كان الصليبيون يرتكبونه فى حروبهم من الفظائع وأعمال القسوة



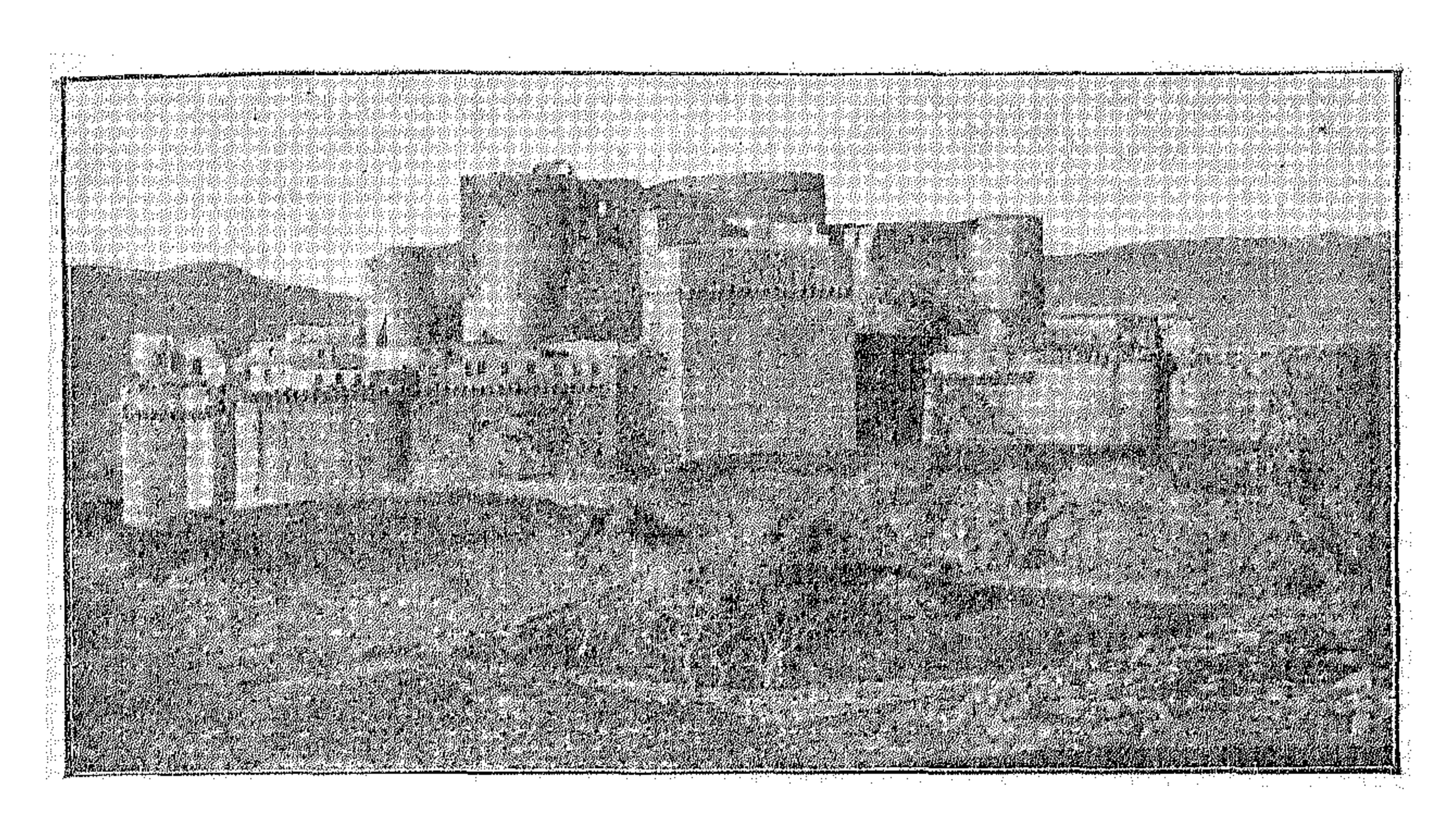
(شكل ١٧) صورة لصلاح الدين «خيالية»




( خريطة ١٥ ) دولة صلاح الدين

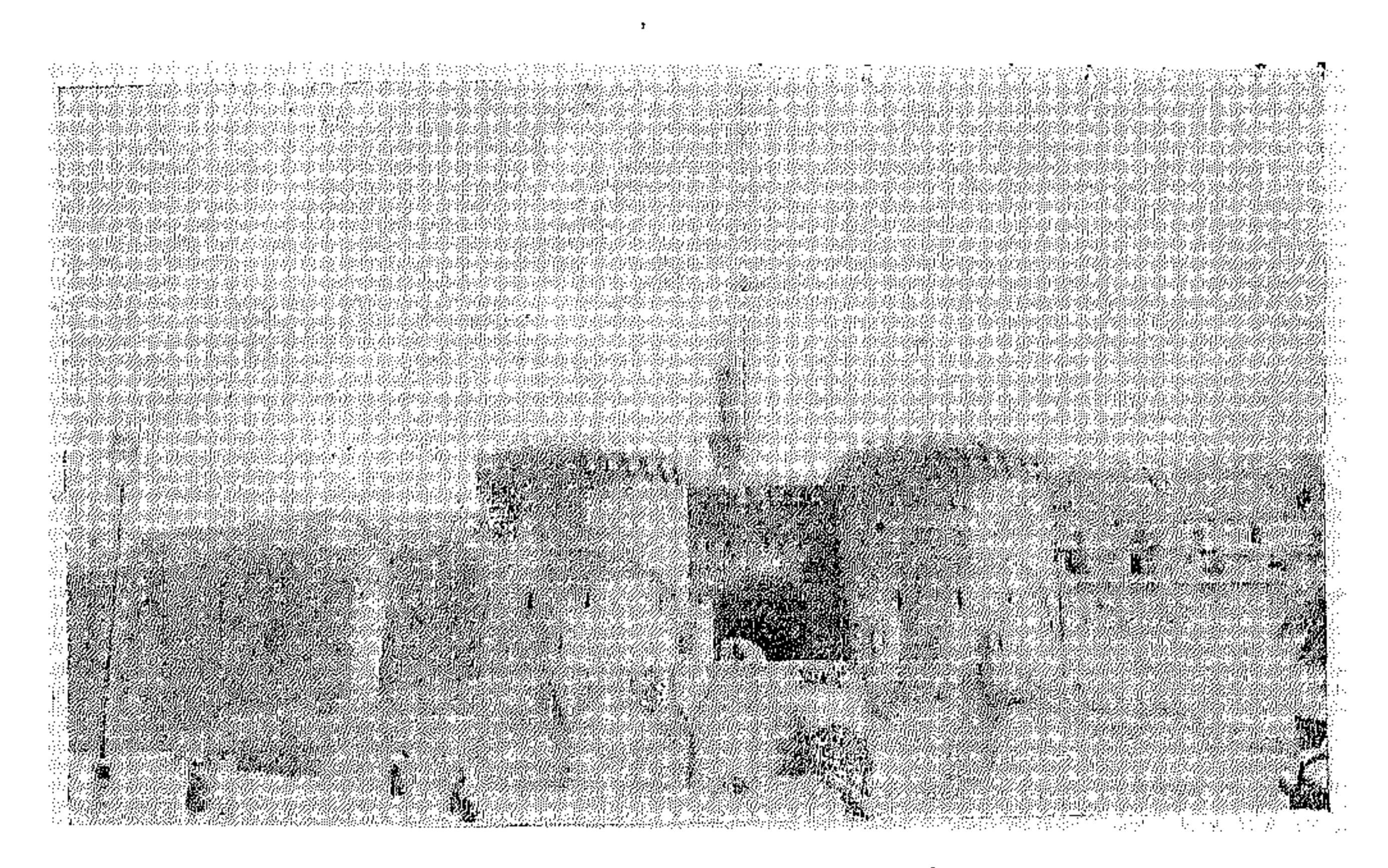
## اعمال صلاح الدين بمصر

لم يقتصر اهتمام صلاح الدين بالأمور الحربية بل كان فى الوقت عينه يقوم على تدبير أمور دولته ووضع نظاماتها على أسس ملائمة لأحوالها ، وقد أدرك أن المركز الصالح لتكوين دولة متمدينة هو مصر ولهذا جعلها موضع اصلاحه المدنى وجعل الشام بطبيعة الحال ميدان حربه فأكثر من الحصون والقلاع بالشام وجعل أشجع أمرائه وأعظمهم يحكمون اقطاعات بها حسب نظام شبيه بالنظام الاقطاعى ، فى حين أنه جعل مصر حكومة واحدة مركزية وجنبها بقدر المستطاع شرور الحروب ، وكان من أول ما وضعه بها أساس القلعة التى كاد يتمها قبل موته وهى القلعة المعروفة باسمه



( شكل ١٨ ) قلعة من قلاع الشام

على حافة المقطم وبنى سوراً من تلك القلعة الى سور القاهرة وبنى سورا آخر فى الغرب ليحمى البلاد من اغارات البدو ، وحفر فى القلعة البئر المعروفة ببئر الحلزون مبالغة فى الاحتياط

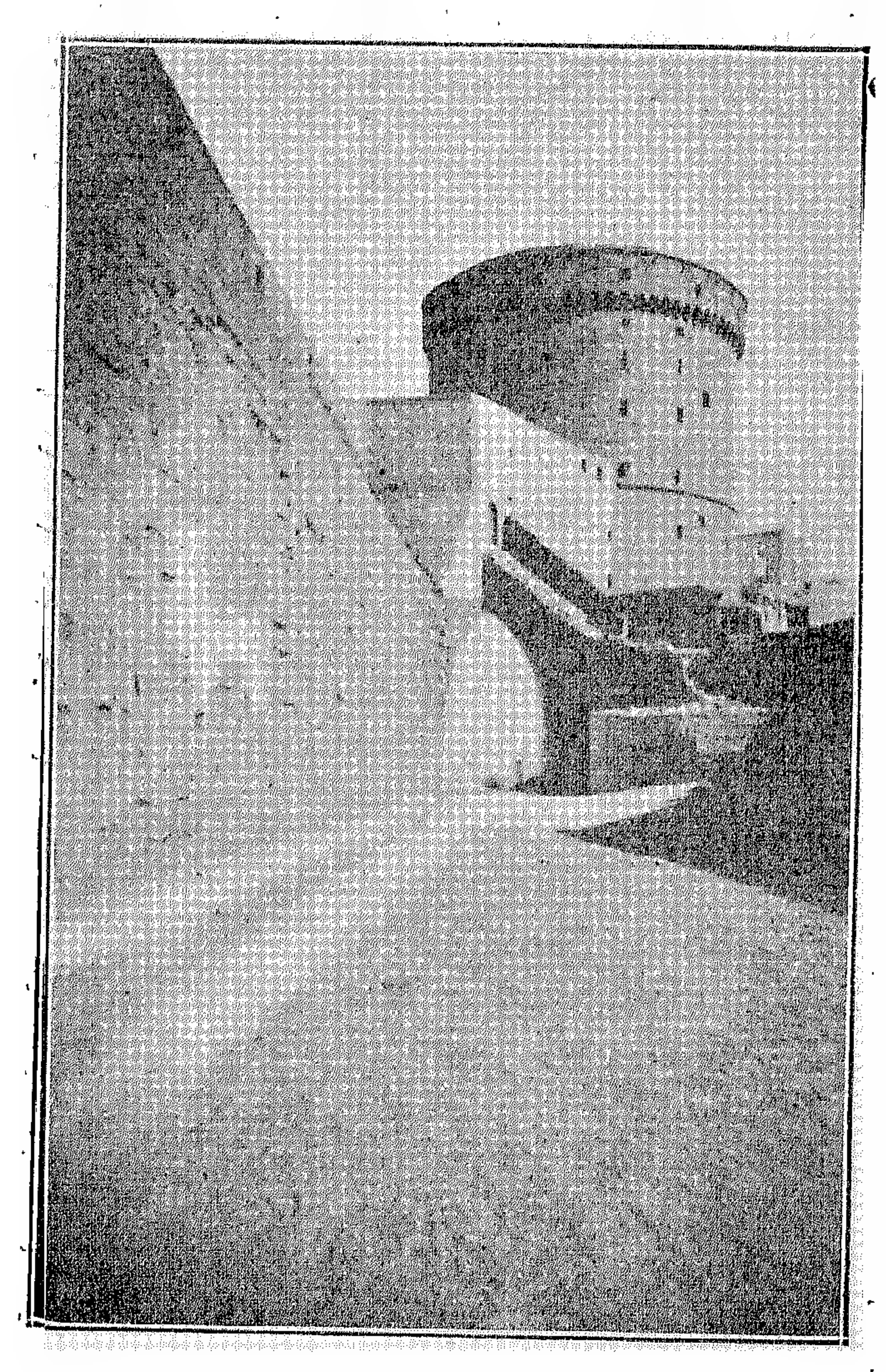


( شكل ١٩ ) قلعة صلاح الدين

وقد رأى ان الدولة الفاطمية كان لها شىء من الأثر فى مصر كجامع الحاكم والجامع الازهر فأحب أن يقيم آثارا الى جانبها كى يقلل من ظهورها فأخذ فى بناء المدارس التى كان الفقه يعلم فيها ولاسيما على المذهب الشافعى

مثل الناصرية ومدرسة سوق السلاح ، هذا عدا المدارس الصغرى التى كانت لتعلم الشعب التعليم الدينى البسيط والقراءة والكتابة

وشجع صلاح الدين مع مشاغله الجمة كل اعمال الانتاج بين زراعية وصناعية وتجارية وقد ظهرت ثمار مجهوداته بعد موته فى مدة الدولة الأيوبية التى يمكن أن تعتبر أعلى مابلغته الدول المصرية فى العهد الاسلامى إذ تجمعت بها



( شكل ٢٠ ) برج فى قلعة صلاح الدين

آثار المدنية الاسلامية والمصرية وصارت القاهرة فى ايامها أكبر مركز للحضارة فى العالم بعد أن اضمحل أمر بغداد وقرطبة فى القرن الثانى عشر وما بعده .

الحرب الصليبية الثالثة

كان لسقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين صدى قوى فى جميع انحاء أوربا فان المسيحيين لم يتحركوا فى بدء الامر الا لانقاذ بيت المقدس من المسلمين وهاهم المسلمون يعيدون الكرة ويستولون عليه بعد انتصارات متوالية . فهبت عاصفة من الحماسة فى أوربا وعادت صيحة شبيهة بصيحة الحرب الصليبية الأولى وان لم تكن فى شدتها وعلوها .

حالة أوربا فى ذلك الوقت

كانت دول أوربا تتطور فى هذه الاثناء سائرة فى السبيل الذى سبق لها السير فيه وهو تكوين حكومات مركزية قوية وازالة حكم الأمراء الاقطاعيين تدريجا وقد كان فى أوربا عند ذلك دولتان كبريان وهما الدولة الرومانية المقدسة وفرنسا وزاد عليها عند ذلك ظهور انجلترة فى ميدان السياسة الأوربية .

## ألمانيا (الدولة الرومانية المقدسة)

كان يحكم هذه الدولة عند ذلك الامبراطور الكبير فردريك الأول أو (باربا روسا) وهو لقب غلب عليه لحمرة لون شعر لحيته . وقد كان من الافذاذ بين امبراطورى تلك الدولة وكان أكبر مشاغله محاربة سلطان الأمراء الاقطاعيين وتكوين حكومة مركزية قوية وكانت دولته تشمل ألمانيا وإيطاليا كما مر

وقد حدث فى أيامه نضال طويل بينه وبين البابا على أيهما يعد سيد

الدولة وعظيم أوربا وقد خرج النضال إلى حرب طاحنة كانت نتيجتها انتصار البابوية للمرة الثانية ولكنه مع ذلك نجح فى بسط سلطانه على الأمراء الاقطاعيين حتى أنه شعر فى آخر الأمر سنة ١١٨٩ بأنه يقدر أن يترك الدولة لاجابة داعى الدين واستنقاذ بيت المقدس عند ما بلغه نبأ سقوطه فى يد صلاح الدين على أنه لم يقدر له بلوغ مقصده لأنه غرق فى طريقه سنة ١١٩٠ وهو فى آسيا الصغرى وهو يعبر نهرا وتشتت جيشه فلم يصل إلى الشام الاعدد قليل منه وكان صلاح الدين يخشى وصوله فلما بلغه موته وتحطيم جيشه زال عنه العبء الثقيل الذى كان يشعر به من توقع الخطر من ذلك الجيش ومن قائده الشجاع

## فرنسا

سارت فرنسا منذ أيام لويس السابع فى سبيل اخضاع الأمراء الاقطاعيين تدريجا طول القرن الثانى عشر وقد كان الملك فليب الثانى أو فليب (أوغسطس) أى الكبير من أعظم الملوك الذين كانت لهم يد فى القضاء على نظام الاقطاع الفاسد العتيق ولم يقصر عمله على تكوين حكومة مركزية فى فرنسا فقط بل أنه نجح فى أن يقضى على منافس خطير كان له نصف أرض فرنسا وهو ملك انجلترة إذ ذاك (هنرى الثانى) الذى آلت اليه وراثة أقاليم واسعة من فرنسا عن طريق أبويه وزوجته . ففى آخر أيام هنرى الثانى استطاع فليب أن يقضى على قوته حتى إذا ما حكم ابنه ريشارد سنة ١١٨٩ استطاع فليب أن يضم كل ما يملكه ملك انجلترة تقريبا إلى عرش فرنسا . وصار أمره مستقرا فى فرنسا حتى استطاع أن يلبى نداء المسيحيين ويذهب إلى استنقاذ بيت المقدس على رأس جيش فرنسى كبير سنة ١١٩١



( شكل ٢١ ) فليب أغسطس « الثانى »

## انجلترة

لم يكن لانجلترة من قبل هذا العهد ذكر فى سياسة أوربا لانعزالها فى نموها عن القارة حتى حكم ريشارد الشجاع بعد أبيه العظيم هنرى الثانى. وقد كان ريشارد بطبعه فارسا فلما ان أقفل ميدان فرنسا باستيلاء فليب على جميع الأراضى التى كانت لملك انجلترة وجد نداء يفتح أمامه ميدانا جديدا للحرب فأسرع يقود فرسانه وجنودا من الاهلين أنفسهم وذهب الى الشرق تلبية لنداء المسيحية لانقاذ بيت المقدس سنة ١١٩١



( شكل٣٢) ريشارد « قلب الاسد »

نتيجة الحرب الصليبية الثالثة

وقف تيار انتصارات صلاح الدين عند مدينة صور حيث اجتمعت فلول المحاربين المسيحيين ينتظرون النجدة من أوربا وقد سار جيش منهم نحو عكا التى كانت فى يد المسلمين يريدون فتحها فسار صلاح الدين ليمنعهم من ذلك وهناك حدث النضال الطويل الذى انتهى بفتحها بعد مجيء المدد من فرنسا وانجلترة تحت أمرة ملكيهما (فليب)و ( ريشارد ) الذى ميز نفسه بالشجاعة فى كل المواقف حتى سمى ( قلب الاسد) تكريما . وقد بدأ الحصار سنة ١١٨٩ واستمر الى أن اتى مدد أوربا سنة ١١٩١ وعند ذلك عجز صلاح الدين عن رفع الحصار وسلمت المدينة فدخلها

الصليبيون ولم يشذ سلوكهم عن عادته فانهم ارتكبوا كثيرا من الأعمال القاسية عند دخولها ·

وقد استمرت الحرب بعدسقوط عكا الى سنة **١١٩٢** وكانت مفاوضات الصلح فى أثناء هذا سائرة بين الجانبين لأن الحرب المستمرة كانت انهكت قوتيهما على السواء . ولكن لم يتم الصلح الا بعد تردد طويل فى أواخر سنة **١١٩٢** وهو صلح الرملة وكانت شروطه الكبرى أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا الى يافا وان يسمح لهم بزيارة بيت المقدس · واحتفظ صلاح الدين فيما عدا ذلك بكل نتائج انتصاراته

فتوح صلاح الدين الخارجة

كان صلاح الدين فى مدة حياة نور الدين قد أنفذ جيشا لفتح برقة وآخر لفتح السودان بقيادة أخيه طوران شاه ثم أرسل ذلك الاخ نفسه ففتح اليمن وبذلك صارت دولته تمتد من الفرات شمالا الى حدود السودان جنوبا والى اليمن شرقا وبرقة غربا وكان فى ذلك الوقت أكبر ملوك المسلمين غير مدافع · غير أنه لم يبق طويلا بعد صلح الرملة وكأنه قد حصل على غاية حياته بعد انتصاره العظيم على الصليبين فأنه مات سنة **١١٩٣**

شخصية صلاح الدين .

لا يتسع المجال لوصف ما كان عليه صلاح الدين من الصفات العالية فان كان حقا رجلا عظيما جمع بين سمو الغاية والشجاعة الصحيحة والوداعة والاعتدال · ويدل على ذلك سلوكه مع أصدقائه واعدائه على السواء وقد استطاع أن يحكم دولته الواسعة مع اضطراب تلك العصور بسهولة لا سبب لها الا خلقه العظيم

وقد كان زاهدا فى الدنيا فانه مات ولم يترك شيئا من المال فى خزائنه

الخاصة . وكان مثالا للبساطة فى حياته داخل حدود أسرته . وكان صديقاً مخلصا وملكا متواضعا وكل من تقرب منه يذكر صفة خاصة فيه وهى أنه كان يجذب عطف من يراه واحترامه .

## مصر بعد صلاح الدين والحملات الصليبية المتأخرة

تقسمت دولة صلاح الدين بعد موته بين أولاده وبعض أهله ووقعت مصر لابنه الملك العزيز . وما لبث الاخوة أن اختلفوا وكادوا يسفكون الدماء فيما بينهم لولا تداخل عمهم الملك العادل سيف الدين الذى كان يضارع أخاه العظيم فى خلقه وشجاعته وقد كان لتداخله أثر حسن فى منع الحروب الداخلية وأقام على أبناء أخيه شبه ولاية ولما مات العزيز بعد حكم قصير تولى بعده ابنه الصغير ( المنصور ) ولكن الملك العادل رأى أن فى توليته مضيعة للدولة فعزله وتولى هو الحكم بنفسه . وقد كان جديرا بالملك العظيم الذى وليه .

ولم يكن حكمه خاليا من المشاغل العظيمة وكان أكبرها لايزال محاولة الصليبين اعادة الكرة على بيت المقدس سنة ١١٩٧ وكانت الحملة هذه المرة من الامبراطور هنرى السادس الذى حكم بعد وفاة الملك الكبير (فردريك بارباروسا ) غير أن هذه الحملة لم توفق .

ولم تكن هذه هى الحملة الوحيدة فى مدة حياة الملك العادل فان اوربا تحركت حركة كبرى وهى المعروفة بالحملة الصليبية الرابعة وأرسلت جيشا كبيرا لاسترجاع بيت المقدس تلبية لنداء البابا الكبير (أنوسنت الثالث) غير أن هذه الحملة لم يقدر لها الوصول الى الشام بل انها عرجت فى طريقها على القسطنطينية اجابة لدعوة امبراطورها المخلوع ليعيدوا له ملكه غير أن الصليبين عند ما صاروا هناك خلعوا الامبراطور الشرقى وعينوا بدله امبراطورا منهم سنة ١٢٠٤ ويعرف هذا العهد بعهد أباطرة اللاتين

بالقسطنطينية وهناك استمر ذلك الحكم نحو ستين عاما حتى طرد أهل القسطنطينية أباطرة اللاتين بعد ثورة دموية . وقد كانت تلك الحوادث الدموية سببا فى ابعاد الشرق المسيحى عن الغرب المسيحى بعد أن قربت بينهما الحرب الصليبية الاولى وبعد ذلك صار الانشقاق بينهما لايرتق .

فالحق أن هذه الحملة لم تصل الى الشام ولم تؤذ ملك الملك العادل بشىء غير ان الحملات توالت بعدها وجعلت قصدها الضرب فى قلب الدولة الكبرى التى صارت لها الزعامة على العالم الاسلامى وهى مصر .

وكان أكبر هذه الحملات الحملة الكبرى التى توجهت سنة ١٢١٧ هابطة الى مصر عند دمياط بعد أن نزلت اولا بالشام . وقد مات الملك العادل قبل أن يصطدم بها تاركا عبء الدفاع لابنه الذى تولى الملك بعده وهو الملك الكامل وكان جديرا بميراث أبيه العظيم ولكنه كان ميالا الى السلم ولو كلفه ثمنا باهظا . فعرض على الصليبيين أخذ بيت المقدس ولكنهم رفضوا ذلك فواصل الحرب معهم حتى أمكنه بعد نضال طويل أن يهزمهم سنة ١٢٢١ عند قرية المنصوره التى بدأت تتسع بعد ذلك على يد الملك وقد كان الاعتدال الذى أظهره الملك الكامل بعد ذلك الانتصار فى معاملته للمسيحيين وشروط معاهدتهم اعتدالا شبيها بما كان صلاح الدين العظيم متصفا به . فسمح لاعدائه بالخروج من مصر وعقد معهم هدنة ثمان سنين .

وقد تجددت محاولة الضرب فى قلب الدولة الاسلامية فى مدة الملك الكامل سنة ١٢٢٨ على يد امبراطور المانيا ( الدولة الرومانيـة المقدسة) وهو فردريك الثانى بن هنرى السادس . وقد كانت هذه الحملة عجيبة فقد جاء فردريك على رغم البابا الذى كان فى ذلك الوقت معاديا له ثم نجح بغير حرب فى أخذ بيت المقدس إذ سمح له الملك الكامل المسالم أن يستولى عليها ليتحاشى الحرب إذ كان يخشى من الامراء المسلمين فى الشام

أن ينتهزوا الفرصة وينقضوا عليه ومن المفيد أن نذكر أن الامبراطور فردريك الثانى كان من أول الملوك الاوربيين الذين كانوا على شىء كبير من العلم والاطلاع فى تلك العصور المظلمة فى أوربا وكان مدينا للمسلمين فى علمه وتأدبه . وقد تعهد فردريك نظير أخذ بيت المقدس أن يصادق الملك الكامل ويدافع عنه أمام كل أعدائه ولو كانوا مسيحيين . ويسمى التاريخ هذه الحملة بالحرب الصليبية الخامسة وقد طال حكم الملك الكامل مدة أخرى ليرى نتيجة حكمه القوى وحكم العظماء من أسرته اذ بلغت مصر عند ذلك ذروة مجدها الحربى والمدنى . فقد كانت أعمال الاصلاح على قدم مع تلك الحروب ولم ينس بنو أيوب مع كل مشاغلهم أن يعلوا أمر التعليم فنشروا المدارس سيرا على سنة صلاح الدين وشجعوا العلماء والادباء حتى صارت مصر مركزا أدبيا كبيرا فوق أنها كانت قطب سياسة العالم الاسلامى ولما مات الكامل سنة ١٢٣٨ تولى بعد ابنه الملك العادل الثانى الضعيف مدة قصيرة ثم نزعه من الملك أخوه الملك الصالح سنة ١٢٤٠ وقد حدث فى أيامه حادثان يستحقان الذكر الاول أن التتار أغاروا على العالم الاسلامى الشرقى وحطموا الدول الصغيرة على حدوده وساروا متجهين نحو بغداد فهربت فرق من جنود تلك الدول لاجئة الى جهات مختلفة من العالم الاسلامى ومنها الفرقة المعروفة بفرقة (الخوارزمية) نسبة الى دولة (خوارزم) التى كانت تلك الفرقة فيها من قبل . وقد وفدت الى الشام وساعدت الملك الصالح على استرجاع بيت المقدس من المسيحيين سنة ١٢٤٤ وأما الحادث الثانى فهو الاغارة الصليبية المعروفة بحملة (لويس التاسع) ملك فرنسا الكبير أو الحرب الصليبية السادسة سنة ١٢٥٠

# الحرب الصليبية السادسة

سارت تلك الحملة على خطوات الحملة السابقة سنة (١٢١٧) حتى بلغت المنصورة وهناك دارت حرب طاحنة مات فيها من المسيحيين عدد عظيم - وكان شرف هذا النصر لمماليك الملك الصالح وهم من الاتراك الذين اشتراهم ودربهم على الحرب من صغرهم .

وقد كان هذا النصر مجيدا بنوع خاص لان الملك الصالح كان قد مات من قبل وكان الجنود يحاربون تحت أمرة قوادهم وقامت على رأس الدولة في تلك الاثناء الملكة المشهورة (شجرة الدر) لأن ولى العهد طوران شاه كان غائبا عند ذلك فى ديار بكر فلما جاء استمر فى الحرب مع المسيحيين حتى انتهى الامر بتحطيم جيشهم وأسر ملكهم مع كثير من أمرائه . وقد فدى الاسرى فيما بعد بأموال طائلة .



(شكل ٢٣) لويس التاسع

ولم يطل حكم طوران شاه بل قتل فى نفس السنة قتله بعض قواد المماليك ومن ذلك الوقت أخذ قواد الجيش (المماليك) الحكم فى يدهم . ويعرف عهدهم بعهد سلاطين المماليك .

## نشأة دولة المماليك فى مصر

هكذا انتهى حكم اسرة بنى أيوب المجيدة التى لم يل الحكم فيها الا عظيم بعد عظيم والتى بلغت مصر فى مدتها أعظم ما بلغت من الرفعة والرفاهية وقد حاولت شجرة الدر أن تستمر على الحكم ولكنها لم تقو بغير مساعدة أمراء الجيش فتزوجت بأميرهم الكبير (عز الدين أيبك التركمانى) وهو أول السلسلة الطويلة من سلاطين المماليك بمصر ويمكن أن نعد تلك الدولة استمرارا طبيعيا لدولة الايوبيين .

## نظام الحكم فى دولة المماليك

لم تكن دولة المماليك بطبيعة الظروف دولة أقامها رجل أو أسرة واحدة بل هى دولة أقامتها هيئة الجيش كاملة . فكان السلطان الذى يعين قائما على رضى الجيش وأمرائه فكان يسعى بكل الوسائل التى لديه لكى يسيطر على الجيش أما بالسطوة والبطش واما بالكرم وإما بحسن المعاملة ولم يكن الجيش حزبا واحداً بل كان به أحزاب متفرقة وكان رؤساؤه يسعون دائما إلى بلوغ السلطنة بالمؤامرات إذا استطاعوا فكان أمام السلطان الذى يعين عمل شاق جداً وهو حفظ توازنه والدفاع عن نفسه أمام المتطلعين الكثيرين للحكم .

وقد سميت هذه الدولة جمهورية عسكرية ، وهذا أقرب وصف لها فقلما نجد أحد السلاطين المماليك خلف الحكم فى بيته — بل كان أكثرهم ينتهى حكمه بانقلاب سريع إما يعزل فيه وإما يقتل وكان رئيس الحزب المتآمر على الانقلاب هو الذى يحكم بعده وعند ذلك يولى أصدقاءه أكبر الوظائف فى الجيش وادارة البلاد .

وقد كان هؤلاء المماليك كلهم أجانب جاءوا من بلاد التركستان أو من جبال القوقاز وكانوا على جانب عظيم من الشجاعة فى الحرب حتى ضرب بهم المثل فى القوة والاقدام ولكنهم كانوا لايعرفون إلا الحرب وكان لبعضهم قدرة فى الحكم والسيطرة على الناس مثل السلطان الظاهر ( بيبرس ) ثالث من حكم من هذه الطائفة على مصر ولكن كان ينقص هذه الدولة على العموم أمر عظيم الخطر وهو فهم مصر ولغتها وتقدير المجهودات السلمية قدرها وكان من ذلك نتائج كبرى اهمها ما يأتى

(١) صارت طائفة الحكام منعزلة كل الانعزال عن الشعب لاتفهم لغته تماما ولا تهتم بأموره بل كان ميدانها الوحيد ميدان الحرب

(٢) بدأت العلوم والآداب العربية تفقد التشجيع التى كانت تجده فى أيام الفواطم والايوبيين ومن ذلك الوقت بدأ عصر الاضمحلال فى المدنية المصرية إلا ما حفظ فى طائفة مخصوصة جعلت حياتها لطلب العلم وهم رجال الدين .

(٣) زاد نفوذ العلماء ( وأصبح ذلك الاسم وصفا لرجال الدين ) وكان نفوذهم يعظم تدريجا بصفتهم زعماء من الوطنيين أمام دولة المماليك التى كان رجالها كلهم من الأجانب . وهذا نظير ما حدث فى دولة القوط ثم اللمبرديين من زيادة نفوذ رجال الدين عند وجود تلك الدول الأجنبية بايطاليا .

(٤) نظرا لأن هؤلاء المماليك محاربون لايعرفون إلا الحياة الدموية كانت أساليب الحكومة دائما شديدة كأنما هى أحكام عسكرية مستمرة .

وهذا مبدأ عهد الفظاعة فى العقوبات وعهد التعذيب البشع الذى لم تعرفه مصر من قبل ، ولكن يجب أن نذكر أن تلك الفظائع كانت فى العادة مقصورة على الحكام والمماليك فيما بينهم وكان الشعب بمعزل منهمكا فى تجارته وصناعته وزراعته ٠

المشاغل الخارجية للماليك

(١) كانت مصر خارجة من حروب الصليبيين الكبرى التى هزت العالم الاسلامى فى القرن الثانى عشر وأول الثالث عشر ولما انتهت دولة الأيوبيين كانت نهايتها مجيدة فقد كان آخر عهدها بالحكم الايقاع بجيش لويس التاسع وأسره كما مر وقد خبا لهيب الحروب الصليبية بعد ذلك وصارت أوربا لا تتحرك لارسال حملات جديدة إذا استثنينا حملات لم تصل إلى اتمام شىء مثل الحملة التى يسميها التاريخ بالسابعة وقد قام بها لويس التاسع أيضا قاصدا أن يأتى إلى مصر من الغرب عن طريق تونس فالصحراء ولكن المرض فتك بذلك الجيش ومات لويس قبل ان يبدا السير نحو مصر سنة ١٢٧٢ . وعند ذلك لم يبق للصليبيين بالشام إلا بعض بلاد على الساحل أهمها عكا . وكانت همة سلاطين المماليك متجهة نحو ازالة كل آثار الصليبيين من الشام . وكان أكبرهم فى ذلك السلطان الثالث الظاهر بيبرس العظيم ، فما زالوا يهاجمون هذه البقايا مدينة بعد مدينة حتى سقط آخر معقل للمسيحيين ( عكا ) فى أواخر القرن الثالث عشر على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ .

(٢) ولكن لم يكن خطر الصليبيين عند ذلك شيئاً يذكر بجانب خطر مقبل من الشرق فان التتار الذين بدأوا أغارتهم على العالم الاسلامى فى أوائل القرن الثالث عشر اجتاحوا البلاد الشرقية جميعها فى تيار جارف من الدماء والتخريب حتى أخذوا بغداد ذاتها سنة ١٢٥٨ وهناك وقعت المأساة الكبرى وهى تدمير عاصمة الدولة الاسلامية الكبرى . ولم يبق شىء من آثار مدنية المسلمين العظيمة التى أقاموها فى بغداد فى مدة خمسة قرون بل ذهبت كل آثارها المادية وكان من أكبر الخسائر ضياع المكتبة العظيمة وكانت تحوى مئات الآلاف من المؤلفات القيمة التى لم يكن لكثير منها نسخ فى المكاتب الأخرى فى أنحاء العالم الاسلامى . وقد وقع ذلك فى عهد المماليك فكان عليهم أن يقفوا أمام ذلك الخطر الداهم فوقفوا وقفة عظيمة

كان لها الفضل فى حفظ مصر والمدنية الاسلامية المكدسة بها من جهة وحفظ بقية العالم الاسلامى من يد التتار المدمرة من جهة أخرى وهزم التتار بالشام مرارا كان اعظمها وقعا الهزيمةالكبرى التى أوقعها بهم السلطان الثانى وهو المظفر (قطز) بقرب (عين جالوت) سنة ١٢٦٠ . وقداستمر الاصطدام مع التتار مدة بيبرس الذى جاء بعده ثم فى مدة قلاوون الكبير الذى نزع السلطة من نسل بيبرس الضعفاء سنة ١٢٧٩ فقد نال عليهم نصرا عظيما عند حمص ١٢٨١ وقد هدأ تيار التتار بعد ذلك ولكن استمر النضال بين دولتهم التى تكونت على انقاض الدولة العباسية وبين المماليك بعد ذلك مدة طويلة وكان النصر فيها في الغالب حليف المماليك .

انتقال الخلافة لمصر :

لما فتح التتار بغداد وخربوها هرب افراد من الاسرة العباسية بعد قتل الخليفة وجماعة من أسرته وجاءوا الى مصر فى مدة الملك الظاهر بيبرس فرحب بهم وأعاد الخلافة الى أحدهم بلقب (المستنصر) ١٢٦١ ومن ثم تبدأ سلسلة طويلة من هؤلاء العباسيين فى مصر وكانوا خلفاء اسميين الى جانب السلطان صاحب السلطة الفعلية كلها ولم تكن فكرة الملك الظاهر بيبرس الا ان يزيد من عظمة دولته بايواء الخلافة اليها . وقد استمرت تلك الخلافة الاسمية في مصر حتى فتحها السلطان سليم العثمانى وأخذ لقب الخلافة لنفسه سنة ١٥١٧

عصور دولة المماليك بمصر

اصطلح المؤرخون على تقسيم مدة حكم سلاطين المماليك الى قسمين ويسمون القسم الاول حكم المماليك البحرية نسبة الى أن اقامة جنود المماليك كانت اولا فى جزيرة الروضة وما يليها بجوار البحر (النيل) ويسمون القسم الثانى حكم المماليك البرجية نسبه الى (البرج) أو القلعة حيث صارت اقامة

هؤلاء الجنود اخيراً وكان أكثر المماليك فى العصر الاول يؤتى بهم من بلاد التركستان والمغول وأما فى العصر الثانى فكان أكثرهم من الجراكسة من بلاد القوقاز

(١) تقع مدة العصر الاول بين سنى ١٢٥٠ — ١٣٨٢ — (أى ١٣٢ سنة) وكان أكبر سلاطينه من سبق ذكرهم: عز الدين أيبك (١٢٥٠—١٢٥٧) ولم يبق الملك فى بيته طويلا بل نزعة من أبنائه (المظفر قطز) (١٢٥٩ — ١٢٦٠) ولعل أكبر هؤلاء السلاطين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) ولم يبق الملك زمنا طويلا فى بيت واحد فى هذا العصر الا فى بيت قلاوون الذى حكم بين (١٢٧٩ — ١٢٩٠) اذ استمر بعده الملك فى بيته مدة طويلة الى سنة ١٣٨٢ حتى نزع من نسله على يد برقوق وهو أول المماليك البرجية

وقد شهد هذا العصر اعظم مابلغته دولة المماليك من المجد وقد أدى ملوكها أكبر خدمة لمصر والعالم الاسلامى في الدفاع ضد الصليبيين والتتار

نمو التجارة المصرية

وقد عظم شأن مصر فى تلك المدة بين دول العالم فى التجارة فان مصر صارت تعد قلب العالم الاسلامى وكانت أوربا بعد خروجها من الحروب الصليبية قد عرفت كثيرا عن الشرق واتصلت به بعلاقات تجارية فبدأت حركة كبرى لتبادل السلع بين الشرق والغرب ونشأت منذ الحروب الصليبية حركة بحرية كانت أولا مقصورة على نقل الجنود والحجاج بين الشام واوربا ثم استمرت بعد انتهاء الحروب واشتغلت بحمل المتاجر وكانت أكبر المدن التى تعمل فى هذه الحركة هى جنوة والبندقية وبيزا وكلها من ثغور ايطاليا فكانت اساطيل هذه المدن تأتى لمصر بمتاجر اوربا وتحمل من مصر متاجر الشرق المختلفة وجعلت وفود التجار من جميع

النواحى تفد الى مصر ولا سيما من هذه الثغور الايطالية . وقد بدأت منذ عصر صلاح الدين معاهدات تجارية لتسهيل المعاملة لما ينشأ عنها من الفائدة المادية وقد سار سلاطين المماليك الاوائل على تشجيع تلك الحركة التجارية بعقد المعاهدات التى تضمن سلامة الاجانب فى البلاد التابعة للدولة المصرية (وهذه مما بنيت عليه الامتيازات الاجنبية بمصر فيما بعد)

وقد جنت مصر فائدة كبرى من تلك التجارة فانها صارت بحق فى ذلك العصر أولى دول العالم من جهة الثروة والغنى كما كانت أولى دول العالم إذ ذاك فى القوة الحربية والمجد السياسى

(٢) وأما العصر الثانى فيقع بين سنة ١٣٨٢ — ١٥١٧ ( اى ١٣٥ سنة ) وقد توالت سلسلة من السلاطين فى ذلك العصر ولكن نظام حكم المماليك لم يبق له مبرر إذ زالت الاخطار التى كانت فى الماضى تهدد مصر فأصبح حكم المماليك العسكرى لاضرورة له وبهذا صار حكمهم فاسداً وأصبح مثل حكم الاقطاع عند ما صار لامبرر له فى أوربا بعد القرن الحادى عشر وكان أعظم ملوك ذلك العصر برقوق ( ١٣٨٢ — ١٣٩٠ ) وقايتباى ( ١٤٦٨ — ١٤٩٦ )

وقد بدأت عظمة مصر التجارية تتحطم منذ ذلك العصر وبدأت ثروتها تقل من جراء القلاقل المستمرة بين الأمراء فى الداخل

وقد وجد فى آخر الأمر منافس حربى ما زال ينمو حتى صار قوى الساعد فنزع السيادة الحربية من تلك الدولة بعد نضال استمر زمنا طويلا وهذا المنافس هو دولة الترك العثمانيين التى بدأت صغيرة لاتذكر بجانب عظمة الدولة المصرية ثم ما زالت تنمو حتى انتهى أمرها بضم مصر الى دولتها على يد سليم الأول العثمانى سنة ١٥١٧ وكان آخر سلاطين مصر المستقلين من تلك الدولة قانصوه الغورى الذى مات فى النضال ضد العثمانيين فى الشام ثم طومان باى الذى سلم للغزاة بمصر وقتله سليم القاسى

# نشأة الممالك الاوربية وتطور نظم الحكم فيها

فرنسا: مر ذكر تاريخ نشأة فرنسا منذ أغار الفرنج على غالة وقد تعاقبت الدول عليها ففى أول الأمر حكمت الاسرة الميروفنجية (نسل كلوفس) الى ان نزعت الأسرة الكارلية السلطة من ملوكها الضعفاء المتأخرين وصار ببين ابن شارل مارتل أول ملوك الأسرة الجديدة وقد بلغت عظمة هذه الدولة أوجها فى أيام شرلمان ثم تقسمت دولة الفرنج فى معاهدة فردان وانقسمت الاسرة الكارلية الى ثلاث شعب كل منها يحكم قسما من الدولة العظيمة التى كونها شرلمان واستمر الحكم فى يد فرع هذه الاسرة فى فرنسا الى أن جاء العصر الاقطاعى وأصبح الملوك الكارليون لانفوذ لهم بجانب الامراء الاقوياء ثم تكرر ماحدث أولا فنزع الامر من يد الاسرة الكارلية.

وتولى الملك أحد الامراء الاقوياء وهو (هيو كابيه) سنة ٩٨٧ وقد كان أوائل ملوك هذه الاسرة لايحكمون إلا قطعة صغيرة من فرنسا حول باريس وكان سلطانهم مزعزعا حتى فى داخل تلك المساحة الصغيرة اذ كان الامراء ينازعونهم منازعة الانداد ولهذا كان الملوك الاربعة الاول من هذه الاسرة لا سطوة لهم فى الدولة، ولكن بانتهاء حكم هؤلاء الاوائل يبدأ عصر جديد منذ أوائل القرن الثانى عشر سنة ١١٠٨ فان الحكم الاقطاعى كان عند ذلك قد ظهر فساده وبدأت الميول تتجه نحو مساعدة الحكومة المركزية على الضرب على أيدى الامراء وإزالة الفوضى المنتشرة فى فرنسا من جراء حروبهم الداخلية المستمرة وبدات سلسلة ملوك أقوياء منذ أيام لويس السادس فجعلوا يعملون بكل وسيلة على تقوية الحكومة المركزية. واستمر هذا مدة لويس السابع وفليب الثانى الذى وصلت سطوة الحكومة المركزية فى أيامه مبلغاً عظيما.

النزاع بين فرنسا وانجلترا

وقد وقع فى هذا الوقت أول نزاع بين فرنسا وانجلتره وهو النزاع الذى يستمر بعد ذلك مدة طويلة وينتج حروباً طويلة بين هاتين الدولتين كما سيأتى .

والسبب فى حدوثه أن ( هنرى الثانى ) ملك انجلترة عند ذلك كان يملك فى فرنسا اراضى واسعة آلت اليه من أبيه وهو أمير فرنسى كان يحكم مقاطعة ( انجو ) وقد استولى أيضاً على مقاطعات أخرى كانت تحت حكم زوجته وهى أميرة فرنسية ( كانت تحكم جزءاً كبيراً من جنوب فرنسا )

وكان ملوك فرنسا منذ ذلك يريدون بسط نفوذهم على البلاد واضعاف سلطة الامراء الاقطاعيين وقد كان ملوك انجلترة أحد هؤلاء الامراء الاقطاعيين بالنسبة لملوك فرنسا وفى الحقيقة كانت ممتلكات ملوك انجلترة بفرنسا أكبر من ممتلكات الملوك الفرنسيين فبدأ ملوك فرنسا يعملون جهدهم للقضاء على سلطان هؤلاء الاتباع الاقوياء وما زال الامر على ذلك طول حكم لويس السابع وأول حكم فليب الثانى وقد نجح هذا أخيراً فى أن يقضى على نفوذ ملك انجلترة واستفاد بثورات ابنائه عليه ( وكان من هؤلاء الابناء الثائرين ريشارد قلب الاسد ) فما أتى آخر القرن الثانى عشر حتى كانت انجلترة قد فقدت كل ممتلكاتها تقريبا وضمت كلها الى تاج فرنسا . وقد أدى نجاح فليب فى تقوية سلطة الحكومة المركزية الى تلقيبه بلقب ( اغسطس ) أو الكبير ( وهو الذى اشترك فى الحرب الصليبية الثالثة مع ريشارد )

فلما مات فليب ترك فرنسا دولة عظيمة الى أن ورث الملك حفيده لويس التاسع الذى بلغت سلطة الملك الفرنسى فى أيامه اوج العظمة فقد كان ذلك الملك فى عصره أكبر ملوك أوربا وهو الذى مثل اوربا فى الدفاع

عن الدين فهاجم المسلمين مرتين أولا فى مصر وثانيا فى تونس كما مر .

على أن الملوك الفرنسيين اتبعوا بعد ذلك سنة كان أثرها اعادة الاقطاع بشكل جديد وذلك أنهم جعلوا يقطعون امراء الاسرة المالكة أقاليم واسعة ليحكموها فبدأت تتكون أسرات جديدة من أمراء من الاسرة المالكة ثم نما سلطانها تدريجا حتى صارت تنافس الملوك وأعادت الامر الى ما كان عليه فى الماضى غير أن الامراء بعد لويس التاسع أخطر شأناً لأنهم يعدون أنفسهم أقران الملوك وأقاربهم ولهذا كان لابد من تجدد النضال بينهم وبين الحكومة المركزية وقد كان نضالا عنيفا ، ويسمى التاريخ هذه الاقطاعات الجديدة باسم ( أپاناج )

## تجدد الحروب بين فرنسا وانجلتره

قد انتهى الدور الاول من الحروب بين ملوك فرنسا وملوك انجلتره على ان ضمت جميع ممتلكات ملوك انجلتره الى التاج الفرنسى كما مر . ولكن ما كان ملوك انجلتره لينسوا ذلك وقد حدث بين الجانبين تنافس شديد وكان العداء يظهر كلما لاحت فرصة فكان ملوك انجلتره يساعدون اعداء ملوك فرنسا فى كل مكان. ففى البلاد المنخفضة كانت انجلتره تساعد الثورات ضد فرنسا وكذلك كان الانجليز يساعدون مؤامرات أمراء ( الاپاناج ) ضد الحكومة المركزية ولا سيما أمراء ( برغنديا ) كما أن فرنسا كانت تساعد الاسكتلنديين فى نضالهم ضد الانجليز فكانت النفوس مملوءة من الجانبين بالكره والحقد وكان كل منهما ينتهز الفرصة للوثوب بالآخر ولاحت الفرصة أخيراً لملوك انجلترة فادعوا الحق فى الاستيلاء على عرش فرنسا ذاته بعد موت الملك شارل الرابع سنة ١٣٢٨ فان فرع الاسرة الكابيتية المباشر انقرض بموته واختار أمراء فرنسا ملكا من أمراء ( الاپاناج ) وهو من الأسرة الكابيتية يسمى فرع ( ڤالوا ) وذلك الملك هو ڤليب دى ڤالوا.

وكان ملك انجلترة عند ذلك ( ادوارد الثالث ) وهو ينتسب بواسطة امه الى ملوك الاسرة الكابيتية المباشرة فادعى انه احق بملك فرنسا لذلك ولو ان هناك قانونا فرنجيا محترما اسمه القانون ( السالى ) يمنع تولية من ينتسب الى الأسرة المالكة بواسطة امرأة . غير ان الأمر لم يكن الا احتيالا لايجاد سبب صورى لتحقيق ارجاع الممتلكات القديمة التى كانت لملوك انجلترة فى فرنسا . فلم يتردد ادوارد الثالث طويلا بل بدأ الاغارة لتحقيق غرضه .

وبذلك ابتدأت الحرب التى تستمر متقطعة أكثر من مائة عام وتسمى لذلك بحرب المائة عام .

ادوار حرب المائة عام

بدأت الحرب فعلا بمعركة بحرية عند محاولة الانجليز النزول الى ساحل فرنسا وقد انتصر الاسطول الانجليزى بمساعدة الهولنديين اهل ( البلاد المنخفضة ) الذين كانوا يناضلون ضد فرنسا .

ويمكن تقسيم الحرب بعد ذلك الى دورين الأول من سنة ١٣٤٠ — ١٣٦٠ والثانى من سنة ١٤١٥ الى نهاية الحرب فى سنة ١٤٥٣ . ومما يسترعى النظر أن هذه الحرب الطويلة انتهت بغير معاهدة بين المتحاربين بل وقفت عند ماسئمها الجانبان وبقيت الأمور بعد ذلك على ما كانت عليه عند وقوف رحى الحرب .

الدور الأول

انتصرت انجلترة انتصاراً عظيما فى ذلك الدور عند كريسى فى شمال فرنسا ( سنة ١٣٤٦ ) وقتل من الفرنسيين نحو ثلاثين ألفا وأعقب ذلك أخذ ( كاليه ) عنوة واصبح الانجليز سادة كل القسم الشمالى من فرنسا . وقد أغارت الجيوش الانجليزية على فرنسا فى نفس الوقت من الجنوب الغربى

واوغلت فى سهول نهر اللوار وكان بطل هذا الميدان هو الفارس الاسود ابن ملك انجلترة وقد حدث الاصطدام العظيم بين الانجليز والفرنسيين هنالك عند (بواتييه) سنة ١٣٥٦ وفيه نال الانجليز نصرا حاسما جديدا وأخذ ملك فرنسا أسيرا وهو الملك (جان بن الملك فليب دى ڤالوا)

وقد هزت هذه الهزائم الشعب الفرنسى هزة كبرى فقامت حركة شعبية قوية ووقعت الحكومة الفرنسية فى ازمة خطيرة من ثورة الشعب الحانق فزاد هذا من تمكين انجلترة من ارض فرنسا حتى اضطر ملك فرنسا الى عقد معاهدة (بريتينى) Bretigny نسبة الى قرية فى الشمال الشرقى من فرنسا وذلك سنة ١٣٦٠

وبذلك ينتهى الدور الاول وتبدأ فترة طويله قبل تجدد هجوم انجلترة فى سنة ١٤١٥ .

فترة الحرب

ولكن لم يقدر لانجلترة ان تملك ما كسبته من تلك الحروب طويلا فان الجيوش الفرنسية جعلت تستعيد منها تدريجا أرض فرنسا بفضل قائد عظيم (وهو برتران دى جسلان) فما أتت ١٣٧٥ حتى كانت فرنسا قد استرجعت كل أرضها . وقد أدى ذلك الى حدوث هزة كبرى فى انجلتره شبيهة بالهزة التى اهتزتها فرنسا من قبل وثار الشعب الانجليزى على حكومته لفشلها . وأعقب ذلك اضطراب داخلى فى انجلتره بين الملك (ريشارد الثانى حفيد ادوارد الثالث) وبين امرائه انتهى بعزله واختيار أحد الامراء اقرباء البيت المالك بدله سنة ١٣٩٩ فلم تستقر الامور الا فى اوائل القرن الخامس عشر وعند ذلك امكن انجلترة ان تحاول مرة أخرى أن تستعيد ما فقدته فى فرنسا فتجددت الحرب سنة ١٤١٥ .

الدور الثاني

كانت فرنسا في أوائل القرن الخامس عشر فى حالة اضطراب من تشاحن الاحزاب على السلطة اذ كان ملكها عند ذلك شارل السادس الذي ولى الملك طفلا صغيرا فجعل الامراء يتنافسون على الوصاية عليه ثم مالبث أن جن وهو شاب صغير فكانت هذه فرصة جديدة للتنافس على السلطة بين الامراء وكان من أكبر هؤلاء المتنافسين أمير برغنديا وامير (اورليان)، وقد ثارت بين الجانبين حرب داخلية طاحنة فكانت الفوضى الناشئة عنها دافعة للانجليز على تجديد الحرب والاغارة على فرنسا سنة ١٤١٥

وكانت انجلترة عند ذلك قد استقرت أمورها تحت ملوك اسرة جديدة وهى أسرة لانكستر وكانت الاغارة هذه المرة من شمال فرنسا فقط وكان النصر حليف جيوش الانجليز مرة أخرى فانتصروا نصراً كبيراً فى موقعة (اجنكور) وصار بعدها شمال فرنسا فى يدهم

وقد وجد ملك انجلتره (هنرى الخامس) فى حوادث فرنسا مساعدا كبيرا على النجاح فانه انضم الى أحد الحزبين المتنافسين على السلطة وهو حزب (برغنديا) وكانت نتيجة هذا فوزا عظيما فى معاهدة شهيرة وهى معاهدة (تروى) سنة ١٤٢٠ وكانت تقضى بأن يصير ملك انجلترة وصيا على ملك فرنسا المجنون وأن يخلفه على عرش فرنسا بعد موته وأن يتزوج بابنته الاميرة (كاترين) فلما ولد طفل لملك انجلتره من هذه الاخيرة صار بمقتضى هذه المعاهدة ملك فرنسا وقد مات هنرى الخامس بعد ذلك بقليل وتبعه شارل السادس فاصبح الطفل هنرى السادس ملكا لانجلتره وفرنسا .

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد فان شعب فرنسا غضب لهذه المعاهدة التى اخذت قسرا وثار ليساعد وارث الملك الفرنسى وهو شارل

السابع بن شارل السادس وكانت فتاة ريفية على رأس هذه الثورة وهى (جان دارك) الشهيرة التى بدأت نضالها سنة ١٤٢٩ وكان أول عمل لها رفع حصار الانجليز عن (اورليان) وكان النصر بعد ذلك حليفها حتى اخذت (ريمس) وهناك توجت الملك شارل السابع وبذلك مزقت معاهدة (تروى) وكان اتباعها يعتقدون انها مرسلة من الله لتخليص فرنسا فكانو مستبسلين فى الجهاد معها وكانت على شىء كبير من وداعة الخلق وطهارة القلب وقوة الشخصية فساعد هذا على نجاحها . غير انها اسرت بعد ذلك وحاكمها الانجليز واعدموها حرقا سنة ١٤٣١ ولكنها كانت قد ادت عملها فان الفرنسيين مازالوا يتقدمون محتفظين بنصرهم وروحهم الذى استمدوه من نضالها واستمرت الحرب بعد ذلك متقطعة الى سنة ١٤٥٣ وعند ذلك لم يبق للانجليز الا مدينة واحدة وهى (كاليه) ولم يبق لهم جيوش تستطيع المهاجمة بعد ذلك فى فرنسا فسكنت ثورة الحرب ولكن لم تعقد معاهدة تقرر نظاما ثابتا بين الدولتين بعد هذه الحرب الطويلة المدمرة

## نتائج الحروب بين الدولتين

كان لهذه الحروب آثار كبرى فى تاريخ فرنسا وانجلتره الداخلى كما كان لها اثر فى مركز كل منهما بالنسبة للدول الاخرى

(١) مات كثير من الامراء الكبار فى اثنائها وكان هـذا أثر عظيم فى زيادة سلطة الحكومة المركزية في كل من الدولتين وهذا مهد السبيل الى زيادة سلطة الملوك فى كلا الدولتين منذ أواخر القرن الخامس عشر فتمكن ملوك فرنسا بعد ذلك ان يقضوا على امراء الاپاناچ ويعيدوا سلطة العرش الى ما كانت عليه أيام لويس التاسع

(٢) هزت هذه الحروب شعبى انجلتره وفرنسا هزة عظيمة وهذه الهزة هى التى جعلت تلك الشعوب تنضم الى جانب الحكومات المركزية

لتقضى على فوضى الاقطاع ذلك النظام الذى أصبح فاسدا لايؤدى وظيفة بل يهرق الدماء ويفسد البلاد بعد أن كان فى القرن العاشر واوائل الحادى عشر يدافع عن سلامة أقطار أوروبا ضد الاخطار الكبرى التى كانت تهددها من الاغارات من جميع النواحى كما مر

(٣) نمت روح الوطنية فى أثناء هذا النضال وشعر شعب كل دولة من الدولتين انه منفصل قائم بذاته وهذا مهد السبيل الى قيام كل من الشعبين يسعى لاعلاء شأن نفسه مستقلا عن غيره وينمى نظمه الداخلية ويفكر فى تحسين أحواله التجاريه والصناعية منافسا فى ذلك الشعوب الاخرى

ومن هنا بدأت فكرة التوسع السياسى والاقتصادى فى كل من الدولتين

(٤) انصرفت انجلترا الى داخل جزيرتها بعد أن عجزت عن امتلاك ارض فى فرنسا وهذا ما جعلها تنمى نظامها السياسى الداخلى وتكون لذاتها شخصية مستقلة عن السياسة الاوربية وصارت من ذلك الوقت منعزلة فى سياستها عن القارة تنظر من بعيد الى حوادثها ولا تشترك فيها الا بمقدار ما تستلزمه مصلحتها وهذا ما جعلها تنجو من كثير من المشاكل الدولية . واما فرنسا فان نجاحها فى ذلك النضال دفعها الى الرغبة فى سيادة ما حولها من البلاد ومن ذلك الوقت بدأت فكرة التوسع والتطلع الى سيادة اوربا وهذه السياسة ستبلغ قصاراها فى زمن لويس الرابع عشر

## لويس الحادى عشر وشارل الجسور

خرجت فرنسا بعد حرب المائة عام منصورة ولكن كان فى داخلها منافسة قوية من جهة اكابر امراء الاباناج وكان أشدهم خطرا امير برغنديا وقد مر أنه كان يساعد الانجليز أثناء حرب المائة عام حقدا منه على الحكومة المركزية ورغبه فى بسط سلطانه على فرنسا وكان امراء برغنديا يملكون بلادا واسعة فى شرق فرنسا وشمالها الشرقى وقد تعاقب منهم ثلاثة كانوا من

أشد أعداء الأسرة المالكة بفرنسا وكان آخرهم شارل المعروف بالجسور .

غير أن ملك فرنسا منذ سنة ١٤٦١ كان لويس الحادى عشر الشهير فى التاريخ بدهائه ووصوله إلى غاياته بكل الوسائل ، وقد جاء هذا الملك بعد أن هدأت الأحوال فى داخل فرنسا ولم يبق أمامه الا منافسة أمراء قلائل أكبرهم أمير برغنديا الذى كان يؤلب الأمراء ويتآمر معهم على لويس ، وقد شغلت الحروب معهم جزءاً كبيرا من اهتمام لويس حتى ساعده حظه بموت ذلك الأمير القوى ولم يترك إلا ابنة وهى الأميرة ( مارى ) التى تزوجت بالأمير الكبير مكسيمليان حاكم النمسا . وما لبثت هذه أن ماتت تاركة ابنتين فرأى لويس أن يصل إلى غرضه وهو ضم برغنديا بتزويج كبرى هاتين الابنتين إلى ولى عهد فرنسا وبذلك ضمن توحيد فرنسا بكل أقاليمها

ولهذا يعد لويس الحادى عشر مؤسس عظمة فرنسا الحديثة لأنه قضى على أمراء الاتاناج من جهة ، ولأنه من جهة أخرى ضم برغنديا وما تملكه إلى فرنسا وجعلها دولة واحدة عظيمة .

وقد بدأت فرنسا بعد لويس الحادى عشر سيرها فى سبيل الامتداد الخارجى وطمعت أن تكون سيدة الدول فى أوربا ، وذلك ما جرها إلى الاصطدام بدول أوربا العظمى ولا سيما النمسا

ولئن كان النضال مع انجلترة قد انتهى فى داخل فرنسا بانتهاء حرب المائة عام فانه تجدد فى ميادين أخرى فيما بعد وذلك أما فى قارة أوربا وأما فى المستعمرات .

انجلترة

كانت بريطانيا من الأراضى التابعة للدولة الرومانية منذ فتحها يوليوس قيصر العظيم . وقد بقيت فى حوزة الدولة الرومانية حتى توالت أغارات

الهمج على الدولة الرومانية فى أوائل القرن الخامس فسحبت الجيوش الرومانية التى بها لتدافع عن قلب الدولة وبذلك تركت الجزيرة بلا حام يدافع عنها، فوقعت بسهولة فى يد قبائل الأنجليز والسكسون التى عبرت اليها من القارة ومن ذلك الوقت صارت بريطانيا تحت حكم المغيرين وسميت باسمهم (انجلتره أى أرض الانجليز) وطرد البريطانيون الاصليون الى الجبال الغربية والشمالية

ولكن أخذ المغيرون يختلطون بالسكان الاصليين تدريجا وبدأ يتكون شعب واحد تحت حكومة من الملوك السكسونيين يعاونهم أكابر القبائل وقد بقي أهل بريطانيا وثنيين إلى أن دخلت الديانة المسيحية فى بلادهم على يد مرسلين من الرهبان أرسلهم البابا (جريجوار الاول) فى أواخر القرن السادس

غير أن الحال لم يستمر على ذلك فقد تعرضت انجلترة منذ أوائل القرن التاسع إلى اغارات النرمانديين الذين جاءوا من بلاد الدانمرك كما تعرضت بلاد أوربا جميعها وأخذ هؤلاء المغيرون يفسدون فى السواحل الشرقية والجنوبية وكان بطل الدفاع ضدهم هو الملك السكسونى (الفرد الكبير) الذى حكم بين سنة ٨٧١ و سنة ٩٠١ وقد اضطر للسماح لهم بالاقامة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية نظير خضوعهم لسلطانه وكان ذا شخصية قوية فلم يمت حتى كان قد قرب بين كل سكان بريطانيا من بريطانيين وسكسون وانجليز ونرمانديين وظل الحكم فى بيته مدة طويلة إلى أوائل القرن الحادى عشر أى أكثر من قرن ولم يحكم انجلترة من النرمانديين (الذين يسمون بالدانمركيين) إلا ملك واحد (كنوت) ولكن بعد موته لم يستمر الملك فى بيته لضعف أبنائه ولأن الناس كانوا أشد تعلقاً بالبيت المالك القديم — بيت

الفرد الكبير فعاد الملك إلى ( أدوارد ) التقى وكان هذا الملك يتصل بقرابة إلى وليام حاكم شمال فرنسا المسمى بأقليم ( نرماندى ) فلما مات أدوارد لم يترك وارثا من عقبه فأدعى وليام النرماندى أنه الوارث لعرش انجلترة ولكن قاومه أحد الأمراء السكسونيين وهو ( هارولد ) غير أنه لم يقو على صد ذلك الأمير القوى فهزم وقتل فى جنوب انجلترة فى موقعة ( هاستنجز ) سنة ١٠٦٦ ومن ذلك الوقت دخلت انجلترة فى حوزة أمير ( نرماندیا ) الذى يعرف في التاريخ باسم وليام الفاتح

## انجلترة تحت حكم النرمانديين

يسمى هذا الفتح بالنرماندى تمييزا له عن أغارات النرمانديين الاول فى القرن التاسع الذى يطلق عليهم اسم الدانمركيين . وكان هؤلاء النرمانديون من سلالة المغيرين الذين كانوا يفسدون فى البلاد الساحلية فى جميع أوربا فى القرن التاسع وقد حلوا فى شمال فرنسا في أوائل القرن العاشر تحت أمرة زعيم منهم وهو ( رولف ) ومن ذلك الوقت صارت ( نرمانديا ) أقليما من أقاليم فرنسا محكوما على النظام الاقطاعى وكان أمراؤه أقوياء حتى ان منهم من اغار على صقلية ونزعها من المسلمين وكون هناك دولة نرماندية قوية امتدت سلطتها على جنوب ايطاليا وشمال أفريقيا

وكان وليام أميرا ( نرمانديا ) فلما فتح انجلترة صار له صفتان الاولى انه أمير فرنسى والثانية انه ملك على انجلترة وصارت تلك البلاد تحت حكمه ولاية تابعة . وقسمها على النظام الاقطاعى الذى كان سائدا على القارة عند ذلك

وكان النرمانديون فى مبدأ الأمر أجانب عن الانجليز فى اللغة والعادات ولهذا كان حكمهم حكما اجنبيا في نظر أهل البلاد فلم يكن محبوبا عندهم ولا سيما بعد بسط نظام الاقطاع الذى سلب الفلاح

الإنجليزى أرضه وجعلها للأمراء من النرمانديين . وكانت سطوة الامراء شديدة على الناس لإعتزازهم بقصورهم الحصينة وفرسانهم المدربين على الحرب .

وقد استمر ذلك التنافر بين الفاتحين وسكان البلاد الاصليين مدة طويلة (إلى أوائل القرن الثانى عشر) ولكن طول المعاشرة أحدث اثره تدريجا وأخذت الحكومة الجديدة تسير فى سبيل الاستقرار من حكم الملك الثالث من النرمانديين وهو هنرى الاول ( ١١٠٠ — ١١٣٥ ) فقد بدأت فى مدة حكمه اولى الخطوات نحو انماء نظام انجلتره الدستورى فاصدر الملك مرسوما يعد فيه باعادة الحقوق التى سلبها الفتح من الاهلين .

ومن جهة أخرى ضرب ذلك الملك على يد الامراء وأخذهم بطاعة أوامر الحكومة فبدأ بذلك فى تنمية قوة الحكومة المركزية وفل شوكة امراء الاقطاع . وكذلك أصلح من نظام القضاء ووسع دائرة المحاكم وجعل قواعدها ثابتة فيمكن اعتبار حكم هنرى الاول مبدأ تاريخ انجلترة الدستورى

لم يترك هنرى الاول عند موته الا حفيدا صغيرا من ابنته التى تزوجت من أمير فرنسي (اميرانجو) فاختار الامراء النرمانديون أحدهم (استيفن) وهو ينتسب بامه الى وليام الفاتح . غير أن هذا لم يطل حكمه ولما مات سنة ١١٥٤ كان حفيد هنرى الاول قد شب واستطاع أن يسترجع عرش جده باسم هنرى الثانى .

وكان هنرى الثاني بحكم وراثته يملك أقاليم واسعة فقد ورث انجلترة عن جده لأمه وكان ابن حاكم انجو ( بفرنسا ) فورث هذا الاقليم عن ابيه وكانت لانجو ملحقات كثيرة من بلاد فرنسا خاضعة لحكمه أيضا ثم تزوج باميرة فرنسية تحكم (اكتين) فى جنوب فرنسا فكانت له اقاليم كثيرة فى فرنسا يحكمها بصفته أميرا اقطاعيا فرنسيا فوق كونه ملك انجلترة

ويعد هذا الملك اول اسرة جديدة من ملوك انجلترة تسمى الاسرة (الانچوية) نسبه الى (انچو) ويسمى نسل هنرى الثانى كذلك باسم أسرة (بلانتا جنت) نسبة الى نبات كان ابو هنرى يضعه فى قبعته.

## اهمية حكم هنرى الثانى

كان حكم هنرى الثانى هاما فى انجلترة من وجوه كثيرة أولها أنه حدث فيه النضال الاول بين انجلترة وفرنسا وقد سبق ذكر ذلك وكانت نتيجة النضال بعد مدة ان فقدت انجلترة كل ما تملك فى فرنسا بعد موت هنرى الثانى وكان لهذا اثر عظيم فأن انجلترة بدأت منذ ذلك الوقت تنصرف الى داخل بلادها فتهتم بانماء مواردها ونظمها.

واما الوجه الثانى فقد حدث فى مدة هنرى الثانى استمرار لحركة تقوية الحكومة المركزية فى داخل انجلتره كما حدث استمرار فى علو مستوى عامة الشعب وخصوصا فى المدن التى نمت فيها الصناعة وقد كان شعب المدن مساعدا قويا للحكومة المركزية فى القضاء على حكم امراء الاقطاع.

وكان لحكم هنرى اهمية من جهة ثالثة وذلك ان بدأت انجلترة تنصرف الى ضم ما يليها من الجزائر مثل ايرلنده وبذلك بدأت حركة التوسع فيما يجاورها مباشرة ووضعت بذلك اساس المملكة الحديثة

## نمو الدستور الانجليزى فى القرن الثالث عشر

اذا كانت الحكومة المركزية (الملكية) قد عظم شأنها فى أيام هنرى الثانى وساعدتها على ذلك المدن والشعب الذى بدأ يظهر ميلا للاشتراك فى امور الدولة — فان هناك جانبا آخر وهو جانب الامراء الذين كانوا يرون الحكومة المركزية تستولى على كل السلطة فيفزعون خوفا على نفوذهم

وقد تولى ريشارد بعد أبيه هنرى الثانى مدة قصيرة قضاها غائبا في

حروبه الصليبية فى الشام أو فى القارة الاوربية . وتولى بعده أخوه الضعيف الملك ( حنا )

وكان سيء التصرف ظالما قاسيا . وقد فقدت انجلترة فى أيامه كل ماكان لها من الممتلكات فى فرنسا . فكرهه الناس وانتهز الامراء هذه الفرصة ليقيدوا سلطة الملوك وقد ساعد البابا على زيادة كرهه بطرده من الدين واجتمعت كل هذه الظروف فجعلته منبوذا من الامراء والعامة وقد طلب الامراء منه أن يوقع عهدا يتعهد فيه بلزوم حدود العدل التى رسمها جده هنرى الأول فأبى فثاروا عليه والزموه بالقوة أن يذعن لهم فأصدر ( العهد الاعظم ) أو ( ماجنا كارتا ) سنة ١٢١٥ وهو الذى يعد أساس لحريات الانجليزية . وقد نص فيه على أمور أهمها :

(١) انه من حق الناس ان يحاكمهم اقرانهم والا يكونوا تحت سلطان الملك المطلق .

(٢) ان الملك لايفرض الضرائب إلا برضاء الامراء ورجال الدين . وقد نما نظام الحكم بعد هذا نموا تدريجيا وكان اهم المواقف فى تاريخ ذلك النمو موقفان

الموقف الاول

فى مدة هنرى الثالث ابن الملك حنا وذلك ان بدأ النظام الذى يشبه الوزارة فان الملك صار يحكم بمشاورة مجلسه الخاص وكذلك بدأ وجود ما يسمى بالبرلمان فان الملك كان اذا احتاج الى فرض ضرائب لجباية الاموال اللازمة له ولحروب الدولة جمع الامراء ورجال الدين فى مجلس ليوافقوا على فرض ما يريد ، فكان هذا أول عهد انجلترا بالمجلس النيابى الذى يشترك فى الحكم مع الملك .

الموقف الثانى : فى آخر حكم هنرى الثالث وأول حكم ابنه ادوارد الاول

وذلك أن دوام الاحتكاك بين الامراء والملك أدى الى حرب داخلية بين الجانبين سنة ١٢٦٤ وكان رئيس الثائرين كبير الامراء ( سيمون دى منتفورت ) وقد نجحت الثورة مؤقتاً وكون سيمون ( برلمانا ) مكونا من الامراء ورجال الدين وضم اليهم ممثلين لطبقة الشعب .

فلما قضى على الثورة أخيراً وتولى ادوارد الاول بعد أبيه سنة ١٢٧٢ سار على سنة الثائرين فجمع ( برلمانا ) يمثل جميع الطوائف وكانت حاجة الملك الى المال داعية الى زيادة سلطة ذلك البرلمان وقد اجتمع أول ( برلمان كامل ) سنة ١٢٩٥ وكان يجلس فيه الامراء ورجال الدين والعامة معاً ولكن فصل ممثلو العامة فى مجلس خاص بهم فيما بعد

حرب الوردتين ونتائجها

حدث في انجلترة في أثناء حرب المائة عام اضطراب شديد مرذ كره نشأ من عوامل عدة كان اهمها شدة وطأة ريشارد الثانى وعسفه وكانت نتيجة ذلك الاضطراب ثورة ضد الملك اشترك فيها الامراء والعامة وانتهت بعزله وتولية أحد الامراء الذى صار هنرى الرابع وكان من اسرة ( لانكستر ) احدى الأسر المتصلة باصل البيت المالك ولم يكن هنرى فى الواقع اجدر الامراء بالملك بل كانت هناك اسرة اخرى من الامراء أقرب اتصالا بالبيت المالك من اسرة ( لانكستر ) وهى اسرة ( يورك ) غيرأن اختيار البرلمان وقع على هنرى وكان هذا كافيا لتفضيله على كل من عداه . ولكن اسرة ( يورك ) لم تنس هذا الغبن الذى لحقها فكان امراؤها يتحينون الفرص لنزع الملك من منافسيهم الذين غلبوهم على الملك ولاحت الفرصة أخيراً بعد أن حكمت اسرة لانكستر أكثر من ستين عاما وذلك فى مدة حكم الملك هنرى السادس ثالث ملوك تلك الاسرة . فان ذلك الملك جن ( وكان جده هو لأمه

الملك شارل السادس الفرنسى الذى ذكرنا انه كان مجنونا ) فتنافس الأمراء على الوصاية والسلطة وكان امراء اسرة يورك من أكبر المتطلعين الى عرش انجلتره فانتهزوها فرصة وثار كبير تلك الاسرة بانصاره العديدين وكانت الملكة هى التى تتولى الدفاع عن العرش لجنون الملك وبدأت حرب داخلية طاحنة تعرف باسم جميل وهو ( حرب الوردتين ) فان أحد الحزبين كان يميز نفسه بوردة حمراء وهو حزب الملك وكان الاخر وهو حرب أسرة يورك يميز نفسه بوردة بيضاء ·

وابتدأت الحرب عقب انتهاء حرب المائة عام سنة ١٤٥٥ وكان النصر أولا فى جانب الثوار الذين انتصروا فى سنة ١٤٥٥ فى موقعة سنت البان حتى أن الملك هنرى نفسه أخذ أسيراً في موقعة ( نرثا مبتون ) سنة ١٤٦٠ غير أن الامر مالبث أن تغير وعاد الحكم للملك والملكة مدة عام واحد وبعد ذلك استرجع حزب يورك قوته وجعل يعيد الكرة على الملك والملكة حتى هزم جيوشهما عند ( توتن ) فى اقليم ( يوركشير ) سنة ١٤٦١ وتوج أمير اسرة يورك ملكا وصار ( ادوارد الرابع )

ومنذ ذلك الوقت صار الملك فى بيت يورك واستمرت الثورات تشب بين حين وآخر من انصار بيت لانكستر ولكنها لم تكن ثورات خطيرة

وضاع كل امل لبيت لانكستر فى استرجاع الملك عند ما مات هنرى السادس وقتل ابيه ووارثه سنة ١٤٧١ واستقر الامر بعد ذلك لبيت يورك الذى ظل على عرش انجلترة نحو خمسة عشر عاما أخرى الى سنة ١٤٨٦ ثم ولى ملك انجلتره البيت العظيم الذى بدأت على يديه عظمة تلك الدولة وهو بيت ( تيودور )

نتائج هذه الحرب

اتمت حرب الوردتين النتائج التى بدأت فى تحقيقها حرب المائة عام فى داخل انجلتره وأهمها :

(١) مات عدد كبير من الامراء فى أثنائها فكان هذا عاملا على زيادة قوة العرش

(٢) زادت ثروة الملك بما اجتمع لديه من أموال الامراء الذين دخلوا فى صفوف أعدائه والذين كانوا يقتلون أو تصادر أموالهم عقابا فاستغنى الملوك فيما بعد عن أن يلجأوا للبرلمان لفرض ضرائب للحصول على المال وبهذا أمكنهم أن يستغنوا عن مساعدة البرلمان فقلل هذا ما شأنه وصار الملك هو القوة العظمى فى انجلترة لاتقيد سلطته هيئة أخرى من الأمراء أو الشعب .

(٣) سئم الشعب بكل طبقاته الاضطراب المستمر والحروب المتصلة ولهذا كان مستعدا لتسليم قياده لحكومة قوية تضع حدا لتلك الفوضى فكان يميل الى تعضيد الحكومة فى قضائها على الثورات مهما كلفه ذلك ومن هذا مهد السبيل الى نشوء الحكومة القوية المصلحة التى نالت رضى الشعب رغم استيلائها على كل السلطة وهى أسرة (تيودور) .

اسبانيا

أقامت دولة المرابطين بالاندلس منذ سنة ١٨٠٦ نحو سبعين عاما حدث فى أثنائها تطور كبير فى جنودها وملوكها فبعد ان كانوا البدو الذين يعيشون فى صحارى شمال افريقيا تقلبوا فى نعيم الحياة الاندلسية وعادت كرة الامارات المسيحية التى نشأت فى شمال اسبانيا وزادت قوتها منذ اوائل القرن الثانى عشر وبلغت غزواتها الى قرب العاصمة ذاتها ( قرطبة ) وكان القرن الثانى عشر كما هو معروف عصر الحروب الصليبية فى الشرق فكان المسيحيون

فى اوربا يرون واجبهم النضال مع المسلمين حيثما اتصلوا بهم ولهذا كان البابا يشجع الاغارات على الاندلس الاسلامية بكل وسيلة كما كان يشجع الاغارات على المسلمين فى الشام والشرق .

وقد أوجدت لهذا الغرض فرق من الرهبان المحاربين شبيهة بفرق الرهبان المحاربين التى نشأت فى الشام فأحدثت هذه النهضة ضغطا قويا على دولة المرابطين ولم تكن عند ذلك ( فى القرن الثانى عشر ) قوية على مقاومة هذا الضغط فالتمست المساعدة من دولة اسلامية نشأت فى شعب البربر فى شمال افريقيا فى أوائل القرن الثانى عشر ونما شأنها حتى صارت قوة حربية عظمى فى أواسط القرن ( وهى دولة الموحدين ) أنشأها واعظ اسمه محمد بن تومرت ثم نصره أحد الأمراء وهو عبد المؤمن أول ملوكها وقد لبى ملوك هذه الدولة الدعوة وعبروا الى الاندلس وهناك جعلوا يردون تيار المسيحيين حتى هزموهم هزيمة كبيرة فى موقعة ( الارك ) سنة ١١٨٥ غير ان هذه الأسرة التى تعرف باسرة ( بنى عبد المؤمن ) لم تلبث ان سارت سيرة من سبقها من دول الاندلس واستهواها نعيم تلك البلاد واغرقتها المدنية الاسلامية التى كانت عند ذلك قد بلغت المنحدر المؤدى الى الانحلال . فلم تأت أوائل القرن الثالث عشر حتى عادت الامارات المسيحية الى الانتصار وكان أكبر هذه الامارات اربعة وهى البرتغال فى غرب شبه الجزيرة من الشمال وقشتاله وارغونه ونقار . غير ان اثنتين من هذه الامارات نمتا نموا كبيرا وهما البرتغال التى استقلت بنفسها وجعلت تسير وحدها فى نموها البحرى التجارى ثم قشتاله التى امتدت فى قلب شبه الجزيرة وصارت كبرى الامارات المسيحية منذ أواسط القرن الثالث عشر

وقد كانت نتيجة ضغط هذه الامارات على ما يليها من اراضى المسلمين

ان لم يبق لهؤلاء بعد أواسط القرن الثالث عشر إلا الجزء الجنوبى وهو السهول المحيطة بمدينة غرناطة

ولكن غرناطة بقيت وحدها نحو قرنين ونصف تقاوم الغزوات المستمرة رافعة رأسها محتفظة بالكنز الثمين الذى تختلف فيها من المدنية العالية التى اسسها المسلمون بالاندلس بل أن المدنية استمرت فيها يانعة مجيدة بعد ذهاب القوة الحربية والمجد السياسى ، وأن قصر الحمراء المنسوب الى بنى الاحمر الذين كانوا آخر من حكم غرناطة من الامراء لآية دالة على علو المدنية وارتقاء الفنون فى آخر حياة الدولة الاندلسية · وفى أواخر القرن الخامس عشر اتصلت امارتا ارغونة وقشتالة بعد ان كانتا متنافستين وكان اتصالها بزواج أمير الأولى باميرة الأخرى ومن ذلك الاتصال وجدت بذرة اسبانيا المسيحية المتحدة وقد زادت بهذا الاتحاد قوة المسيحيين حتى انهم استطاعوا التغلب على مقاومة غرناطة فسقطت أخيراً فى يد الملك والملكة المسيحيين وهما ( فردناند ) و ( ايزابلا ) سنة ١٤٩٢

ومن المفيد أن نعرف انه كان فى حاشية الملكة رجل يطلب المساعدة على رحلة جغرافية عجيبة زاعما انه يقدر ان يصل الى الهند الشرقية بالسير غرباً وذلك هو ( خريستوف كلومب ) المشهور .

وقد جرى المسيحيون فى اسبانيا فى معاملة المسلمين على سنة سائر المسيحيين فى تلك العصور المظلمة من قسوة واذلال واضطهاد ولعل جهل العصر يشفع لهم فى ذلك . على ان اسبانيا خسرت بذلك خسارة كبيرة فان أكثر المسلمين جلوا عنها الى شمال افريقيا وكانوا زهرة الصناع واهل الفن والعلم وكان جلاؤهم عاملا على تأخر اسبانيا فى النهضة ولم تتخلص من اثر هذا لمدة طويلة فقد بقيت متأخرة عن جميع دول

أوربا فى مضمار المدنية والعلم زمناً طويلا من جراء سياستها نحو المسلمين ومدنيتهم وعلمهم .

## الأتراك العثمانيون .

كانت دولة العباسيين فى أوائل القرن الثالث عشر قد مضى عصر قوتها من زمن طويل وتتابعت عليها الحوادث المختلفة منذ ذهب حماتها السلاطين الأوائل من السلاجقة الذين مر ذكرهم وهم طغرل بك والب ارسلان وملك شاه .. وقد أصبح منذ أوائل القرن الثالث عشر أعظم مركز للقوة فى العالم الاسلامى فى الشام ومصر فى دولة الأيوبيين فالمماليك . وأما الاقاليم الواقعة الى شرق نهر دجلة فلم تكن بها دول ممتازة الا دولة واحدة وهى خوارزم الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون . وكانت هذه الدولة متاخمة لأواسط آسيا حيث يقيم الشعب البدوى الكبير القوة وهو شعب التتار . وقد اتفق عند ذلك أن وجد رجل قادر استطاع أن يوحد بين قبائل هذا الشعب تحت حكمه وهو ( تيموجين ) الذى أخضع كل من حوله من الامراء وصار يلقب بلقب ( چنكيز خان ) أى الملك الأعظم . وقد اصطدمت دولة چنكيز خان بدولة خوارزم المجاورة لها ونشأ من ذلك نضال لم يقتصر على خوارزم بل تعداها الى كل العالم الاسلامى الذى وراءها وسال من التتار سيل مخرب مدمر لم يبق على شيء من المدنية الاسلامية الى أن فتحت بغداد سنة ١٢٥٨ واستمر السيل الى أن بلغ حدود مصر ولم تنج هذه البلاد إلا بفضل سلاطينها الامجاد المماليك . وقد كان فى جيش خوارزم فرق رحلت عند وقوع الكارثة واتجهت غربا منها فرقة الخوارزمية التى مر ذكرها ومنها فرقة أخرى من الترك سارت متنقلة فلم يستقر بها المقام حتى بلغت بلاد آسيا الصغرى وهناك التحقت بخدمة سلطان قونية أحد أمراء السلاجقة الذين قسموا بقايا الدولة الكبرى التى كان يحكمها ملك شاه وقد اقطع هذا الامير تلك الفرقة المحاربة التى حلت بأرضه

وساعدته فى حروبه قطعة من بلاده واقعة على الحدود الغربية التى بينه وبين دولة الروم الشرقية فكانوا يخدمونه هنالك فى الدفاع عن أرضه ضد الرومانيين بقيادة زعيمهم وهو (ارطغرل)

واستمر هؤلاء فى خدمة الأمير السلجوقى الى أن ولى زعيمهم الثانى (عثمان) واتفق عند ذلك موت الأمير السلجوقى فانتهز عثمان الفرصة واستقل باقليمه ومن ذلك الوقت وجدت أمارة العثمانيين التى تنسب اليه ومن ذلك الوقت سارت هذه الامارة فى سبيل التوسع والامتداد حتى صارت من أكبر الدول الاسلامية فى مدى (قرن واحد). ثم آلت اليها زعامة العالم الإسلامي بعد قرنين من نشأتها.

ويمكن تقسيم تاريخ نمو هذه الدولة إلى عصرين.

(١) العصر الأول من أيام استقلال عثمان الى أيام بايزيد الأول (١٣٠٠ — ١٤٠٢)

(٢) العصر الثانى من اعادة انشاء الدولة بعد تحطيمها فى موقعة انقره الى فتح قسطنطينية (١٤١٠ — ١٤٥٣)

العصر الأول.

لم يكن العثمانيون الا فئة عسكرية صغيرة ولم يكونوا من العدد بحيث يستطيعون أن يكونوا الا سادة عسكريين على اقليم صغير ولكنهم رأوا أنفسهم على حدود دولة كبرى متسعة الارجاء تخالفهم فى الدين واللغة والعادات وكلما فتحوا منها اقليما رأوا أنفسهم أجانب فيه لا يستطيعون أن يصبغوه بصبغتهم ولهذا كان تقدمهم فى أول الأمر محدودا غير أن (اورخان) ابن عثمان فكر عند توليته فى طريقة تضمن له زيادة الجيش وسد النقص الذى كان يشعر به وذلك أنه جعل يأخذ من البلاد التى يفتحها ضريبة من الأولاد فيقدم الناس له عددا معينا كل عام ليدخلوا جيشه وكان يبعد هؤلاء

الاولاد عن أهلهم ويعودهم الحياة العسكرية المحضة ويعلمهم قواعد الدين الاسلامى فينشأوا وقد نسوا أصلهم وأصبحوا لا يعرفون الا سيدا واحدا وهو السلطان العثمانى وقد نجحت هذه الفكرة ففتحت الجنود الجديدة بلادا واسعة واستطاعت الحكومة العثمانية أن تخضعها وان تحكمها بمساعدة ذلك الجيش وهو المعروف بالجيش الجديد ومعناه بالتركية ( ينى چارى ) وقد حرف هذا الاسم وصار ( الانكشارية )

وقد خطا الجيش الجديد أول خطاه نحو النصر فى مدة حكم مراد الاول بن اورخان اذ عبر الى اوربا وبدأ يفتح اقاليم البلقان الى أن بلغ ( ادرنه ) ونقلت العاصمة اليها بعد أن كانت فى (بروسة) باسيا الصغرى . ومن ثم أخذ يصطدم بالدول المسيحية التى هناك وكان أكبرها ثلاث : الدولة الرومانية الشرقية ودولة الصرب ودولة البلغار

ولم يقتصر امتداد العثمانيين على أوربا بل كانوا يمدون سلطانهم شرقا على بلاد السلاجقة ولكنهم فى ذلك العهد لم تكن لهم جرأة كبيرة على حروب أمراء السلاجقة المسلمين خوفا من تألبهم وخشية على دولتهم الناشئة التى لم يكن أساسها راسيا فى البلاد فكانت اكثر غزوات مراد الاول متجهة نحو أوربا حتى فتح أكثر الجهات الغربية والوسطى من البلقان وقضى على دولة الصرب فى موقعة ( قوص أوه ) الكبرى سنة ١٣٨٩ . ولكنه قتل بعد الانتصار قيل قتله أحد الصربيين وكان بين القتلى وتحين الفرصة عند مرور السلطان بقربه .

ولما ولى الملك ابنه ( بايزيد ) الاول بدأت الدولة العثمانية تتخذ مجرى جديدا وأخذت حروبها توقع الرعب فى قلوب أعدائها فقد كانت انتصارات مراد اعلانا ناجحا عن قوة الجيوش الجديد .

غير بايزيد سياسة أبيه فلم يتردد فى الاستيلاء على بلاد آسيا الصغرى

التى كان يحكمها السلاجقة · ولكنه أخطأ فى هذا فأ وجد لنفسه أعداء عديدين بين الامراء المسلمين وجعل هؤلاء يدبرون له مايهلكه كما سيأتى . وسار فى اوربا على سيرة أبيه حتى بلغ نهر الدانوب

وقد نشأ من هذا الامتداد ان اصطدم بقوتين هائلتين

(١) قوة أوربا .

(٢) قوة الملك المغولى العظيم تيمور لنك .

الاصطدام بأوربا .

ما كانت دول أوربا الغربية لتتحرك لنجدة القسطنطينية إذ هاجمها الاتراك فقد رأينا ما كان من تجدد العداء بينها وبين اوربا وكيف عرج الصليبيون عليها فى حربهم الرابعة واغتصبوا ملكها وكيف طردوا أخيرا منها بعد ثورة دموية من شعب قسطنطينية اليونانى · ولكن عندما وصلت جيوش بايزيد الى نهر الطونة ، رأت أوربا أن الاتراك بدأوا يهددون بلادا تدين بالمذهب الغربى الكاثوليكى ورأى البابا بعض اتباع كنيسته فى خطر من الفتح العثمانى فحرك اوروبا لنجدتهم وهكذا عادت حرب شبيهة بالصليبية غير اننا يجب الا ننسى أن هزة اوروبا لم تكن هزة صليبية عنيفة · فان عصور الحرب الصليبية الكبرى كانت قد مضت . وقد اجتمع المدد الاوربى من جميع الجهات فى مدينة نيقو بولس ( على نهر الطونة ) وحدثت هناك الموقعة الكبرى سنة ١٤٩٦ وفيها ظهرت قوة الجيش التركى مرة أخرى وانتصر بايزيد نصرا عظيما

(٢) الاصطدام بتيمورلنك

هرب كثير من أمراء السلاجقة من آسيا الصغرى عند ما فتح بايزيد بلادهم ولجأوا الى البلاد المجاورة فالجأ بعضهم إلى دولة سلاطين المماليك العظيمة التى كانت اذ ذاك تملك مصر والشام ولجأ بعضهم الى ملك عظيم ظهر عند ذلك فى الشرق وهو ( تيمورلنك ) الذى تجددت على يديه

اغارة التتار على العالم الاسلامى وهذه هى اغارة التتار الثانية وتختلف عن الاولى بأن تيمورلنك كان مسلما شيعيا فى حين إن چنكيز خان صاحب الاغارة الاولى لم يكن مسلما ولكن اغارة التتار الثانية لم تكن فى تخريبها وسفكها للدماء أقل من الاولى وقد كان لسلاطين المماليك فضل جديد فى دفع خطرها عن مصر بعد ان استولى تيمور على جميع البلاد الإسلامية الشرقية

لجأ بعض الامراء السلاجقة الى تيمور وجعلوا يوغرون صدوه على بايزيد وزاد الامر اشتدادا عندما ترددت المكاتبة بين الملكين وتبادلا فيها السباب الشنيع ، وأخيرا تدفق سيل التتار الى آسيا الصغرى وأسرع بايزيد للقائه حتى كانت الوقعة عند انقرة سنة ١٤٠٢ وفيها دارت الدائرة على الاتراك وانتصر تيمور نصرا عظيما واسر بايزيد مع بعض ابنائه وكان انتقام تيمور عظيما تشفيا مما رماه به بايزيد فى مراسلاته من السباب وبوقوع هذه الكارثة تحطمت الدولة العثمانية كأنها لم تكن ولم يكن هناك شعب عثمانى كثير العدد يستطيع ان يبقى الدولة بعد ذهاب جيشها وملكها فكادت تلك الدولة تزول لولا تردد الدول المجاورة لها لما كان بهن من الضعيف فلم يحدث اكثر من تفكك أجزاء دولة آل عثمان واستمر هذا التفكك حتى ظهر محمد الاول وجمع تلك الأجزاء وجعل يصل بعضها ببعض

العصر الثانى .

---

مضت مدة بعد صدمة انقرة كانت فيها الدولة العثمانية في خطر من الزوال . ولكن محمد بن بايزيد تمكن بعد مجهود عظيم من حفظها وما اتت سنة ١٤١٠ حتى كان يقود جيوشه مرة أخرى ينزع ما استرجعه الصرب والبلغار من البلاد التى كان أبوه وجده قد فتحاها فى البلقان .

وكانت مشاغلة كثيرة بين أخوة له يثورون عليه لينزعوا عنه الملك وبين جيران يكرهون أن لا تعود شوكة تلك الدولة المخيفة وقد كان محمد ممتازا

فى حكمته وكياسته فكان لايقدم على الحرب الا اذا كان لابد منها وجعل يسعى لارجاع دولته بالمسالمة بقدر استطاعته وترك للسلاجقة بآسيا الصغرى ما أرجعه لهم تيمور من البلاد حتى لايثوروا عليه وقنع من الدولة أن تعترف برياسته غير أن عمله كان عظيما فقد أقام الاساس الذى سيقيم خلفه عليه دولة جديدة أعظم من الدولة الاولى ·

وذلك الخلف هو مراد الثانى الذى حكم مدة ثلاثين سنة (١٤٢١ — ١٤٥١) ويمكن أن يعد من أكبر ملوك الدولة العثمانية من جميع الوجوه فكان يفتح فتوح وينظم الشئون الادارية وكان فى نفس الوقت رجلا خيراً معروفا بالفضل

وقد أعاد بناء الدولة فى آسيا الصغرى وأوربا فى آن واحد فقضى على امراء السلاجقة بعد أن كان أبوه قد سمح لهم بالاستيلاء على بلاد آبائهم التى أرجعها لهم (تيمور لنك) ولكنه كان موفقا فى عمله اذ لم يستطع هؤلاء الامراء أن يدبروا له مكيدة تقضى على دولته كما دبر اسلافهم المكيدة لبايزيد الاول بالاتفاق مع (تيمور لنك) اذ لم يكن أمام هؤلاء الامراء الا مصر وكانت عند ذلك فى أواخر عهد سلاطين المماليك وقد سبق وصف ذلك العهد الاخير من حكمهم وما وقع فيه من الاضطراب والفساد ولهذا لم يكن هناك ما يزعج مراد الثانى فى سياسته الاسيوية وأما سياسته فى أوربا فقد لقيت صدمات قوية لأن أوروبا ولاسيما الدولة المجاورة للبلقان وهي (المجر) كانت قد تنبهت منذ أيام بايزيد الى خطر العثمانيين ووقفت على أهبة الدفاع على نهر الطونة وكان بطل الدفاع عند ذلك (هونياد) المجرى الذى كان حاكما على اقليم ترنسلفانيا الذى كان تابعا للمجر . وقد هزم مراد قرب مدينة نيش فى أثناء نضاله مع هونياد حتى اضطر للتقهقر وراء جبال البلقان وعقد معاهدة سنة **١٤٤٤** وقد زاد من حرج مركزه أن خرج عليه أحد ضباطه (اسكندر باك) الصربى الاصل واستقل باقليم البانيا

وجعل يهبط على الجيوش العثمانية وكلما وجد فيها فرصة . وعندما رات المجر جرج موقف السلطان العثمانى نقضت المعاهدة وسيرت جيوشها الى الجنوب قاصدة الاجهاز على دولته وكان مراد بعد ابرام المعاهدة قد هجر الملك واعتزل فى قرية باسيا الصغرى فعند ما علم بذلك عاد وكانت العدالة مساعدة له فهزم ناقضى عهده عند (وارنه) على البحر الاسود فى سنة ١٤٤٤ واضطرهم الى اعادة عقد الصلح واحترام العهد . ومنذ ذلك الوقت لم يجد صعوبة فى رد اعدائه . الا أنه لم يقدر على القضاء على عدويه الكبيرين الذين بقيا رمزين للمقاومة

وقد صارت دولة العثمانيين ممتدة فى آخر حكمه من حدود الشام الى الدانوب ماعدا فجوة القسطنطينية وفجوة ألبانيا . وقد بقى فتحهما ليكون من حظ خلفه الكبير محمد الثانى او الفاتح الذى بدا حكمه سنة ١٤٥١ وحكم مدة طويلة مثل أبيه الى سنة ١٤٨١ اتم فى أثنائها فتح ماتخلل الدولة من الفجوات وزاد عليها فتوحا كبيرة فى شمال نهر الطونة وفى البحار المجاورة ولكن كان تاج كل فتوحه الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣



( شكل ٢٤ ) محمد الفاتح

## فتح القسطنطينية

بقيت الدولة الرومانية الشرقية أثراً من آثار المدنية الماضية. وقاومت الاغارات المتوالية نحو عشرة قرون بعد سقوط رومة في ايدى البرابرة .

ومنذ دخلت أوربا فى حوزة فاتحيها من الشعوب الجرمانية خبا الضوء الذى كان ينبعث قديما من التراث المتجمع من مدنيتى اليونان والرومان وخيم الظلام على أرجاء تلك القارة عصورا طويلة ولم يبدأ أن ينقشع عنها إلا بعد القرن الثانى عشر حينما بدأت تلك الشعوب تتصل بالعالم الاسلامى اتصالا سلميا وتستمد منه أول بذور نهضتها الحديثة .

وكانت قسطنطينية في كل هذه الاثناء تضم بين اسوارها بقايا المدنية القديمة وأكثرها من المخلفات اليونانية فكانت تلك العاصمة بالنسبة للعالم المسيحى مثل القاهرة فى العالم الاسلامى فان كلا منهما احتفظ بكنزه الثمين ودافع عنه أمام الهجمات العنيفة التى كانت توجه اليهما من الغزاة من كل جانب .

على أن ذلك الكنز ظل أكثر هذه القرون دفينا فى طيات الكتب والآثار أو على صفحات ذاكرة بعض العلماء فان علماء القسطنطينية اذ ذاك لم يكونوا أكثر من حفاظ يقدسون مايحفظون ولا يكاد يظهر بينهم مفكر مستقل يقرب من علماء العصور المجيدة في تاريخ اليونان ورومة القديمتين

وقد وقفت الجيوش العثمانية عند أسوار تلك العاصمة العظيمة موجهة انظارها اليها تتطلع الى اسوارها بين الخوف والامل . فان أسوار قسطنطينية كانت لاتزال عزيزة على مر العصور وهى التى ردت سيل العرب الامجاد وسخرت من محاولات الفرس والآفار وصدت البلغار والصرب من بعدهم غير أن استعداد السلطان العثمانى محمد الثانى كان عظيما قضى فيه سنتين منذ اعتلى عرش أبيه ويدل على ذلك عدد الجيش اذ قدر بنحو ربع مليون من المحاربين.

وقد كان دفاع آخر أباطرة الدولة الرومانية الشرقية مجيدا بقدر ما كان

الهجوم العثمانى عنيفا متصلا . وقد ضيق الحصار أخيرا حتى صارت الجيوش العثمانية على مقربة من الاسوار تصوب عليها ( المدفع ) الذى اخترعه عند ذلك مجرى واختص به السلطان فأحله محل المنجنيق فى تدمير الأسوار وكان يقذف كتلا عظيمة من الحجر قيل ان وزنها كان يبلغ اثنى عشر قنطارا الى مسافة ميل .

غير ان الحصار كان من جهة البر وحده ولم يكن للعثمانيين قوة بحرية كافية للتغلب فما زالت دولة الرومانيين الى انقضاء اجلها سيدة البحر . وكانت المدينة محاطة بالبحر من ثلاث جهات وقد وضعت سلسلة عند مدخل الميناء ( القرن الذهبى ) لتمنع دخول السفن اليها زيادة فى الاحتراس اذ كانت الأسوار هناك ضعيفة ولهذا الاحتياط كان المدافعون واثقين من نجاح مقاومتهم وزادفى ثقتهم مجىء امداد من البندقية وهى الدولة الوحيدة التى مدت يدها بمساعدة القسطنطينية فى هذه الأزمة ، فان أوربا كما مر لم تكن لتنصر الدولة الرومانية الشرقية بعد اذ كان ما كان من العداوة بينهما . ورأى محمد الثانى ان الحصار لايجدى اذا هو لم يكن تاما من جميع النواحى حتى تعجز المدينة عن المقاومة فانفذ فكرته العجيبة وهى انه صنع فى البر سفنا لحمل المحاربين ونقل هذه السفن ليلا بقوة الريح على قضبان من خشب دهنها بالشحم ليسهل الانزلاق عليها وساعد الرجال فى دفعها فى اثناء الليل فى سكون عميق حتى بلغت رأس القرن الذهبى وانزلت الى مياهه وعليها الجنود وبذلك وصل العثمانيون الى ناحية الاسوار الضعيفة التى يستطيعون الدخول منها فما طلع الصباح حتى رأى الجنود الرومانيون ان سفن العدو دونهم مالكة عليهم مكانهم وحدث الصراع الذى انتصر فيه الأتراك. ومنذ وضعوا الحصار على الأسوار المتهدمة بدأت عزائم المدافعين تضعف وأمر السلطان بالهجوم العام فى يوم ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ فكان فيه النصر

ومات آخر الأباطرة ميتة مجيدة وهو يقاتل بين الجند وهنا نترك وصف ماحدث من المشاهد المعتادة عند فتح عظيم كهذا الفتح ولا سيما فى تلك العصور التى لم تكن فيها البلد المغلوبة الا غنيمة وأهلها أسرى يفعل بهم الفاتح مايشاء غير ان السلطان لم يترك الفوضى زمنا طويلا بل أعاد النظام بعد أيام قلائل وبدأ يضع الخطط لنقل مقر الحكم الى تلك العاصمة الكبرى التى ظلت سيدة العالم قرونا طويلة .

ولم يقصر همه على تنظيم الادارة بل بدأ يعمل على أن يجعل الشعب المغلوب جزءاً من شعب دولته الجديدة رغبة فى الاستفادة من مجهوده ودرايته فان الاتراك كانوا ولاشك أقل دراية بالأعمال المدنية من اليونانيين الذين كانوا أهل القسطنطينية وقد أعطاهم قسطا كبيرا من الحرية وجعل لهم استقلالا داخليا كبيرا تحت رئاسة زعيمهم الدينى وهو ( البطريرك ) الذى صار من كبار رجال الدولة وبمثل هذه الطريقة استطاع الفاتح أن يستميل الشعب اليونانى ولو أن ذلك الاستقلال الداخلى أعقب على العثمانيين ضعفا فيما بعد .

## نتائج فتح القسطنطينية

ارتج العالم لذلك الفتح سواء فى ذلك شرقه وغربه . وكان له آثار بعضها مباشر وبعضها غير مباشر نلخصها فيما يلى

(١) هاجر كثير من العلماء الى أوربا بعد ضياع وطنهم ونقلوا معهم مااستطاعوا نقله من الكتب والآثار فكان لذلك اثر كبير فى زيادة حركة النهضة الفكرية فى اوربا ولا سيما فى ايطاليا حيث حل الكثيرون من هؤلاء العلماء فى بلاط المدن التجارية الكبرى مثل فلورنس وميلان الخ .

(٢) صار للترك مجد أدبى فوق قوتهم الحربية فأعلى ذلك من شأنهم بين الشعوب الاسلامية وأهلهم هذا للزعامة التى ستصبح لهم فيما بعد اذ

يحلون محل دولة المماليك المصرية فى سيادة العالم الاسلامى

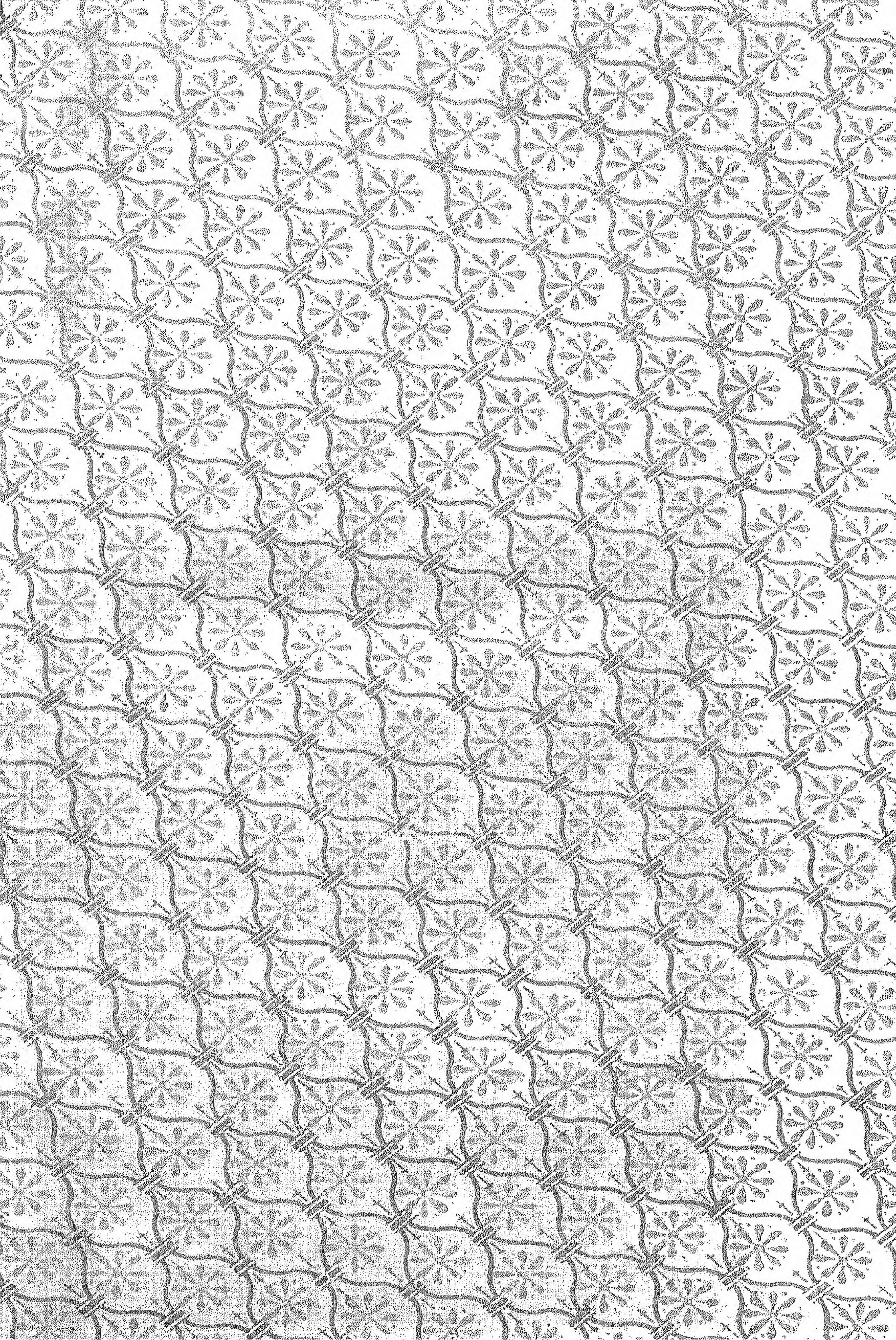
(٣) استولى الاتراك على مركز التجارة الاكبر فى البحر الابيض وبذلك ضربت تجارة المدن التجارية الكبرى ( البندقية وجنوة ) ضربة قاضية وهذا ماساعد على نمو بلاد اخرى فقامت بلاد غرب أوربا تنافس فى التجارة وتبحث عن طريق مأمونة الى الشرق وهذا ما أدى الى زيادة حركة الاستكشاف العظيمة حول أفريقيا

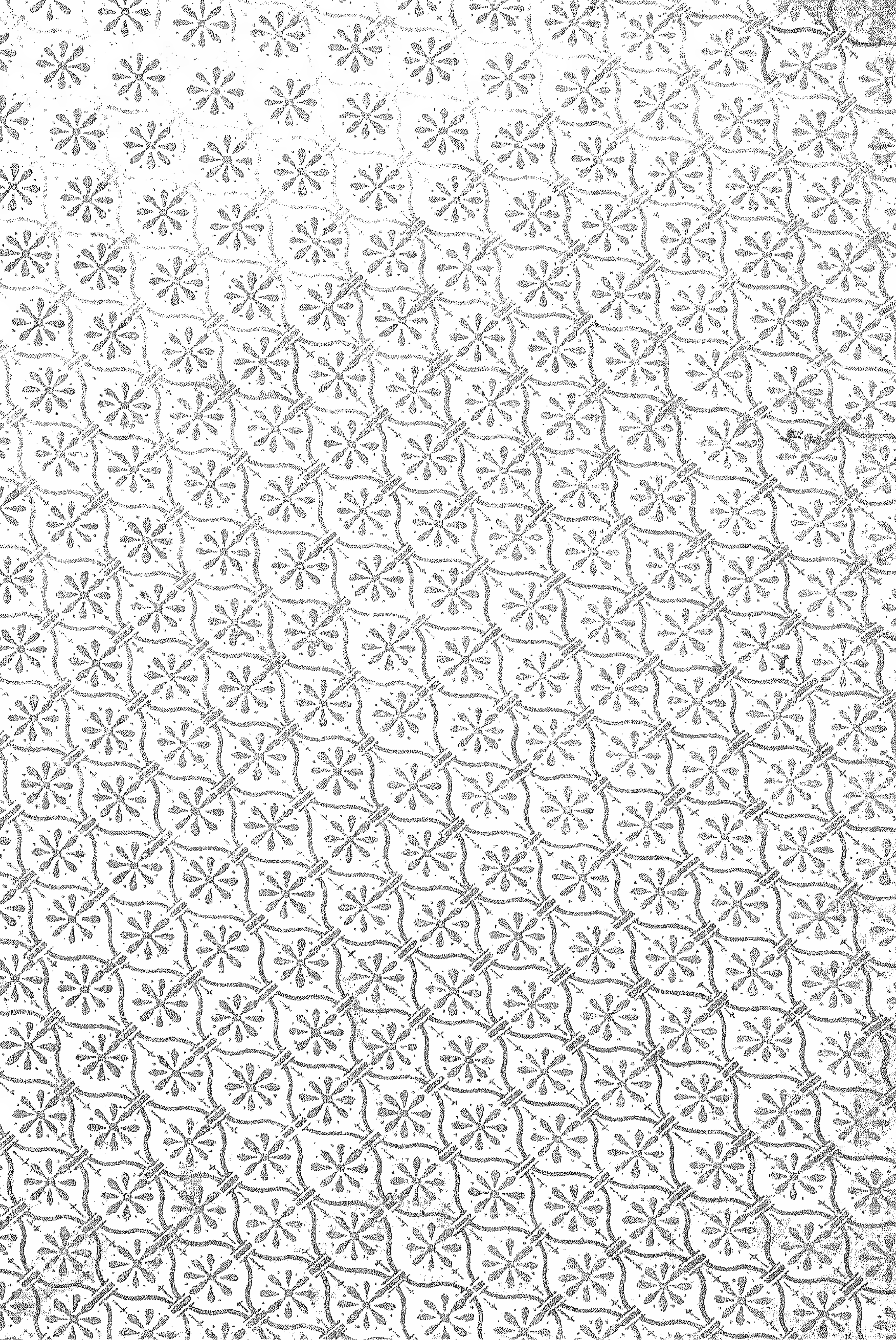
وقد اصطلح المؤرخون على جعل تاريخ فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ مبدأ التاريخ الحديث



# فهرس الكتاب

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|






Bibliotheca Alexandrina
0691252